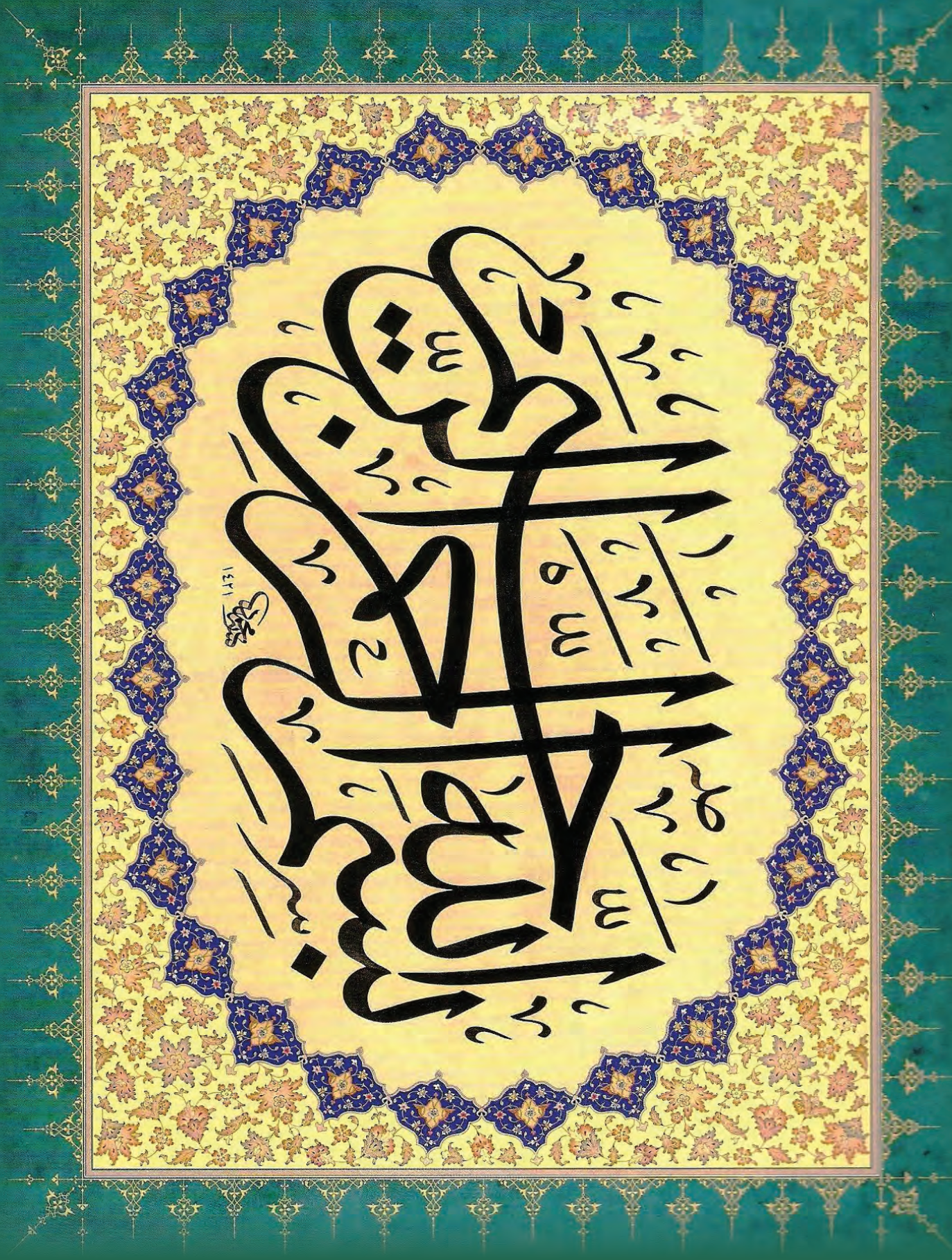

صدى القرآن

مجلة قرآنية ثقافية فصلية تصدر عن دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة العدد الخامس السنة الثانية

أسرة التحرير

الإشراف العام
سماحة الشيخ
عبد المهدي الكربلائي
الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة

الإشراف الإداري
الشيخ حسن المنصوري

رئيس التحرير
أ.د. عادل نذير بيري
جامعة كربلاء

مدير التحرير
أ.م.د. أحمد صبيح الكعبي
جامعة كربلاء

سكرتير التحرير
جعفر حسن علي
دار القرآن الكريم

التنسيق والعلاقات
عمار رزاق الخزاعي

الإخراج الفني
محمد طاهر الموسوي

الهيأة الاستشارية
سماحة السيد فاضل الجابري
الأستاذ طلال الكمالي
الأستاذ الدكتور عبود جودي الحلي
الدكتور زين العابدين موسى جعفر

هيئة التحرير
أ.م.د. محمد جعفر العارضي
جامعة القادسية
أ.م.د. حيدر عبد الزهرة
جامعة بغداد
م.د. فالح حسن الأسدي
جامعة بابل
م.د. انتصار راضي عليوي
جامعة الكوفة

المدقق اللغوي
أ.م.د. عبد الحسن العبودي
جامعة القادسية

ترجمة
سعد شريف طاهر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٣

www.dar-alquran.org sadaalquran1@gmail.com

صدى القرآن

مجلة قرآنية ثقافية فصلية تصدر عن دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة العدد الخامس السنة الثانية

محتويات العدد

	الافتتاحية		٥
	أبحاث ومقالات		
١	أسماء القرآن الكريم قراءة في إشكالية الأسماء والصفات	م.م. نصير كريم الساعدي	٧
٢	العصمة وأثرها في تلقي النص القرآني	م.د صباح عيدان حمود العبادي	١٩
٣	العقل وأهميته في فكر الإمام موسى الكاظم عليه السلام من منظور قرآني	م.د. مياس ضياء القزويني	٥٧
٤	الشعراء في القرآن الكريم	د.كاظم جاسم منصور العزاوي	٧٥
٥	سبل تعزيز القيم الروحية (قراءة في النص القرآني)	د. نضال حنش شبار الساعدي	٩٣
٦	تأملات في قصة نبي الله موسى عليه السلام في السياق القرآني	السيد محمد الشوكي	١١١

صدى القرآن

مجلة قرآنية ثقافية فصلية تصدر عن دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة العدد الخامس السنة الثانية

٧ مفهوم التوسل في المنظور القرآني سورة يوسف أنموذجًا — م.د. محمد حسين عبود — ١٢٩

٨ مفهوم الغريب في القرآن الكريم — م. د. فلاح رسول حسين الحسيني — ١٤٥

٩ آية (يسألونك ماذا ينفقون...) في سورة البقرة قراءة سياقية — م.م. رافد عبد الكاظم سالم — ١٦١

١٠ صورة الكافر في الخطاب القرآني دراسة سيميائية — د.مهدي راضي عبد السادة — ١٦٩

قراءة في أطروحة جامعية

التنحية النحوية ودلالاتها في القرآن الكريم

للدكتور نزار عبد اللطيف العجرش — عرض: م.د. فالح حسن الأسدي — ١٩٥

مشاريع قرآنية

التبليغ القرآني الدولي — أ.م.د. أحمد صبيح الكعبي — ٢٠٥

الأبحاث والمقالات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة
إنما تمثل رأي الكاتب

الإفتتاحية

عقولُ العقلاءِ.. أطرافُ اقلامِهم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمدٍ وآله الطيبيين الطاهرين وصحبه الغرّ الميامين ، السلام على الحسين، وعلى أولاد الحسين ، وعلى أصحاب الحسين، الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام ، ثم السلام على قرّاء (صدى القرآن).

قال عز وجل ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف / ١٠٩.

الآية الكريمة تجعلنا أمام جملة أمور ومسؤوليات تحتم علينا النهوض بها، والتعبير عنها، ولنا في ضوء الآية الكريمة أن نتخيَّل حجم الحاجة المعرفية والعلمية التي تفرض علينا تدبّر القرآن الكريم وتأمُّله لنتمكن من إزجاءِ معانيه لعامّة المسلمين أولاً ولعموم البشرية من غير المسلمين ثانيًا، ثم نتصوَّر طبقات الوعي المعرفي والعلمي للمسلمين على مختلف مذاهبهم واتجاهاتهم، وحاجة كلّ طبقةٍ منها الى طائفةٍ من المتخصصين والباحثين والدارسين المتمكنين من تقنين المعنى القرآني، وصياغتهِ على النحو الذي يلبي حاجة الفئة المستهدفة أولًا، وعلى النحو الذي يتساوق والخطوط الأصيلة للإسلام ثانيًا.

إنّنا بحاجة إلى نهضة حقيقية في فهم القرآن الكريم والبحث فيه لا تستسلم لمكان أو زمان، دائمة التوثُّب لكل ما هو جديد ولاسيما على المستوى القيمي، والعلمي لعرضه على معاني القرآن الكريم؛ التي لا يُسبَرُ غورُها من دون بحث ودقيق نظر، والبحث القرآني الذي نرجوه هو بحث مؤسساتي تسيِّره مشاريع ورؤى وخطط مستقبلية، وليس البحوث المرتجلة التي لا تخلو من بركات القرآن في كثير من الأحيان، فإنها تشترك في تشكيل الوعي

الإفتتاحية

المعرفي والعلمي للمسلمين ولا سيما الوعي الذي يتساوق وطبيعة القرآن المتجددة والشاملة التي جعلتنا نؤمن به دستورًا إلهيًا للبشرية جمعاء.

واستشعارًا لتلك الحاجة تدأبُ مجلة (صدى القرآن) وتتطلع إلى أطرافِ أقلام الباحثين لأنّها تكشف عن عقولهم في تدبر النص القرآني، وتحثُّهم على الكتابة في ما يلبيَ حاجة الوعي الإسلامي لمختلف الشرائح الاجتماعية، كي لا يكون البحث محض افتراضات، وتنظيرات وتأمّلات، لأنّ البحث الذي يراقبُ شريحة اجتماعية معينة على وفق مستوى ما تعيه تلك الفئة سيكون من دون شك بحثًا مُنتجًا لوعي جديد ولافتًا النظر إلى مساحة معرفية لم تطأها الانظار من قبل، تستميل تلك الفئة الى قراءته ومراقبته، وحثها للمتابعة والاستزادة.

ونحن اليوم تغمرنا سعادة بالغة اذ إنَّنا في هذا العدد نضع بين ايدي قرائنا الكرام اضمامة جديدة من الابحاث العلمية، والتأمُّلات العقلية، ولا سيما ما ينهض بمعاني القرآن الكريم وآفاقه، ناشدين من ورائها بثَّ روح الوعي القرآني في مختلف شرائح المجتمع المسلم، آملين استدرار اطراف اقلام الباحثين ممن شغلهم الإعجاز القرآني فيمموا جهدهم صوبه يستنطقونه ويتأمّلونه متيقنين من أنَّ معانيه لا تنضب وعجائبه لا تنقضي، وإن كان البحر مدادًا لأقلامهم.

وفق الله العاملين في دار القرآن الكريم لخدمة القرآن، و الحمد لله من قبل ومن بعد، وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين وصحبه الغرِّ الميامين.

رئيس التحرير

أسماء القرآن الكريم

قراءة في إشكالية الأسماء والصفات

م.م نصير كريم الساعدي

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والحمد حقه كما يستحقه حمداً كثيراً، وأستغفره وأستهديه، وأعوذ به من شرور أنفسنا انه أرحم الراحمين.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين السراج المنير الذي كان خلقه القرآن ووصيته القرآن وميراثه القرآن، رسول الله أبي القاسم محمدﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين، الهداة، الذين جعلهم رسول اللهﷺ قرناء القرآن (صلوات الله عليهم أجمعين)، وعلى أصحابه الغر المحجلين، الذين وفوا ببيعته وساروا على نهجه، وبذلوا مهجهم دونه.

أما بعد: فقد تنوعت دراسات علماء المسلمين واختلفت وشملت كل نواحي القرآن الكريم، وما بحثنا اليوم الا قطرة من ذلك النمير العذب الذي نهل العلماء منه، ومازالوا ينهلون ما دامت السموات والارض.

وبحثي يتناول مسألة أسماء القرآن التي بحثها العلماء سابقاً وكانت لهم أقوالهم المختلفة في ذلك، وهنا أحاول الولوج في أعماق المصادر لتسليط الضوء على هذه

المسألة ومعرفة جذورها وأسباب الحقيقية التي أدت إلى تعدد أسماء القرآن الكريم عند العلماء مستخدماً منهج الموازنة بين الأقوال، بغية الخروج برأي راجح، فضلاً عن بيان رأي السيد السبزواري في المسألة من خلال تفسيره.

المطلب الأول: أسباب تعدد أسماء القرآن:

سُمّي القرآن الكريم بمجموعة أسماء تضمنها التنزيل الحكيم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) وعدد هذه الأسماء يتفاوت بين العلماء، فمنهم من خلط بين الأسماء والصفات[١] وأوصل أسماء القران الكريم إلى خمسة وخمسين اسماً[٢]، وآخرون توسطوا فجعلوا (القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر) أسماء والباقي صفات[٣]، ومنهم من أضاف إليها الوحي[٤]، وآخر أضاف التنزيل[٥].

ومن الباحثين من ذهب إلى القول أن القرآن الكريم هو الاسم الوحيد للوحي المنزل على النبي محمدﷺ وباقي الأسماء صفات له[٦]، وهذه المسألة من المسائل التي طال الكلام فيها.

ويبدو أن الحديث عن تعدد أسماء القران الدالة على مفهوم واحد (كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمدﷺ) يرتبط ارتباطاً مباشراً بظاهرة الترادف[٧] في اللغة العربية، بل هو من مصاديقها وتطبيقاتها، وإذا أردنا أن نبين الراجح من آراء العلماء في أسماء القرآن الكريم، ومنه إلى بيان رأي السيد السبزواري في حقيقة أسماء القرآن، فلا بد لنا أولاً أن نستوضح مفهوم الترادف وأسباب نشوئها وموقف العلماء منها بإيجاز.

والترادف من القضايا التي كانت محل اخذ وجذب بين المثبتين والمنكرين مما أدت إلى انقسامهم إلى مذاهب، فمنهم من جعلها ظاهرة مميزة للغة العربية بل هي من خصائصها التي انمازت بها عن غيرها، وذهب آخرون إلى إنكارها، ومن ثالث اتخذ الوسطية فيقول بالترادف لكن بقيود[٨].

والمثبتون لها من القدماء قد بالغوا كثيرا فيها، إذ يذكر الأصمعي للرشيد انه يحفظ للحجر سبعين أسماً، ويقول ابن خالويه انه جمع للأسد خمسمائة أسم وللأفعى مئتي اسم[٩] وهكذا.

وهذا الإسراف في تعداد الأسماء أدى إلى ظهور تيار معارض لهذه الظاهرة، بل كان منكرا لوجودها في أصل اللغة، ومنهم أبوعلي الفارسي وابن فارس، إذ يذهبان إلى أن الشيء قد يسمى باسم واحد كالسيف مثلا، ثم تكون له مجموعة ألقاب وأوصاف، كالصارم والمهند والحسام وغيرها فهذه عندهم صفات للسيف وليست أسماء[١٠] ، إذ يرى ابن فارس «أنَّ الخلاف بين الألفاظ المترادفة يكمن في أن ثمة اسماً هو الحقيقة في الدلالة، وما عدا ذلك الاسم صفات جاءت متأخرة في أصل اللغة»[١١].

وبعيدا عن الفعل وردة الفعل، ظهر اتجاه ثالث رفع شعار الوسطية، متمثلاً بفخر الدين الرازي إذ لم ينكر الترادف، لكن ميز ما كان اسماً للذات وممّا كان اسماً للصفة[١٢]، وهو ما تبناه الدكتور كاصد الزيدي الذي يقول: «والذي ذهب إليه الرازي هو الأقرب في ما يبدو لواقع اللغة وقصد المتكلم، مما يذهب إليه كثير

من القدامى من الرفض المطلق او القبول المطلق»[١٣].

ولقد ذكر الباحثون أسباباً أخرى[١٤]، لهذه الظاهرة ولكن الأظهر إن كثرة الخلط بين الأسماء والصفات هو السبب الرئيس في ظهور هذه الظاهرة ونشوئها.

يقول محمد المبارك «إن للشيء المسمى وجوهاً وصفات كثيرة يمكن أن يسمى بأكثر من صفة من صفاته، وان يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة، تبعاً لتلك الوجوه والصفات، ومن هنا ينشأ الترادف»[١٥]، إذ «ليس من المعقول من أن تتعدد أسماء الشيء الواحد في كلام القبيلة الواحدة، ولكن من المعقول أن تتعدد صفاته، فيصفونه بعدة صفات يرونها دالة عليه ومعبرة عنه، ثم صارت في عرض السامعين أسماء بعد أن تطاول عليها الزمن، وأما ما ذكروه من ألفاظ عدّوها مترادفة وليست من الصفات كالقمح والبر والحنطة، وكالمدية والسكين، فهذه هي المترادفات حقاً لأنها تحكي عن ذوات»[١٦].

ويصح هذا الكلام إن كانت اللغة العربية

الفصيحة جمعت من لهجة واحدة ولكنها كانت نتاج لهجات عديدة وأجيال مختلفة: «فالترادف ظاهرة لغوية طبيعية في كل لغة نشأت من عدة لهجات متباينة في المفردات والدلالة، وليس من الطبيعي أن تسمى كل القبائل العربية الشيء الواحد باسم واحد، وعليه نرى إن الترادف وقع في اللغة العربية الفصحى التي كانت مشتركة بين قبائل العرب في الجاهلية»[١٧].

لكن عذر تعدد اللهجات في ظهور الترادف لم يسلم من النقد، لعدم تناسب عدد اللهجات مع الأسماء التي أحصيت لبعض المسميات، فهل يعقل إن في العرب ألف لهجة؟، حتى يكون للسيف ألف اسم[١٨]، او خمسمائة اسم للأسد[١٩].

والراجح أن السبب الرئيس لكثرة الأسماء هو انتقال الكثير من صفات الاسم الواحد من معنى الوصفية إلى معنى الاسم الذي تصفه[٢٠]، والانتقال لم يتم بسرعة «بل عبر رحلة اللغة الطويلة إلى الأسمية، وفقدانها صفتها الأصلية كما هو الحال في أسماء الأسد والسيف»[٢١]، وهذا ما دعا الدكتور رشيد العبيدي إلى القول بان الأصل في الألفاظ المترادفة أن تكون ألفاظاً ذواتاً لا صفات[٢٢].

ويظهر من الكلام السابق أن الخلاف في الترادف كما ينطبق على كثرة بعض الأسماء أمثال السيف والأسد وغيرها، بسبب الخلط بين الاسم والصفات ينطبق على مسالة تعدد أسماء القرآن والقائلين بالكثرة والقلة .

المطلب الثاني: موقف السيد السبزواري من تعدد أسماء القرآن الكريم:

يظهر من خلال تتبع أقوال العلماء وأدلتهم التي ساقوها لاختيار أسماء القرآن و تحديدها أنَّ هناك فريقين إجمالا:

الأول: القائلون إن أسماء القرآن أربعة «القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر» والباقي صفات، مع ملاحظة أن بعض الباحثين أضاف بعض الأسماء الأخرى كما اشرنا في بداية الموضوع، لكن ذلك لا يخرجهم من هذا القسم .

الثاني: القائلون أن للقرآن اسماً واحداً وهو القرآن الكريم، والأسماء الأخرى صفات.

وأخرجنا من الكلام المكثرين في عدد أسماء القرآن، الذي لا يحتاج إلى كثير كلام

فيه بعد أن أوضح كثير من الباحثين[٢٣] إن هذا خلط واضح بين الأسماء والصفات.

والفريق الأول الذي يرى أن للقرآن أربعة أسماء دليلهم، أن هذه الأسماء ورد ذكرها في القرآن الكريم كأسماء (لكلام الله المنزل):

القرآن: في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (يونس: ٣٧).

الكتاب: في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢).

الفرقان: في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١).

الذكر[٢٤]: في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

وقولهم أن هذه الأسماء ثبتت لكلام الله في القرآن نفسه يشكل عليه من جهتين:

الجهة الأولى: إن هذه الأسماء أطلقت على غير القرآن من الكتب السماوية كما أُطلقت على القرآن، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٥٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٨).

ويدل هذا الاشتراك في التسمية على أنها من قبيل الوصفية المشتركة بين الكتب السماوية «واشتراك القران مع الكتب الإلهية المنزلة الأخرى بتلك الأسماء فيه إشارة إلى وحدة المصدر فهي كلها كلام الله»[٢٥].

والمتتبع لتلك الأسماء في كتاب الله تعالى يجد أنَّ اسم القرآن وحده دون الأسماء الثلاثة الأخرى هو الذي اختص من بينها بالدلالة على كلام الله المنزل على نبيه ﷺ[٢٦]، إذ أن لفظ القرآن حينما يسمع فان الذهن يتبادر إلى ذلك الكتاب الكريم، والتبادر إمارة الحقيقة[٢٧].

ويظهر أن لفظة القرآن لم يختصها سبحانه وتعالى في كتابه المجيد إلا للدلالة على القرآن الكريم، وما ذكر من أسماء للقرآن هي حقيقة أوصاف يشترك فيها القرآن وغيره، (والخلط بين الأسماء والصفات) أسس لكثرة الأسماء في ظاهرة الترادف كما أوضحنا سابقا، وسيتضح المطلب أكثر عندما نرى كيفية تعامل السيد السبزواري مع هذه الأسماء.

الجهة الثانية: إن الإشكالية الأخرى التي يمكن إثارتها على القائلين بتعدد أسماء القرآن ، لماذا لم يختار الإسلام اسماً لكتابه المعجز أسوة بالكتب السماوية الأخرى التي سماها الشارع بأسماء محددة؟ ، «خاصة وان مسألة اسم الكتاب الكريم هي مسألة تتعلق بالعقيدة»[٢٨].

على الرغم من أنَّنا نجد أنَّ الإسلام كان حريصا على أن يوحِّد مفاهيمه وأسماءه الخاصة التي تميزه من محيطه الوثني الذي ظهر فيه، بل نجد هذه السمة بارزة في إبراز الهوية الإسلامية، وتجلى ذلك بإطلاق مسميات خاصة تميز الدين الجديد ممّا موجود من أفكار ومسميات جاهلية وهذا ما سمي بـــ«المصطلح الشرعي»[٢٩]، وما قضية «تحويل القبلة، وتعيين أعياد خاصة للمسلمين وتسمية الرسولﷺ لمن لم يتبع الإسلام (جاهلي) إلا مؤيدات لما ذهبنا إليه، من الحرص على إيجاد امة مستقلة عن سائر الأمم»[٣٠].

ويعتقد السيد محمد باقر الصدر أنَّ اختيار أسماء مخالفة لما سمى به العرب كلامهم جملة وتفصيلا، والاهتمام بوضع أسماء محدودة ومصطلحات جديدة يتماشى مع خط عريض اتبعه الإسلام للتعبير عما جاء به من مفاهيم[٣١].

ولنا أن نتساءل عن سبب هذا الإصرار على اتخاذ الخصوصية في إيجاد المفاهيم الإسلامية بعيداً عما كان مذكوراً من ألفاظ؟

يجيب الشهيد الصدر: لعل ذلك يرجع لعاملين :

الأول: إن الكلمات الشائعة في الأعراف الجاهلية من الصعب أن تؤدي المعنى الإسلامي بأمانة .

والثاني: وهو الأهم، وذلك بأن تكوين أسماء محدودة يتميز بها الإسلام، سوف يساعد على إيجاد طابع خاص وعلامات فارقة بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات[٣٢].

إذن كان هناك خط عام سار عليه الإسلام لتمييز مفاهيمه ممّا يحيطه من ثقافات، وتجلى ذلك بإعطاء أسماء خاصة لتشريعاته التي جاء بها (سواء كانت في العبادات ام المعاملات).

ويحق لنا أن نكرر التساؤل على القائلين بتعدد أسماء القرآن، لماذا لم يختص القرآن الكريم باسمٍ خاصٍ أسوة بجميع

تشريعاته؟ ألم يُسمِّ كتبه السماوية الأخرى (التوراة والإنجيل والزبور) بأسماء خاصة؟

أيعقل أن الشارع المقدس يغفل (حاشى لله) عن تحديد اسم خاص لكتابه المعجز الذي انزله ليكون خالداً ما دامت السموات والأرض وبه ختمت الرسالات؟

لذلك ذهب الدكتور محسن عبد الحميد إلى عَدّ القرآن اسماً خاصاً لكلام الله، كما أن هناك أسماء خاصة للكتب السماوية الأخرى «وبذلك يكون لفظ (القرآن) اسماً علماً، لا يطلق إلا على الكتاب الذي انزله الله على محمدﷺ كما يسمى كتاب موسى بالتوراة وكتاب عيسى بالإنجيل»[٣٣].

وقد تحدث السيد السبزواري عن أسماء القرآن (القرآن والكتاب والفرقان والذكر) وهذه الأسماء هي المشهورة عند العلماء، وعندما يتعرض لهذه الألفاظ بالبيان ،نجده يميز بينها ، فهو يتحدث عن لفظة القرآن بقوله: «علم للكتاب المنزل على رسول اللهﷺ ...»[٣٤]، واسم العلم: هو ما دل على واحد دون غيره من أفراد جنسه بلا قرينة[٣٥] ، فلفظة (القرآن) عنده لا تحتاج إلى قرينة صارفة إلى المعنى لأنها دالة عليه وخاصة به.

و نجده أيضًا عندما يتعرض لغيره من الأسماء مثل لفظة (الكتاب) يخبر عنها (بأنها اسم جنس)[٣٦]، وغيرها بـــ(المراد من الذكر هنا القرآن، او المراد من الفرقان هنا القرآن) والتعبير عنها بهذه العبارات يدل على عدم انصراف الذهن إلى أن المراد منها هو القرآن الكريم تحديدا، ولذلك فهو يحتاج إلى قرينة صارفة لبيان معناها، على ما سنفصل به عند التعرض لرأي السيد في هذه الأسماء.

ويظهر أنَّ السيد السبزواري يفصل بين اسم القرآن الذي أعطاه صفة العلمية، وغيره من الألفاظ التي هي صفات يشترك بها القرآن وغيره، على ما سنرى في المطلب المقبل.

ونخلص إلى أنَّ مسألة (أسماء القرآن) هي من الترادف في اللغة، والتي اختلف فيها العلماء كما اختلفوا في تعيين اسم القرآن الكريم.

ورجح الباحث إن الترادف في اللغة موجود بشرط أن يكون هناك فصل مابين الذات والصفة.

وان القرآن هو اللفظة الوحيدة الدالة على كلام الله تعالى دون الأسماء الأخرى

التي هي في الحقيقة صفات لا أسماء للقرآن.

ويظهر في ضوء ما تقدَّم أنَّ من العلماء من يتبنَّى الفصل بين الاسم و الصفة في سياق أسماء القرآن .

الهوامش

١ – ينظر: موجز علوم القرآن: داود العطار: ٤٢.

٢ – ينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين بن محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ــ بيروت،ط١: ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٧م:١ /٢٧٤ ــ ٢٧٧ ، والإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي ، تحقيق: محمد سالم هاشم ،مؤسسة فخر دين ــ قم ، ط:١٣٨٠ :١/ ١٣٧ ــ ١٤٠ .

٣ – ينظر:المدرسة القرآنية:السيد محمد باقر الصدر:٢١٠ ، والتسهيل لعلوم التنزيل: القاسم بن محمد الكلبي الغرناطي ، دار الكتب العربية ــ بيروت، ط٤: ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م :١/٥.

٤ – ينظر: التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور(ت١٣٩٣هـ) ــ ط١ــ مؤسسة التأريخ ــ بيروت ــ لبنان ــ ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م :٧٠.

٥ – ينظر:مناهل العرفان: الشيخ عبد العظيم الزرقاني:١/ ١٣ ، وفي رحاب القرآن الكريم، الدكتور محمد سالم محيسن، ط:١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م :١٨ ــ ١٩.

٦– ينظر:تفسير القرآن الكريم: السيد مصطفى الخميني، مؤسسة نشر آثار الإمام الخميني ــ قم ،ط١: ١٤١٨هـ: ١/ ٨ ، ومعالم المدرستين: السيد مرتضى العسكري ،مؤسسة النعمان للنشر ــ بيروت،ط١: ١٤١١هـ ــ ١٩٩٠م :٢/ ٣٦٣ ، والقرآن الكريم والأصول في تدبره ، الدكتور محمد حسين صفوري ، شركة المطبوعات للنشر ت بيروت ،ط١: ٢٠٠١ م:٢٢.

٧– الترادف في اللغة: هو ما اختلف لفظه واتفق معناه، وهو إطلاق عدة كلمات على مدلول واحد، ينظر: المعجم المفصل في اللغة والأدب: إميل بديع يعقوب والدكتور ميشال عاصي ، دار العلم للملايين ــ بيروت ، ط١: ١٩٨٧: ٣٧٣.

٨– ينظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية: الدكتور رشيد العبيدي، مطبعة التعليم العالي ــ بغداد، ط : ١٩٨٨م :٢٣٥ .

٩– ينظر: فقه اللغة العربية: الدكتور كاصد الزيدي، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل، ط١: ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧م:١٦٩ .

١٠– المصدر نفسه : ١٦٩ .

١١– أبحاث ونصوص في فقه اللغة :٢٣٧ .

١٢– ينظر: فقه اللغة: الزيدي :١٧٠ .

١٣– المصدر نفسه : ١٧٠ .

١٤– ينظر: المعجم المفصل في اللغة والأدب :٣٧٦ .

١٥– فقه اللغة وخصائص العربية: محمد مبارك: ١٩٩ ــ ٢٠٠ ، نقلا عن: أبحاث ونصوص في فقه

اللغة /٢٣٤.

١٦ - فقه اللغة : الزيدي:١٧٠ .

١٧ - المعجم المفصل:٣٧٤.

١٨ - ينظر: المصدر نفسه :٣٧٣.

١٩ - ينظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة:٢٣٨ .

٢٠ - ينظر: المعجم المفصل:٣٧٥ .

٢١ - أبحاث ونصوص في فقه اللغة:٢٤١ .

٢٢ - ينظر: المصدر نفسه: ٢٣٥.

٢٣ - ينظر: ،مناهل العرفان:١/ ١٤، التمهيد في علوم القرآن:الشيخ محمد هادي معرفة:١/ ١٥، موجز علوم القران:٤٢.

٢٤ - هذه الأسماء هي المشهورة عند العلماء وقال بها المفسرون القدماء: ينظر: جامع البيان :١/ ٧٧، والتبيان في تفسير القران:١/ ١٧ــ١٨ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن:١/ ٤١ .

٢٥ - علوم القرآن :الدكتور محسن عبد الحميد وآخرون، مطبعة وزارة التربية ــ بغداد ، ط٤: ١٤١١هـ ــ١٩٩٠م :٩ .

٢٦ - ينظر: المصدر نفسه :٨ .

٢٧ - ينظر: مناهل العرفان:١/ ١٣ .

٢٨ - دراسات في علوم القرآن:١٢ .

٢٩ - المصطلح الشرعي: ما استعمله الشارع المقدس في معنى خاص وبلغ الرسولﷺ ذلك، أمثال: الصلاة التي كانت تعني الدعاء في العربية وانتقل اللفظ ليدل على الصلاة الشرعية المتكونه من أفعال مخصوصة، ومنها الصيام والزكاة وغيرها، ينظر:معالم المدرستين: السيد مرتضى العسكري، مؤسسة النعمان للنشر ــ بيروت، ط١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م:١/ ٨٠.

٣٠ - موجز علوم القرآن:٤١ .

٣١ - ينظر: المدرسة القرآنية: ٢٠٩ــ٢١٠ .

٣٢ - ينظر: المدرسة القرآنية:٢١٠، وعلوم القرآن: السيد محمد باقر الحكيم:١٧ ــ١٨ .

٣٣ - علوم القرآن: الدكتور محسن عبد الحميد:٩ .

٣٤ - مواهب الرحمن: السيد عبد الاعلى السبزواري:٣/ ٢٩ .

٣٥ - ينظر: قواعد اللغة العربية: الدكتور مبارك مبارك، الشركة العلمية للنشر ــ بيروت، (د.ت):٢١ .

٣٦ - اسم الجنس: هو الذي لا يختص بواحد دون غيره من أفراد جنسه، ينظر:المعجم المفصل في اللغة والأدب:١/ ١٤.

العصمة

وأثرها في تلقي النص القرآني

م.د. صباح عيدان حمود العبادي

ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة
لقمان ٢٠

المقدمة:

إن الوظيفة التي وجد من أجلها الخطاب الإلهي اقتضت أن يبّين النص القرآني أثر المتلقي في عملية الاتصال الذي هو البيان والتبيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (المائدة :١٩) وان هذا المتلقي أُعطي التفويض الكامل في تبليغ النص القرآني فهو المؤهل الأوحد لقراءة النص وبيان دلالته التي أرادها المبدع في لحظة ولادة النص لتكتمل ركائز الخطاب ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر :٧) ولكي تكون الدلالة أكثر اطمئناناً عند المتلقي الثاني ربط المبدع النص به عن طريق الوحي، الذي يمثل الطريق الأمين لنقله وتحقيق عملية الاتصال ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣ -٤)، فالمتلقي إذن مختار ومقصود لذاته لما يحمله من مؤهلات التلقي وقد اصطفاه المبدع ليكون جزءاً من الخطاب فلابد من توفر خواص جديدة فيه ومختلفة عن غيره لأن هذا (الغير) لا يستطيع ان يتلقى ثقل الوحي فكانت النبوة أكثر انضباطاً والتزاماً بتحمل ثقل الرسالة لما تحمل من صفات وخلق يجعلها أكثر قبولاً من المتلقي الآخر

في كل زمان ومكان.

وشاءت حكمة المبدع أن يضع الأمور في موازينها واقتضت أن يكون حامل الرسالة من جنس المرسل إليه ولما كان جنسهم هو البشرية، كان المرسَل بشراً أيضا وجاء النص القرآني ليؤكد جنسية المتلقي الأول وبصيغ وأساليب نصية متعددة، لعل ابلغها ما جاء بصيغة الأمر ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾(فصلت:٦) و(الكهف:١١٠)، فهو بشر وعربي (بلسان قومه) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(إبراهيم: ٤) هذه الآيات القرآنية ونظائرها تبين الفرق بين الذات الإلهية الآمرة والملقية (المرسلة) والذات المحمدية المطيعة المتلقية. وبين ذات اللّه المتكلم منزل الوحي وصفاته وبين ذات رسوله المخاطب متلقي الوحي وصفاته وقربها من صفات من أُرسل إليهم فمسألة المطابقة بين المرسِل والمرَسل إليه في الجنس واللسان كانت حاضرة ومهمة ليتم الاتصال فلو كان المرسَل ملكاً أو بلسان آخر لأصبحت عملية الاتصال بحاجة إلى أطراف أخرى فتكون متسلسلة و معقدة لذا حرص المبدع على إيجاد المطابقة الجنسية بين طرفي الاتصال اللساني

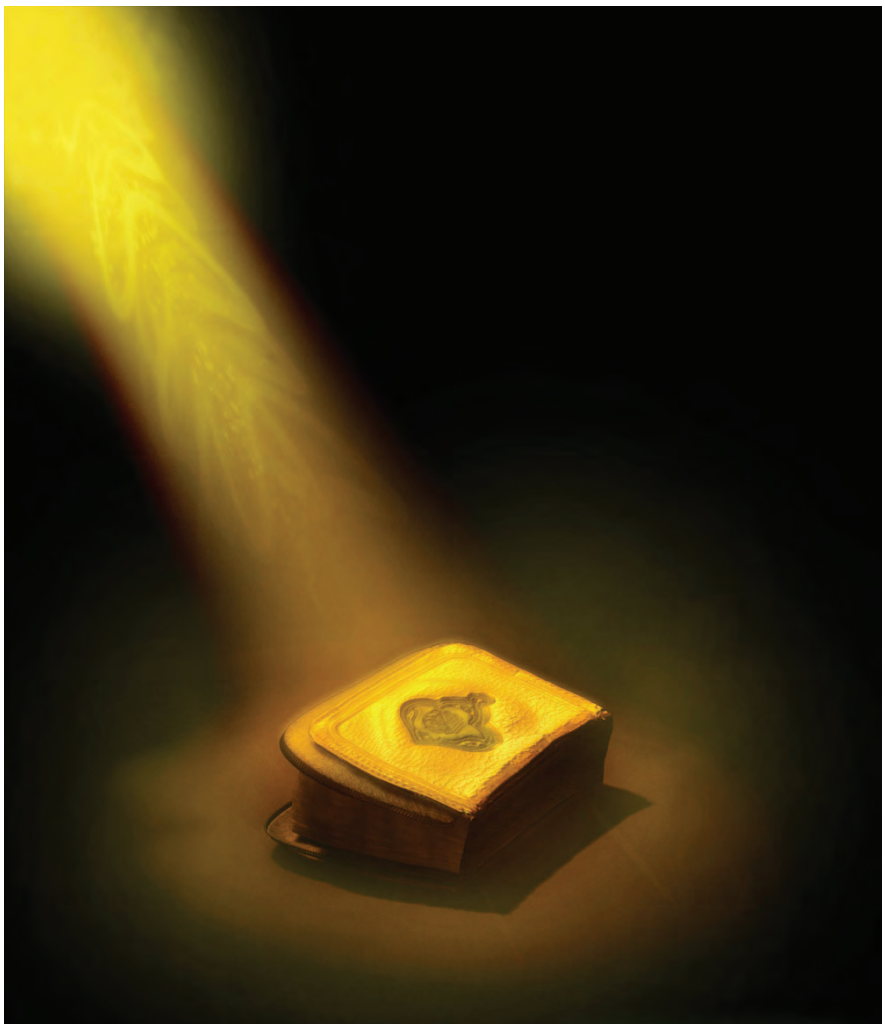

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء:٩٥)، ونرى في ذلك سراً من إسرار الإعجاز القرآني لأن إمكانية النبي (البشرية) اللغوية واضحة لأبناء جنسه ولسانه وكذلك إمكانياته البدنية والحسية والعقلية فحين يريد ان يثبت صحة رسالته لابد من ان يأتي بشيء خارق لعادته وصفاته المعروفة عند وسطه الثقافي واللغوي مع عجز أقطاب هذا الوسط عن الإتيان بمثله لتكون الحجة بالغة فلو كانت الطاقات والصفات التي يتمتع بها المتلقي مختلفة لما وقع الإعجاز أصلا لذا نرى أنهم عندما عجزوا عن مجاراة لغة القرآن اتهموا النبي بأنه تعلم القرآن من شخص آخر فأجابهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣)، كما أن هذا الاتصال اللساني او غير اللساني بين الوحي والمتلقي المباشر، ليس اتصالا خاصا بهما بل هو رسالة يراد إيصالها إلى الآخرين فلابد من ان يفهموها لذا يجب ان تكون بلسانهم كما يشترط أن تصل إليهم سالمة وتامة ومحفوظة من الزيادة والنقصان وان ليس للمتلقي المباشر أي دخل بإيجاد النص وبنائه التركيبي . وهذا ربما يثير في أذهاننا فهماً سلبياً لأثر النبي بان يكون مجرد متلق ومبلغ عن المبدع إلا أن هناك فسحة إبداعية تركها المبدع لكي يبرز فيها أثر المتلقي التبليغي، فاحتاج إلى ملكة وصفة يتمتع بها تمنعه من هذه الاتهامات لكي يتم تبليغ النص في إطار ثقافي موحد وتحت نظام لغوي مشخص ولغة مركزية موحدة بوساطة الرسول (البشر) والوحي (الملك) فيحمل الأول مؤهلات الاتصال مع جنسه البشري ويخول الثاني بالاتصال بالمبدع لطيّ المسافة التكوينية بين المبدع والمتلقي المباشر فاحتاج المتلقي إلى مواصفات تقرّبه من المبدع مع المحافظة على بقاء (البشرية) المشترك التكويني بينه وبين الآخرين وكان معصوماً في تبليغ النص. وهل استمرت هذه العصمة بعد وفاة النبي؟ ومن هو المعصوم بعده عند المذاهب الإسلامية؟ هذا ما يحاول البحث بيانه مقاربة بين آراء المذاهب التفسيرية لإيجاد بؤرة دلالية موحدة يمكن ان تكون أساً للفهم المشترك .

مفهوم العصمة :

يجتمع اللغويون عند تعريفهم العصمة

في أصل دلالي واحد وهو (المنع) وربما أشاروا الى التمسك فيرى الخليل أن معنى اعتصمت بالله أي : امتنعت به من الشر.[١] ويقول ابن فارس في مقاييسه: «العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة والمعنى في ذلك كله معنى واحد»[٢] وفي اللسان العصمة: المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عصمه يعصمه عصما: منعه ووقاه[٣]. والعصمة بهذا المعنى من المعاني القرآنية إذ وردت بمعنى المنع في مشتقاتها الصرفية كما في قوله تعالى : ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود : ٤٣) ففي صيغة الفعل المضارع واسم الفاعل جاءت بمعنى (المنع) وربما جاءت بمعنى التمسك كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (ال عمران – ١٠٣)، او بمعنى الحفظ الذاتي كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ (يوسف – ٣٢).

إلا إن الاتفاق على أصل واحد في معنى العصمة اللغوي لم يكن سبيلاً للاتفاق على المعنى الاصطلاحي لان هذا الأخير تدخلت فيه آراء مختلفة خضعت للتأويل والفهم الموجه حسب النصوص والسياقات التي وردت فيها تلك المفردة، وكان لتأكيد النص القرآني على بشرية النبي أثر في فهم معنى العصمة الاصطلاحي فهي عند الامامية «لطف يفعله الله تعالى بالمكلف بحيث يمتنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما»[٤] وهذا التعريف بهذه الكيفية مقتبس من أقوال الأئمة ،كما روي عن الصادق عليه السلام: «المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله ...»[٥]،فالعصمة إذن مرتبطة بمعرفة الله تعالى وهذا يقتضي الإيمان به حتى قبل ان يبعث الرسول على رأي من قال ان النبي معصوم عصمة مطلقة قبل البعثة وبعدها وهو ما عليه الامامية إذ يرون «إن نبينا محمدا صلى الله عليه وآله ممن لم يعص الله عز وجل منذ خلقه الله عز وجل إلى أن قبضه ولا تعمّد له خلافاً ولا أذنب ذنباً على التعمد ولا النسيان»[٦]، أما تعريفها عند مدرسة الصحابة فإنها تدل على وجود مشتركات مع تعريف الامامية لها فالإيجي الأشعري يقول: «وهي عندنا أن لا يخلق الله فيهم ذنبا، وعند الحكماء ملكة تمنع عن الفجور وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات وتتأكد

بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي والاعتراض على ما يصدر عنهم من الصغائر وترك الأولى فإن الصفات النفسانية تكون أحوالا ثم تصير ملكات بالتدريج»[٧]، وإدراج رأي الحكماء بهذه الكيفية يعني القبول به؛ لذا اختصرها الجرجاني في تعريفاته بانها «ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها»[٨] وهذا تقارب بين التعريفين إلا ان التطبيق سيكون مختلفاً كما سنرى لاحقاً .

وقد استعمل القرآن الكريم العصمة بمعناها الاصطلاحي الذي يفهم منه ان هناك تدخلاً إلهياً في اختيار المعصوم كما في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة ٦٧-) لذا تنبه الامامية في تعريفاتهم للعصمة الى هذه المسألة فأضافوا (مع قدرته عليهما) أي ــ فعل المعصية وترك الطاعة ــ لئلا يقعوا في مسألة الجبر فيكون معنى العصمة ملازماً للنبوة التي هي جزء من الامامة الإلهية .

وقد توضح معنى العصمة المتعلقة بالنبي بصورة مباشرة بالتلقي والتبليغ في مواقف المذاهب الإسلامية بمفسريها ومتكلميها في بعض الآيات القرآنية التي يدل ظاهرها على انتفاء العصمة بالمعنى الذي أسسه الامامية ففي قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗ فَهَدَىٰ﴾ (الضحى:٧) نقل الرازي عن الجمهور انهم اتفقوا على أنه ﷺ «ما كفر بالله لحظة واحدة ثم قالت المعتزلة: هذا غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير وعند أصحابنا هذا غير ممتنع عقلاً لأنه جائز في العقول أن يكون الشخص كافراً فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوة إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم:٢)»[٩] فالاحتكام الى النص لإثبات عدم وقوع المعصية قبل البعثة وعدم الارتكاز إلى الأمور المذهبية التي فرضت بعد وجود النص شيئاً يتطلب الإشادة إذا سلم من المداخلات المعرفية الأخرى من هنا لم يكتف من قال بعدم وقوع المعصية من النبي بدليل النص القرآني الذي ذكروه فكان الدليل العقلي عندهم لا يمنع الكفر عن النبي لأن العصمة ما وراء التبليغ بالرسالة والقرآن غير واجبة عقلاً إذ لا دلالة عندهم عليه من العقل، وامتناع الكبائر عن النبي خارج التبليغ بالرسالة

مستفاد من الأدلة النقلية إذ ينقل الإيجي عن محققي الأشاعرة «أن العصمة فيما وراء التبليغ غير واجبة عقلاً إذ لا دلالة للمعجزة عليه فامتناع الكبائر عنهم عمداً مستفاد من السمع وإجماع الأمة قبل ظهور المخالفين في ذلك»[١٠]. وهذه نقطة خلاف بينهم وبين الامامية الذين يرون أن عصمة النبي عن الكفر أثبتها العقل قبل الشرع وإنما النصوص جاءت مؤيدة لذلك[١١]. فلا نعجب بعدها إذا جوز غير الامامية الصغائر على الأنبياء ومنهم نبينا محمدﷺ فقد ذهب الإيجي الى إجماع الجمهور على جوازها قائلاً: «وأما الصغائر عمدا فجوّزه الجمهور إلا الجبائي وأما سهوا فهو جائز اتفاقا إلا الصغائر الخسيسة كسرقة حبة أو لقمة وقال الجاحظ: بشرط أن ينبهوا عليه فينتهوا عنه وقد تبعه فيه كثير من المتأخرين وبه نقول هذا كله بعد الوحي»[١٢]، فالكفر ممكن عقلاً قبل البعثة وبعدها، والصغائر جائزة وواقعة بعدها عقلاً في الفكر الاسلامي الاشعري وهذا ما سيتضح في المباحث الآتية.

العصمة القولية :

ترتبط عصمة القول بكفاءة المتلقي من جهتي التلقي والتبليغ في الخطاب الشفاهي، و المهم لدينا هنا هو ما يؤثر في عملية تلقي النص القرآني وإيصاله إلى الآخرين وهو حق أعطي للنبي ليكون شاهداً على تبليغ النص وبيان دلالته . وان هذا الحق لم يكن سابقا على مرجعية النص القرآني بل أن أسبقية النص ولاسيما المحكم والظاهر منه ربما لا تحتاج الى الإصرار على معرفة رأي النبي في دلالته إلا أن النص القرآني تضمّن مساحة جديدة لفهمه تركها للمتلقي الأول.

وهذا التسلسل في فهم الخطاب لا يختلف فيه المسلمون، ولاسيما في مسألة تبليغ الخطاب نفسه لأن جميع الفرقاء متفقون على عصمة النبي في تبليغ الخطاب وهو في تبليغه يُعد جزءاً منه لأنه هو الذي يشكّله تشكيلاً جديداً من خلال نطق النص الذي تتحول الكلمة في فضائه من إلهية سماوية إلى إنسانية لغوية لذا فان المبدع قد بيّن مكانة هذا المبلغ حتى لا يتهم في تبليغ الخطاب. ومن هنا رأى المسلمون ضرورة العصمة في هذا الجانب - تبليغ الخطاب - على الأقل ولكن مع هذا نجد ان بعض أنواع الفهم تحاول ان تبين ان النبي قد كان شخصية غير مكتملة بعد

لتحمل الرسالة وتكاملها كان تدريجياً لأنها تتأثر ببعض الأمور النفسية؛ كما هو الحال في مسألة (الغرانيق) وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (الحج :٥٢) التي ذكروا سبباً لنزولها و هو ان النبي قرأ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ (النجم ١٩ -٢١) فألقى الشيطان على لسانه (تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى) ففرح بذلك المشركون وقالوا: قد ذكر آلهتنا فجاء جبريل إلى رسول اللّه ﷺ وقال : اعرض علي كلام اللّه فلما عرض عليه فقال : أما هذا فلم آتك به هذا من الشيطان فأنزل اللّه تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ (الحج :٥٢)[١٣] فنجد أن الإيجي الذي يمثل مرحلة متقدمة من مراحل الفهم الأشعري[١٤]، حين يمرّ بذكر حادثة الغرانيق يقول في جوابه عن هذه الرواية : «إنه من إلقاء الشيطان وإلا كان ذلك كفرا، وأيضا ربما كان قرآنا وتكون الإشارة إلى الملائكة فنسخ تلاوته للإيهام

أو المراد ما يتمناه بوسوسة الشيطان أو هو استفهام إنكار»[١٥] فهو يريد هنا ان يثبت حقيقة هذه الواقعة ويعطي لتفسيرها وثلاثة احتمالات وكلها تثبت أنها قرآن قرأه الرسول وهي من المطاعن الخطيرة في سلامة النص القرآني ومنها الى عدم عصمة المتلقي إذ لم يؤمن عليه من وسوسة الشيطان الذي لم يكن مقبولاً عند كثير من المسلمين لأن النبي من المخلصين الذين عجز الشيطان عن إغوائهم كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢-٨٣)

وهنا يمكننا ان نشير الى مدى سوء الفهم الذي وقع من المفسرين الذين اعتمدوا على سبب النزول في توجيه معنى الآية وسبب النزول هذا رواية خاضعة لضوابط الضعف وعدم القبول والواقع أن الرجوع الى معنى الأمنية السائد الذي هو بمعنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون، أو السؤال للرب في الحوائج كما يقال : «تمنيت الشيء أي قدرته وأحببت أن يصير إلي من المنى وهو القدر أو الإرادة»[١٦]، وهذا المعنى هو الأقرب في فهم الاية . ويسجل اللغويون في مصنفاتهم أن معنى تمنى الكتاب قرأه أي إذا قرأ فيكون توجيه الآية السابقة ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي قرأ وتلا فألقى في تلاوته ما ليس فيه[١٧]، وجاراهم المفسرون من المذاهب الإسلامية في قبول هذا المعنى معتمدين على دليل واحد هو ما قاله حسان بن ثابت في مرثية عثمان بن عفان :

تمنى كتاب الله أول ليله
وآخره لاقى حمام المقادر[١٨]

وهذا البيت كما هو واضح متأخر وجوداً عن النص القرآني فكيف يكون دليلاً على ترجيح دلالة معينة في معناه الذي يربك مفهوم الآية؟ وهو يخالف أسّاً معرفياً ثابتاً عند المسلمين جميعاً و هو عصمة النبي في مقام التبليغ لذا يذهب الباحث الى ما ذهب اليه المتأخرون من المفسرين في توجيه هذه الآية إذ يرى ابن عاشور أن إسناد التمني إلى الأنبياء دال «على أنه تمنّي الهدى والصلاح وإسناد الإلقاء إلى الشيطان دلّ على أنه إلقاء الضلال والفساد. فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد»[١٩].

وعندها لا يكون عذر لمن يحاول الطعن في مقام النبي وهو المعنى نفسه الذي رجحه

صاحب الميزان من الامامية إذ يرى أن معنى «ألقى الشيطان في أمنيته وداخل فيها بوسوسة الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي وأبطل سعيه فينسخ الله ويزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعى الرسول أو النبي وإظهار الحق والله عليم حكيم»[٢٠] وهذه التوجيهات في فهم الآية مهمة في إثبات العصمة في زمن التبليغ وقراءة النص القرآني لأن تسربها بأيّة صورة موحية بسهو النبي أو تمكن الشيطان من تلاوته للنص؛ يعني أننا لا نستطيع أن نعرف صحة هذا النص ومدى إمكان جعله قرآناً إلهياً لذا لم نجد خلافاً واضحاً بين المذاهب في ذلك، إلا في آليات الفهم ومناهجه ولكنها في النهاية تصل الى دلالة واحدة وهي عصمة النبي في تلقيه و قراءته للنص وبيان دلالاته.

وعصمة النبي في هذه المرحلة موضع اتفاق الجميع لأن احتمال الخطأ والالتباس في هذه المرحلة يؤثر في وثوق الناس بالنص القرآني واطمئنانهم لصحة صدوره عن المبدع ويوجب أن لا يعتمد الناس على أقوال النبي التي هي جزء مهم من الخطاب، وركن في عملية التبليغ والاتصال. هذا مضافاً إلى أن النص القرآني يصرح بأن الله يحفظ نبيه ويصونه صيانة كاملة حتى يبلغ الوحي الإلهي بصورة صحيحة كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ (الجن ٢٦-٢٨).

وكذلك نجد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤) وقوله: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦) وقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، ففي هذه الآيات ذكر القرآن الكريم نوعين من وسائل صيانة الوحي الأول: الملائكة الذين يحيطون بالنبي من كل ناحية وجانب ويرصدون تبليغ النص. والآخر: إن الله تعالى نفسه يحيط بالملائكة والنبي، وهذه النظارة الشديدة والمراقبة الكاملة إنما هي لتحقيق غرض النبوة وهو إيصال النص (الرسالة) وتبليغه الى الآخرين سالماً من النقص والزيادة.[٢١]

العصمة التداولية:

لم يكن القرآن في حالة التلقي الأولى

نصاً مكتوباً بل كان خطاباً شفاهياً منطوقاً والشفاهية تضيق معها دلالة النص أكثر من حالة كونه مكتوباً لما يحويه الخطاب الشفاهي من بعد سيميائي وعلاماتي بين الوحي والمتلقي الأول من جهة وبين المتلقي الأول والمتلقي الثاني من جهة أخرى . فجاء النص على لسان النبي وقد فرّغ فيه كل ما كان يستشعره من معان ودلالات نقلها له الوحي أو فهمها هو وحاول ان يوصلها الى المتلقين ،كلٌّ حسب قابليته الاستقبالية فيكون قد شارك في الإبداع فيتشكل عندها الخطاب القرآني تشكّلاً جديداً لأنه أضاف إليه بُعداً تداولّياً مع بعده اللغوي. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن القيم التعبيرية في تحويل النص القرآني الى خطاب شفاهي قد شُحنت بطاقات دلالية تَظهر فيها مقومات الخطاب الشفاهي الصوتية كالنبر والتنغيم والقطع والإدغام والسيميائية التي تعكس تعابير وجه النبي من غضب ورضا وتقطيب الحاجبين وحركة الرأس واليدين وذلك على وفق ما يتطلبه الموقف الاتصالي مع الآخرين.

فهذه العلامات والإشارات التي استعملها النبي في لحظة تلقي النص وفي حالة بثه الى

المتلقين له أنتجت حينها تداوليات مختلفة مثل تداولية المدح أو التوبيخ أو الإعراض او التهديد والوعيد والتبشير فمع كل نوع تداولي كانت تظهر علامات سيميائية تناسب المقام الاتصالي الذي أنتج فيه النص وتحوّل الى خطاب شفاهي فحينها لا نشك أن عمليات الفهم كانت أسرع وأسهل في تلك اللحظات التي رافقت ولادة النص مع وجود هذه التداوليات التي أعطت عمقا دلاليّاً أضيف الى الدلالة اللفظية الظاهرة لكي يخرج النص من دائرة الاحتمال الدلالي الى دائرة الدلالة القطعية التي يريدها المبدع .

ولكن السؤال الذي يبرز هنا هل حُفظت هذه التداولية النبوية كما كانت لحظة ولادة النص؟ أم تعرضت إلى التبديل والتغيير؟. وإذا فرضنا وجودها هل تدخل ضمن حدود العصمة التبليغية للخطاب القرآني إذ يمثل النبي جزءاً مهما منه ؟

والجواب هنا يمكن ان يكون بالنفي لأنه لا يمكن بحال من الأحوال ان تكون هذه الإشارات الدقيقة قد حفظت مع وجود حقيقة مهمة هي منع تدوين السنة النبوية وكان هذا المنع حاضراً في زمن وجود النبي نفسه إذ ظهر ذلك من التحريض على عدم كتابة كل شيء يسمع من الرسول فضلا عن الذي يرى من أفعاله وحركاته تحت ذريعة انه بشر يتكلم في الغضب والرضا[٢٢]. عندها «لم يكن بإمكان الثقافة الشفوية ان تحفظ النص المتلقى كما هو لأن الإنتاج في الثقافة الشفوية متحرك أبداً وليست له نهاية ما لم يدون وليس له اكتمال ما لم يكتب ويظل متنامياً ومتحولاً ومتبدلاً بالزيادة والنقصان»[٢٣]، وهذا يؤكد تماما غياب التداولية النبوية لأنها تعرضت لما يشبه الغربلة الخاضعة لطبيعة المتلقين وتوجهاتهم النفسية والفكرية وإذا جزمنا بمحاولة تغييب السنة النبوية وذلك بمنع تدوينها فمعها غابت هذه القيم التعبيرية والشحنات الدلالية لأن الدلالة التي يراد إيصالها من المبدع الى المتلقي يُختار لها علامات وأنظمة معينة ترافق النص المقروء ولاسيما في نص مثل النص القرآني الذي فيه العام والخاص والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه فيكون اللفظ بمفرده عاجزاً عن إظهار دلالته المقصودة فاحتاج الى هذه الأنظمة السيميائية «كونها من مصاحبات اللغة اللفظية فتصبح لغات

بديلة أي أنها الى جانب وظيفتها المساعدة التي تبدو ثانوية فان لها وظيفة تواصلية أساسية تستقل بها عن غيرها من وسائل التواصل والخطاب كي تكون لنفسها نطاقاً خاصاً ...»[٢٤].

وهذه الوسائل أصبحت اليوم ضرورة لغوية وجزءاً مهماً في دراسة الدلالة في العصر الحديث كما ان القدماء لم يهملوا ذلك فقد ذهبوا الى أن هذه الحركات لغة خاصة ومنفردة سميت لغة الجسد او اللغة الصامتة وهي لغة ليست تابعة للغة الألفاظ ،كما ذهب الغزالي الى «ان حركة المتكلم وأخلاقه وعادته وتغيّر لونه وتقطيب وجهه وجبينه وحركة رأسه وتقلب عينيه نافع للفظه بل هذه أدلة مستقلة يفيد اقتران جملة منها علوما ضرورية»[٢٥]، فهذا منهج دلالي يقرره الغزالي من قبل نجد صداه عند بعض المحدثين في دراسته لهذه اللغة الجسدية إذ يرى أن «الكلمة في اللغة الصائتة والحركة في اللغة الصامتة (الجسدية) تتألف من دال ومدلول واعلم ان الفرق بينهما غير متعين في المدلول بل في ماهية الدال إذ انه في الصائتة صوتي ذو طبيعة رمزية وفي الصامتة حركي ذو طبيعة رمزية أيضا»[٢٦]. فالدلالة المتعيّنة بهاتين اللغتين واحدة على الرغم من اختلاف المدلول. والمهم هنا ان القدماء شعروا بالحاجة الى سنة النبي الفعلية فضلا عن سنته القولية فهي مهمة لما فيها من علامات وإشارات تعمل على بيان الدلالة المستغلقة في النص فلا يكتفي المخاطِب باللغة اللفظية في تشكيل بعض الخطابات بل يحتاج إلى الإشارات الجسمية التي «تعد جزءا من السياق الخارجي أو سياق الموقف فهي تساعد وتعضد النص اللغوي من هذا المنطلق بل قد يستغنى ببعض الإشارات عن أجزاء النص اكتفاء بها والإشارات الجسمية تتأثر أيضا بالسياق الخارجي بحيث انها تدين في ظهورها لذلك السياق أحيانا فموقف التعجب والغضب يستدعي إشارات جسمية معينة ...»[٢٧] والباحث يريد هنا ان يبيّن هل استثمر النص القرآني هذه السيميائية في بيان حقيقة المتلقي الأول؟ لكي لا يكون معها شك في عملية التبليغ التداولي والسيميائي للنبي الذي يُعد ركناً مهماً في عملية التواصل الرسالي، ولاسيما إذا عرفنا حضور شخصية المتلقي الأول في الخطاب القرآني بقوة فلا يمكن بحال من

الأحوال أن يتصور النص القرآني دون أن يتصور معه وجود المتلقي الأول «بل لا يمكن قراءة القرآن من دون استحضار الذي نطق به النبي نيابة عن الله إذ نجد ان كل معنى من معاني آياته يستدعي في الذهن شخص النبي بطريقة أو أخرى»[٢٨] لأن تداولية النص القرآني بلسان النبي تحضر معها العلامات والحركات النبوية لتكون بمثابة الخطاب الموازي للخطاب اللغوي فالوحي لم ينحصر بالقرآن فقط لأن «القرآن وما يصدر عن النبي كانا في سياق الدعوة شيئاً واحداً لم يكن المبلغون يفرقون بينهما أصلا بحكم وحدة القائل ووحدة السياق والإيقاع وتطابق منطق الخطاب ... فالوحي والقرآن والنبوة مكونات متعددة لحدث واحد وواقعة واحدة وانبثاق واحد فرض الفهم البشري القائم على التقسيم والتجزئة انفصالهما واستقلالهما»[٢٩]؛ لذا نجد أن النص القرآني يؤكد على هذه الحقائق كثيراً وفي مواطن عدة كما في قوله تعالى وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر :٧) فهذه الآية المباركة تؤكد على حقيقة واحدة هي أن الذي يقوم به الرسول من قول وفعل يجب ان يدخل ضمن إطار العملية التبليغية وفي إطار الوحي الرسالي فالإتيان الذي عبرت عنه الآية ليس بالضرورة ان يكون قولاً وإنما قد يكون فعلاً تداولياً عبر فيه الرسول عن دلالة معينة لبيان مفردة في النص أو تفسير عبارة ولاسيما إذا كانت هذه المفردة توحي بدلالات متعددة فالتواصل الذي يكون من خلال اللغة المنطوقة ربما تكمن فيه مفارقات حاصلة بين الدلالة في حالة التلفظ التي يريدها الباث وبين الدلالة في حالة سماعها من المتلقي وهنا تكمن خطورة الانحراف في الدلالة التي أرادها المبدع للنص فيفيض عليها الرسول إعادة تشكيل دلالي بإضافة حركات وعلامات معينة تحصر الدلالة في مجال واحد وتبعدها عن الانفلات بسبب الأهواء والميول المحفوظة في ذهن المتلقي الآخر ولاسيما إذا كان هذا المتلقي متعددا ومتفاوتا من حيث الكفاءة اللغوية والاستعداد الإدراكي لذا نجد أن الرسول ﷺ على الرغم من اهتمامه بقداسة النص القرآني لكنه استعمل الحركة والسكوت والدمج بين الأصابع والأطراف وحركة الرأس والابتسامة فهذه كلها علامات تلبي حاجات أساسية في

فهم المعنى وإيصاله الى الآخرين. وذلك لأنه علم ان دلالة الألفاظ قد تكون مبهمة لوجود مصاديق خارجية متعددة لها، أو انه خشي من انصرافها الى دلالة غير مقصودة عند المبدع في النص القرآني وهو الخبير بمستويات المتلقين وأغراضهم فرأى أن من واجبه الإبلاغي أن يوضح بعض الدلالات بعلامات وأفعال تكون قطعية الدلالة على المعنى المقصود وهذا ما فعله كثيراً ،كما في بيانه لمعنى أهل البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(الأحزاب:٣٣) إذ تذكر الروايات عن أم سلمة «ان النبيﷺ كان في بيتها فاتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة[٣٠] فدخلت عليه فقال لها : ادعى زوجك وابنيك قالت فجاء علي والحسين والحسن فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له على دكان تحته كساء له خيبري قالت: وأنا أصلي في الحجرة فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت : فاخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده

فألوى بها إلى السماء ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قالت: فأدخلت رأسي البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله؟ قال إنك إلى خير انك إلى خير»[٣١] وهذا فعل دلالي مهم لإيضاح دلالة النص القرآني وهي مسؤولية المبدع الذي أوكل مهمة الاتصال الى المتلقي المباشر بأنه يفهم الناس ويدلهم على معاني القرآن فلم يكتف باللفظ لإمكان حمله على معان متعددة فانتقل الى الحركة والفعل لأنهما أكثر رسوخا من اللفظ وأكثر تنبيها للمخاطب لكي لا يكون الرسول مجرد متلق سلبي ليس له أثر في عملية تشكيل الخطاب القرآني ولكي لا يكون الفصل بين المرسل والرسالة .

ولكن المسلمين لم يكونوا بمسافة واحدة من فهم هذه النصوص وغيرها التي تخص شخص المتلقي الأول ولها علاقة بأفعاله اليومية في حين نجد الامامية يتمسكون بهذه السيميائية التداولية لإثبات دلالة تركيب (اهل البيت) لا يعيرها الآخرون إهتماماً كثيراً فقد اعتمد الامامية في ذلك على السياق الخارجي للآية وقطعها عن سياقها النصي (الداخلي)، والإفادة من العلامات التي ذكرتها الروايات المسجلة في كتب الطرفين وعلى العلاقات التي ربطت النص بالمتلقي في ساعة وجود النص ؛لأن هذه كلها تعد «عوامل تساعد على فهم النص ولو بالإشارة والإيماء لأن أي تصور او فهم للنص بعيدا عن هذه المؤشرات مجتمعة يجعل الأحكام القائمة على هذا التصور غير دقيقة وكلما أحيط النص بعوامل كثيرة من المؤثرات كان عطاؤه أغزر وفهمه أدق...»[٣٢]، وقد يتسرب هذا الفهم الى حياة النبي الشخصية حتى في جانبها الأخلاقي الذي يعد معلماً مهماً في ترسيخ القبول بالرسالة فصفة الصدق والأمانة التي عرف بها النبيﷺ كان لها الأثر الأكبر في قبول بعض الناس بدعوته ،وهذه لم تكن غائبة عن ساحة النص القرآني إذ خاطبه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (ال عمران : ١٥٩) وقد ترتب على بيان هذه الصفات ان يأمر الله المؤمنين بالتأسي بأخلاق النبي في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١) التي

في أكثرها تحمل الجانب الفعلي دون القولي لأن الأقوال ربما لا تتطابق مع الأفعال لذا حذر منها القرآن في قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف: ٢- ٣) هذه النصوص القرآنية وغيرها كثير، تحمل دلالات توحي بان ما يقوم به النبي من أفعال إضافة الى الأقوال يدخل في عملية التواصل اللساني وفهم الخطاب القرآني فلابد إذن ان يكون تداوله في إيصال النص معصوماً أيضا فأفعاله وكلماته تدخل في ضمن دائرة التبليغ عن الله فلا يمكن بحال ان يفصل بين أفعاله وأقواله الخاصة به عن عصمة النص القرآني المتفق عليها عند جميع المذاهب الإسلامية فقد وقف الجميع يدافعون عن هذا الجانب التبليغي ولاسيما ان الله تعالى قد قرن طاعته بطاعة الرسول ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ (المائدة:٩٢)، فالطاعة مطلقة لذا يعلق الطوسي على ذلك بقوله : «ولا يجوز إيجاب طاعة أحد مطلقاً إلا من كان معصوماً مأموناً منه السهو والغلط»[٣٣] والرازي يرى أن المنقول عن الرسول ﷺ «أما القول فيجب إطاعته لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وأما الفعل فيجب على الأمة الاقتداء به إلا ما خصه الدليل»[٣٤]. مستعيناً بدلالة فعل الأمر (أطيعوا) على الوجوب ومستفيدا من قول آخر يأمر بإتباع الرسول (فاتبعوه) فيصل الى نتيجة مفادها أن متابعته واجبة ويعرف المتابعة: بأنها عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، لأجل أن ذلك الغير فعله فثبت ان قوله: (أطيعوا الله) يوجب الاقتداء بالرسول في كل أفعاله وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يوجب الاقتداء به في جميع أقواله[٣٥]. فالرازي هنا يثبت وجوب الاقتداء بفعل النبي لأنه مأمور به ولكن يستثني بقوله: (الا ما خصه الدليل)، وفي استثنائه هذا إشارة الى عدم العصمة في الأفعال وفي هذا فرق بين الامامية وغيرهم عند بيان العصمة التدوالية للنبي ﷺ، اتضح جلياً في فهم قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ (عبس١-٢) ففي فهم هذه الآية وقع اضطراب كبير من المفسرين في توجيه فعل العبوس[*]، فهل كان هذه الفعل السيميائي فعلاً للرسول أم انه فعل لغيره ؟ . وإذا كان من الرسول هل يتلاءم مع عصمة التبليغ والاتصال ولاسيما ان الرسول ﷺ حينها كان في مقام التبليغ ؟ .

فقد ادعى الرازي إجماع المفسرين على أن الذي عبس وتولى هو الرسول ﷺ، وأجمعوا على أن الأعمى هو ابن أم مكتوم وقال : «والمراد منه الإنكار عليه واعلم أن في الأخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجها بالتوبيخ وإلزام الحجة»[٣٦] فهذه العبارة تدل على ان الرازي سلم دلالياً بما أجمع عليه المفسرون ولكن اللافت ان الرازي أعطى فهماً جديداً للآية عندما انبرى للدفاع عن عصمة الأنبياء فهو لا يسلم أن هذا الخطاب متوجه إلى النبي ﷺ . وكأنه أجّل رده على رأي المفسرين في ان الخطاب كان مع الرسول ﷺ لذلك توجه الى الطعن في سبب حمل هذا المعنى الى الرواية التي أعتمدها أكثر المفسرين لأنه عدّها رواية آحاد فلا تقبل في هذه المسألة وذكر إنها معارضة بأمور :

(الأول) أن النص وصفه بالعبوس وليس هذا من صفاته ﷺ في قرآن ولا خبر مع الأعداء والمعاندين فضلاً عن المؤمنين والمسترشدين.

(الثاني) وصفه بأنه تصدى للأغنياء وتلهى عن الفقراء وذلك غير لائق بأخلاقه ﷺ.

(الثالث) أنه لا يجوز أن يقال للنبي ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ فإن هذا الإغراء يترك الحرص على إيمان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه.[٣٧]

فالرازي استعمل عدة أموراً عدة هنا في فهم الآية منها: دلالة العبوس لما فيها من التنفير بما لا يليق بعصمة النبي والتلهي الذي لا يليق بخلقه العظيم وفهم الرازي هذا ينسجم مع ما قاله الطوسي ومن قبله الشريف المرتضى من الامامية إذ يريان

ليس في ظاهر الآية دلالة على توجهها إلى النبيﷺ بل هو خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه وفيها ما يدل على أن المعني بها غيره لأن العبوس ليس من صفات النبيﷺ، مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفهﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ فالظاهر أن قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ المراد به غير الرسول الاكرمﷺ[٣٨].

العصمة والسياق المقامي:

يبدو أن القول والخلاف في درجات عصمة النبيﷺ، كان قد خضع لأمور كثيرة فيها الجانب السياسي والقبلي أكثر مما هي خاضعة للنص وفهم النص لأن في إثبات العصمة يقع حرج كبير لكثير من خلفائه الذين يجب ان يتصفوا بصفات قريبة من صفات المخلوف على الأقل ولاسيما اذا كان المخلوف خليفة لله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فالإقرار بعصمة مطلقة للنبي يقتضي ان يكون خليفته يتمتع بعصمة مطلقة أو على الأقل عصمة بمرتبة أدنى وهذا ما لا يمكن القول به عند المذاهب الإسلامية لأنهم لم يثبتوا عصمة احد من الخلفاء الراشدين ولا الذين جاءوا بعدهم بخلاف الامامية الذين اثبتوا عصمة الائمة الذين جاءوا بعد النبي ﷺ. فان إثبات العصمة المطلقة لا يسمح بتصرفات الخليفة الذي يريد ان يسمع الغناء مثلاً أو يريد ان يشرب الخمر أو يريد ان يعبس ويغلظ على الرعية فلابد من وجود مسوغ شرعي يتصرف الحاكم الإسلامي تحت إطاره حتى وان خالف ذلك النص القرآني لكنه موافق لسنة النبي خارج إطار التبليغ .

والبحث لا يريد ان يخوض في مسائل ربما تعد تاريخية بقدر التفكر بالخلاف الدلالي الذي تم بسبب توجهات فهم النص القرآني نفسه ومعرفة حيثيات الخطاب الذي تكوّن وأُنتج لهداية البشرية وتحديد هوية المتلقي الأمثل والجهة التي صدر عنها، حتى ارتقى الى مستوى الإبداع المقنع والممتع حتى صار معجزا ومدى تعرضه الى التغيير والتبديل على مستوى التركيب اللغوي، او الدلالي لأن لحظات تلقي الخطاب عن المبدع لحظات خطيرة وفيها من الارتباك المعرفي

والخلط المتوقع ولاسيما انه لا شاهد عليها الا شخص واحد وهو المتلقي المباشر للوحي وقد حصر تبليغ النص بشخصه فما دوّن عن ملابسات هذه اللحظات كان مثار جدل في الرؤية الحديثة التي تحاول توجيه عملية الاتصال الأولى معتمدة على ما أُثر من السابقين. فهذا أحمد شلبي يقول: «جاز لنا أن نثبت أن الرسول عندما يتحدث أو يعمل كرسول أي مبلغا أو داعيا أو معلما فهو معصوم أما إذا كان يتحدث أو يعمل من عند نفسه في الأمور العامة التي ليست جزءا من الرسالة فهو بشر يمكن أن يخطئ ويغلب أن يصيب»[٣٩]، وهذا الكلام يتواءم مع الفهم الاشعري لحياة الرسول، وهو أمر سوغ له ان يقسم حياة الرسول على قسمين: قسم فيه هو رسول ومعلم داعٍ ومبلغ وقسم فيه يعيش حياة عامة كغيره من البشر يصيب ويخطئ ويعلمه أصحابه ويسددون له رأيه وفي ضوء ذلك فهمت «الآيات التي فيها عتاب للرسول على بعض تصرفاته لم يقرها العزيز الحكيم وهي كما رأيت هنات خفيفة وزلات سهلة وهي كذلك صادرة من محمد الإنسان لا من محمد الرسول»[٤٠] فان هذه الآراء وأمثالها كانت نتائج واضحة من موقف الأشاعرة من عصمة النبي وتجويز الصغائر عليه وهي متأثرة بطابع الروايات التي صورت النبي خائفا في حالات تلقي الوحي الأولى لذا يصف أحد باحثي الامامية المعاصرين مثل هذه الآراء بأنها «لا تخلو من غرابة إذا علمنا أنه ما من واقعة إلا ولها حكم في الشريعة الاسلامية كما هو مقتضى شموليتها ولا يفرق في ذلك بين ما تقتضيه طبيعته البشرية كالأكل والشرب وغيره إذا كان صادراً منه عن إرادة وبين غيره من تجارب . وإذا تم ما سبق أن عرضناه من أدلة العصمة له فإن كل ما يصدر عنه بطبيعة الحال يكون موافقا لاحكام الشريعة ومعبرا عنها وما دام الأكل والنوم والشرب من أفعاله الإرادية فهي محكومة حتما بأحد الاحكام فأصل الأكل محكوم بالجواز بالمعنى العام وأكله لنوع معين يدل على جوازه كما أن تركه لأنواع أخرى يدل على جواز الترك لها فالقول بأن ما كان من شؤون طبيعته البشرية لا يعبر عن حكم لا يتضح له وجه . كما أن ما يتصل بالقسم الثاني من شؤون خبرته وتجاربه هو الآخر معبر عن حكمه...»[٤١]. فعلى التقسيم

السابق لحياة الرسول لا ندري متى اكتسب العصمة إذن ؟

لأنه حتى في حالات استقبال الوحي لم يكن منضبطاً بل هو في حالة من الهلوسة والتردد و لا ندري أيضا كيف نميّز حياة محمد من محمد الإنسان؟ ومتى نستطيع أن نقرر أن قول النبي وفعله وإقراره – الذي يمثل السنة والمصدر الثاني للتشريع– مما يجب الأخذ به أو طرحه لأنه ليس معروفاً هل هو من عند محمد الرسول او من محمد الإنسان ؟ ولا ادري كيف ميّز أصحابه ما يجب أن يكون سنة مما لا يجب، فمع هذا تكون الأمور أكثر تعقيداً وأشد ثقلاً على الذين تلقوا الخطاب القرآني وان الذين تلقوا القرآن والوحي عن النبي كانوا في حيرة بين محمد الرسول ومحمد الإنسان. وذلك بسبب بغياب السياق المقامي في حالات التبليغ لان النبي كانت له عدة سياقات في حياته .فلا نعجب بعدها إذا هوجمت السنة النبوية من قبل اشخاص مثل محمد أركون إذ يقول : «إن السنة التي خلع عليها التعالي والتقديس بهذا الشكل تستطيع عندئذ ان تكون رديفاً ومكمّلاً للقرآن لكي تمدّ وتوسع من عملية التعالي والتقديس»[٤٢]؛ ليتخذ من ذلك ذريعة للنيل من الخطاب الديني وكأن عصمة النبي تؤثر في تقديس أسياده الذين ينتمي الى منظومتهم الفكرية فهي عنده «خصيصة الخطاب الأسطوري والايديولوجي الذي يقوم بترميز العمل المادي المحسوس الذي قام به النبي وتحويله الى نوع من التصورات الاسطورية للحظة خلاقة»[٤٣] وهذا ما كانت تردده الجاهلية وهي ترد على معجزة القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ (الفرقان:٥).

ونحن نقول لم يكن تبليغ الوحي بحال منفصلاً عن حياة محمد الإنسان لان القرآن وما يصدر عن النبي كله سياق واحد في تبليغ الرسالة ولم نجد فرقًا بينهما لان مصدر الخطاب واحد فوحدة السياق ووحدة المقام لم يمكن الفصل بينهما «فالرابط بين القرآن والنبوة ليس مجرد تناغم في الإيقاع او تزامن مبرمج بينهما بل هو أقرب إلى أن يكون رابطاً عضوياً بينهما يجعل أحدهما عين حقيقة الأخر ورابطا وجوديا يجعل بدء الوحي بداية النبوة وموت النبي اختتاما للوحي واكتمالا لحلقاته..»[٤٤] من هنا نرى انه قد توفرت فيه صفات وخواص غير

متوفرة عند غيره لأن هذا الغير لا يستطيع ان يتحمل ثقل النص وأهميته الدلالية، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥) فتلقي الوحي بهذه الكيفية يحتاج الى صفات وعلامات مقبولة عند المرسل. وإذا عرفنا ان النبي هو المخاطب بالقرآن أولاً وبالذات في الأقل من خلال النص الأول وهذا ما أكده النص إذ يقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الانعام :١٢٤). وإذا أضيف الى ذلك ما نقله الامامية في رواياتهم التي ينقلونها عن أئمتهم «انما يعرف القرآن من خوطب به»[٤٥] إذ يؤسسون منهجاً معرفياً في إمكانية المتلقي الأول فهو المقصود من المبدع كمتلق ومشارك في عملية التواصل للرسالة التي أُريد لها ان تكون لكل الناس، وهو الذي يمتلك الحد الأقصى في الفهم ولا يشاركه به أحد من الذين أحاطوا به فالفهم الأقصى هو من نصيب الإنسان الكامل الذي يمثل النبي المصداق الأمثل له فهو الذات العارفة المطلقة وبذلك يمتاز عن الذات العارفة غير المطلقة التي ستحتل المقام الثاني في التلقي الذي تعتمد معرفته على المتلقي الأول بالنص وتكون مهمة الذات العارفة هي إيصال الذات المتلقية عنها بعد ان تمتلك مقومات التلقي الحقيقي.[٤٦]

التلقي وعصمة أولي الأمر :

إن الخلاف في تحديد دلالة (أولي الأمر) كان له أثره الواضح في توجيه عملية فهم النص القرآني، وفي تحديد هوية المتلقي الآخر ومرجعية التلقي، كما اتضح في قراءات المسلمين التفسيرية ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء:٥٩) وقع حوار جدلي بين الطرفين.

أما الاشاعرة، فقد انصرفت عندهم دلالة أولي الأمر الى مصاديق متعددة بحسب الفهم الذي استظهروه من الآية أو فرضته سياقات خارجية وظروف موضوعية .فان الذي يحمل هذه الصفة التي تؤهله الى مرتبة التلقي بعد النبي ﷺ، هم الصحابة بصورة عامة وهذا ما نقرأه في أفكار زعيمهم أبي الحسن الأشعري إذ يرى بأن الصحبة للنبي أولا وأخيراً هي اختيار من الله تعالى وهذا المقام الإلهي يجعل أتباع المذهب يأخذون بفهم الصحابة «ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه

لصحبة نبيه ﷺ... ويقرّون (كون) الخلفاء الراشدين المهديّين أفضل الناس كلهم بعد النبي ﷺ... ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله عز وجل : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء:٥٩) ويرون إتباع من سلف من أئمة الدين... فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب»[٤٧]، وهذا ما يؤمن به الأشعري ويعده منهجاً يسير عليه .

ومنهج الأشعري هذا في بيان سلسلة المرجعية المعرفية عند مذهبه سار عليه أكثر أتباعه[٤٨]، ورتبوا على ذلك أهمية كبيرة في فهمهم للنص القرآني إذ ان ما ينقل عن هؤلاء السلف هو المقدم ولا تجوز مخالفته بما يقره العقل وهذا ما يتميز به الاشاعرة في موقفهم من سنة النبي وأصحابه، ولاسيما في آيات العقيدة المتعلقة بمعرفة الله «فقد مثل الدليل السمعي عندهم السلاح الأكبر وما من جزئية من العقيدة إلا استفادوا لها دليلا من النص القرآني أو السنة النبوية وجعلوه أصلا وأساسا لإثباتها»[٤٩]، فالمستفاد من هذا ان المتلقي بعد النبي هو الصحابة وبعدهم التابعون الذين تشملهم دلالة أولي الأمر الذي حددته مقالات أصحاب الحديث فقد ذكرت عدة دلالات لأولي الأمر فهم اما: الخلفاء الأربعة ومن يجري على سننهم قاله: ابن عباس. أو هما أبو بكر وعمر خاصة قاله: عكرمة. أو أمراء السرايا قاله: السدي ومقاتل وابن زيد. أو العلماء من الصحابة ومن تبعهم قاله: الحسن وقتادة وابن جريج[٥٠].

وإذا عرفنا بأن أولي الأمر يتمتعون بصف التلقي فلم يتوقف فهم النص القرآني إذن عند قول النبي أو تداوله للخطاب الذي أيضاً يمر بقناة الصحابي وربما أضاف له هذا الصحابي فهماً جديداً دوّن على انه منقول عن المتلقي الأول ويضاف الى ذلك ما مر به الفهم من فرض الشفاهية وسلبياتها من النسيان والضياع المقصود أو غير المقصود .

ولو تقدمنا قليلاً في مساحة الفهم الطولي لدى الاشاعرة لوجدنا أن الفخر الرازي قد أفاد بطريقته العقلية ومنظومته القرائية للنص القرآني دلالة عصمة (أولي الأمر) من داخل النص نفسه بدليل «أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في

هذه الآية ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ والخطأ لكونه خطأ منهي عنه فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وانه محال ... فثبت قطعاً أن أولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً»[٥١]، وقراءة الرازي هذه لم تكن متوقعة عند مدرسته الفكرية لأنها أوصلته الى نتيجة دلالية لم تكن معروفة في قاموس مذهبة العقائدي فلم تكن العصمة من متبنيات الذين سبقوه في تأصيل الفكر الأشعري لذلك لما أراد تطبيق المفهوم على مصاديقه الخارجية اخضع قراءته الفعالة الى قراءة إسقاطية وابتعد عن نتائجه السياقية التي استظهرها من قراءة النص الى مسبقاته الفكرية لذا رأى ان «ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة

لا جائز أن يكون بعض الأمة»[٥٢] لأن القول بعصمة بعض الأمة يوقعه في إشكال معرفي يخرجه عن نسقه الثقافي فتظاهر بالعجز الذي لم يبين لنا أسبابه فيقول: «ونحن نعلم بالضرورة أنا في زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم عاجزون عن الوصول إليهم عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمة ولا طائفة من طوائفهم .ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله : «وأولي الأمر» أهل الحل والعقد من الأمة وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة»[٥٣]، وهذا استدلال يصل فيه الرازي الى فهم لمعتقد يؤمن به، ونتيجة كانت سابقة على فهمه مفاده انه لا يمكن لأحد ان يتصف بالعصمة غير إجماع أهل الحل والعقد.

ويرى الباحث أن الرازي حين استجاب لطاقة النص الدلالية واستكشف بنيته العميقة في وجوب عصمة أولي الأمر، أراد ان تكون المصاديق مما يتناسب مع مسبقاته الفكرية لذا أثبت المعنى الذي لا يخرجه من مذهب السلف الذي كانت له اليد الطولى في ترسيخ مفهوم عصمة الإجماع ولا يريد ان يفارق مذهبه الفكري والعقائدي وانتماءه الى منظومة الفهم الأشعري فهرب هروبا فنياً حين اعترف بالعجز عن معرفة إفراد معصومين بعينهم. ونحن نقول له: إذا كانت الأمة عاجزة عن معرفة أفراد فهي عن معرفة جماعة أهل الحل والعقد بصفاتها وأعدادها أعجز و يحق لنا ان نعاتب هذه الأمة التي أمرها الله بإطاعة مجموعة من الأفراد من الأهمية بمكان إذ قُرنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله لماذا لم تسأل المتلقي الأول عن مصاديق هذه المجموعة؟ وتركت المشتغلين بعملية الفهم يذهبون مذاهب مختلفة في البحث عنهم وجعلتهم عاجزين عن فهم النص الذي جاء من أجل هدايتهم ألم يسألوا عن أشياء لم تكن بتلك الأهمية مثل الأهلة والروح والحيض وغيرها؟ .

أما الامامية فإنهم ذهبوا الى ان (أولي الأمر) هم المعنيون بعملية التلقي بعد الرسول ولما انهم أثبتوا عصمة الرسول ﷺ في عملية التلقي كما مر بصفحات البحث السابقة وكشفوا ما استبطنه فعل الأمر (أطيعوا) من دلالة الوجوب توصلوا الى

مستوى دلالي مفاده ان طاعة (أولي الأمر) واجبة ومساوية لطاعة الرسول لذلك تجب عصمتهم ومعنى العصمة هذا ظهر من المؤشرات النصية والسياقية التي أدركها المفسرون بسبب قوة طاقة النص التركيبية على إنتاج المعاني وإلا لا توجد إشارة لفظية ظاهرة توحي بهذه العصمة لذا أدخلوا الآية السابقة في منظومتهم الكلامية وصنفوها ضمن الآيات التي تدل على إثبات العصمة وظهر ذلك جلياً في ما فهمه الطوسي من تلك الآية في مقام بيان وجوب الطاعة المسلم بدلالتها من صيغة الأمر «ولا يجوز إيجاب طاعة أحد مطلقا إلا من كان معصوما مأمونا منه السهو والغلط»[٥٤] ثم يثبت مصداق الأفراد المعنيين بهذا المصطلح إذ «ليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا العلماء وإنما هو واجب في الأئمة الذين دلت الأدلة على عصمتهم وطهارتهم»[٥٥]، وقد تبعه على ذلك من المفسرين الطبرسي فرأى أن الله تعالى «لم يقرن طاعة أولي الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته إلا وأولو الأمر فوق الخلق جميعاً كما أن الرسول فوق أولي الأمر وفوق سائر الخلق. وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد ﷺ الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم واتفقت الأمة على علو رتبتهم وعدالتهم»[٥٦]، واستمر هذا الفهم أيضاً عند المحدثين من الامامية فصاحب الميزان يوضح معنى الإطلاق في معنى أولي الأمر لذا يرى لا مناص «من أخذ الآية مطلقة من غير أي تقييد ولازمه اعتبار العصمة في جانب أولي الأمر، كما اعتبر في جانب رسول اللهﷺ من غير فرق، ثم إن المراد بالأمر في أولي الأمر هو الشأن الراجع إلى دين المؤمنين المخاطبين بهذا الخطاب أو دنياهم»[٥٧].

كما أنهم استعانوا على فهمهم هذا بالروايات التي سجلوها في مراجعهم التدوينية عن النبيﷺ وأئمة أهل البيتعليهم السلام وهي واضحة الدلالة في إن أولي الأمر هم الإمام عليعليه السلام وبنوه إذ نقل الصدوق عن جابر الجعفي قال : «سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول : لما أنزل الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ (النساء:٥٩) على نبيه محمدﷺ قلت : يا رسول الله عرفنا الله ورسوله فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقالﷺ: هم خلفائي

يا جابر وأئمة المسلمين بعدي أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر و ستدركه يا جابر فإذا لقيته فأقرأه مني السلام ثم الصادق جعفر بن محمد ثم موسى ابن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم سميي وكنيي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي ذاك الذي يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها»[٥٨]، إضافة لما أراده الامامية من دلالة تفسيرية في هذه الرواية نرى فيها دلالة مهمة أخرى تتمثل في طلب الفهم الذي توجه فيه (جابر) لمعرفة دلالة (أولي الأمر)، وهو ما يستبطن ضرورة معرفية نهج عليها بعض الصحابة ربما غيبتها ملابسات التدوين عند المذاهب الأخرى .

ثم ينقل الصدوق حديثاً لأمير المؤمنين عليه السلام وهو يبين إهمية العصمة المفترضة عند أولي الأمر جاء فيه «...إنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر وإنما أمر الله عز وجل بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصيته وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته»[٥٩]، كما نقل المفيد قولاً عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام يتضح فيه موقف أهل البيت من عملية تلقي القرآن وفهمه فيقول: «فالمعوّل علينا في تفسيره لا نتظنى[*] تأويله بل نتيقن حقائقه فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله عز وجل ورسوله مقرونة قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء:٥٩) ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ (النساء:٨٣)»[٦٠]، وهذه الرواية تكتسب قيمة تفسيرية ؛لأنها استعانت بآية أخرى تضع حلاً لفهم مراتب التلقي . والروايات التي أعتمد عليها الامامية في إثبات دلالة (أولي الأمر)كثيرة وهي واضحة في حصر دلالتها على الأئمة من ولد الإمام علي عليه السلام ويكون حينها الإمام علي هو أول من تلقى فهم القرآن عن النبي فالرد إلى الله يعني الرد إلى النص نفسه والرد إلى الرسول يعني الرد إلى فهمه المتجسد في سنته القولية والتداولية والرد إلى أولي الأمر يعني الرد إلى علي عليه السلام، ثم إلى الأئمة من بعده .

من هنا تبين ان عصمة الإمام عند الامامية من المؤهلات التي تجعل قوله وتداوليته ترتقي من الناحية الدلالية والسيميائية إلى تداولية النبي وهذا يتضح من خلال القول الذي يروى عن الأئمة أنفسهم «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي وحديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين عليه السلام حديث رسول الله وحديث رسول الله قول الله عز وجل»[٦١] فبيان الدلالة القرآنية من قبل الإمام وحسب هذا الحديث هو بيان عن المبدع وكشف عن بيان المتلقي المباشر فهو صادر عنه بصورة غير مباشرة لذلك لا يميز الفهم الإمامي فهم النبي من فهم الإمام المعصوم لأن «الإمام لا يكون عالماً بشيء من الأحكام إلا من جهة الرسول وأخذ ذلك من جهته»[٦٢] ،إضافة الى ذلك إعتقاد الامامية بطهارة أئمتهم الطهارة المقصودة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) ويقابلونها مع آية أخرى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:

٧٩) فلا يصل الى معاني القرآن وفهمه إلا من طُهر بالإرادة الإلهية المقصورة بأقوى أدوات الحصر (إنما) والمؤكدة بها وباللام وبالتكرار، و لا يبين دلالة النص إلا من كان عدلا للقران وأحد الثقلين اللذين ساوى بينهما رسول الله ﷺ في قوله المشهور: «إني تارك فيكم خليفتين، كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض أو ما بين السماء إلى الأرض، عترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»[٦٣] هذه كلها أدلة يسوقها الامامية لبيان أحقية أهل البيت في وراثة تلقي القرآن وفهمه عن المتلقي الأول فإنهم إنما يفهمون النص ويبينون دلالاته بتلك الهبات الإلهية التي تمثل الضوابط التي رسمها المبدع «لتكون دلالات وعلامات في مسيرة حركة النص ومن ثم مسيرة المفسر والمستفهم ولتمثل عوامل تمنع الخروج عن حدود الطريق الذي يرسمه النص القرآني أولا ثم هي مانعة من تخلف الفهم في مسيرته عن النص وحركته ثانياً»[٦٤]، وهذا منهج تسير عليه فرقة الامامية في مسألة تحديد ضوابط التلقي وصفات المتلقي لأنها عندهم توقيفية من المبدع فهو الذي له الحق في تحديد صفات من يفهم النص ولاسيما المتشابه منه. فكان فهم أهل البيت عليهم السلام وسنتهم مساوية لسنة الرسول أو هي في امتداده الطولي فإذا لم يكن فهم الرسول ﷺ للنص حاضراً «إما لأن الناس عدلوا عن نقله أو لأنهم لم يخاطبوا به وعول بهم على قول الإمام القائم مقام الرسول ﷺ كلفنا فيه الرجوع إلى أقوال الأئمة المستخلفين بعد الرسول»[٦٥] لذا كان الإجماع عند الامامية يتخذ مجالا آخر وصفة جديدة تميزه عن مفهوم الإجماع عند الاشاعرة فهو يكتسب قوته ووجوده بوجود رأي الإمام المعصوم فيه او انه كاشف عن فهمه فإجماعهم لا يتحقق «إلا وقول الإمام داخل في جملة أقوالهم»[٦٦]. ولاسيما في الفترة التي يكون فيها الإمام المعصوم حاضراً. الا إن فهم الإمام المعصوم وبياناته تواجه مشكلة التداول الشفاهي الذي تعرضت له بيانات الرسول ﷺ من جهة التدوين والضياع وذلك بسبب المضايقات المذهبية والمعرفية التي مرت بها فترة التدوين الإمامي فانحصرت أكثر معارف أئمة أهل البيت في المشافهة التي لها السبب في تغيير أو تغييب كثير من القيم الدلالية التي تداولها الإمام المعصوم

لذلك كانت في معرض التكذيب او التشكيك من مخالفيها بعد التدوين .

وبهذا تعد مساحة التلقي عند الاشاعرة واسعة من جهة أفقية لأن تفسير (أولي الأمر) بالصحابة يعني ان الجميع كانوا في مستوى واحد من الفهم وتنهي فترة تلقيهم المباشر بانتهائهم جميعاً اللهم إلا إذا أضيف الى مساحة الفهم العلماء من المذهب أما من جهة طولية فان مساحة التلقي عند الامامية أكثر سعة لأن تلقي الإمام المعصوم يستمر الى الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر ٣٢١ هـ وهو في كل الأحوال مساوٍ لتلقي النبي ﷺ كما مر في ((حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي ...))[٦٧]. وربما هذا الذي يفسر لنا شبه غياب لفهم الخطاب من غير الأئمة في تلك الفترة التي كانت شخصية المتلقي المفوض لقراءة النص وفهمه حاضرة فيها فأن وجود قارئ آخر للنص – غير المعصوم – في فضاء الفكر الإمامي ليس وجودا عرضيا في مستوى وجود الأمام فهو وإن وجد فليس في مرتبة واحدة مع الإمام بل أنهم يضعون فهم المعصوم إطاراً نهائياً لفهمهم.

وهذه الطريقة في الفهم ربما تتهم بالتعطيل بدواعٍ كثيرة يذكرها علم القراءة المعاصر، ونظريات التلقي الحديثة. الا ان الامامية يرون ان فهم الخطاب الإلهي بحاجة الى هذا المنهج الذي يكفل للمتلقي عدم الوقوع في الفهم الخطأ او حتى الظن بل لابد من تحصيل اليقين في مراتب التلقي ولاسيما فيما عُدّ متشابهاً أو مجملاً في الدلالة من النص القرآني لأن «التشابه والإجمال إنما هو لاحتمال النقيض وهو من عدم العلم اليقيني فأما من علم يقينا جزما بمراد الله تعالى من هذا اللفظ وهم المعصومون الذين هم المتقون بالحقيقة وغيرهم بالمجاز فإنهم يعلمون دلالة اللفظ يقيناً، ومراد الله تعالى منه فلا يكون مجملاً أو متشابها بالنسبة إليهم»[٦٨] فالنص لا يكون فيه متشابه في فهم الإمام المعصوم عند العلامة الحلي ورأيه هذا يتكأ فيه على ما قاله الإمام الصادق : «والمتشابه ما اشتبه على جاهله».[٦٩]

لكن هذا لا يعني ان لا توجد هناك محاولات جادة لكثير من المشتغلين في فهم النص لغير الإمام المعصوم وربما كانت لهم قراءاتهم الخاصة فلم تخلُ مرحلة وجود المعصوم من عناصر اجتهادية كانت

تتبلور داخل منظومة الفهم الامامي، إلا أن هذه القراءات كانت منضبطة بالعودة الى نظرية لها أصولها الإلهية والنبوية لفهم النص القرآني وهي نظرية الرد لأولي الأمر فكانت اجتهاداتهم في فهم النص تقوم على معايير تحكمها نظرية الرجوع الى فهم المعصوم الذي يمثل أصلاً أوضحه الإمام الصادق في قوله : «إنما علينا ان نلقي إليكم الأصول وعليكم التفريع»[٧٠]، وان يكون هذا التأصيل والتفريع في عملية التلقي والفهم ينسجم بالضرورة مع الخطاب القرآني ولا يخالفه لما روي عن الائمة «إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»[٧١].

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أسباب النزول سباب النزول تأليف أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨ هـ) ،مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٤ شارع جواد حسني – القاهرة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م
- إشكالات النص دراسة لسانية نصية جمعان بن عبد الكريم المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط/ الأولى ٢٠٠٩
- الاصول العامة للفقه المقارن العلامة محمد تقي الحكيم ،مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر الطبعة الثانية – ١٩٧٩
- الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام العلامة الحلي ،جمال الدين الحسن بن يوسف المطهر مكتبة الألفين الكويت – ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م
- أمالي السيد المرتضى، الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين المتوفى سنة ٤٣٦ رضي الله عنه في التفسير والحديث والأدب الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ– ١٩٠٧ م صححه وضبط ألفاظه وعلق حواشيه حضرة الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قم – إيران ١٤٠٣ هـ – ق
- الأمالي لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٣٨٥ – ٤٦٠ هـ تحقيق قسم الدراسات الاسلامية – مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع دار الثقافة الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ
- الإنصاف فيما يجب الاعتقاد به القاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) تحقيق محمد زاهد الكوثري مؤسسة الخانجي مصر، ١٩٦٣
- أوائل المقالات تأليف الإمام الشيخ المفيد

محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله العكبري البغدادي (٣٣٦ - ٤١٣ هـ دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت . لبنان الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

- تاريخية الفكر العربي الاسلامي، محمد أركون ترجمة هاشم صالح مركز الإنماء القومي بيروت – ١٩٨٦
- التأويل وقراءة النص في دراسات الإعجاز القرآني الدكتور سرحان جفات دار الينابيع السويد الطبعة الاولى – ٢٠١٠
- التبيان في تفسير القرآن تأليف: شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي(٣٨٥ - ٤٦٠ هـ)_تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي ،مطبعة النعمان – النجف الاشرف ١٣٨٣ هـ-١٩٦٤ م
- التعريفات السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان ،الطبعة الاولى ١٤٢٤ -٢٠٠٣ : ١٢٣
- تفسير البحر المحيط المؤلف : أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥) تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض لبنان -بيروت دار الكتب العلمية الطبعة : الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١م
- تفسير التحرير والتنوير تأليف سماحة الاستاذ الامام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر تونس- ١٩٨٤
- تفسير الثعلبي الثعلبي(ت ٤٢٧) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي بيروت – لبنان إحياء التراث العربي الطبعة : الأولى: ١٤٢٢ - ٢٠٠٢م ،
- تفسير السمرقندي ابو الليث السمرقندي (ت ٣٨٣) تحقيق د. محمود مطرحي بيروت دار الفكر د.ت
- التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الطبعة الثالثة د .ت
- تلخيص الشافي ابو جعفر محمد الحسن الطوسي تعليق السيد حسي بحر العلوم مطبعة الاداب، النجف الاشرف ط٢ ١٩٦٣
- تنزيه الانبياء والائمة للشريف المرتضى علم الهدى تحقيق فارس حسون كريم مركز الطباعة والنش التابع لمكتب الاعلام الاسلامي – قم الطبعة الثانية -١٤٣٠ هـ .ق:
- الجامع الصحيح للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري طبعة مصححة ومقابلة على

عدة مخطوطات دار الفكر، بيروت – لبنان د.ت

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ،دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
- الخصال للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المتوفى ٣٨١ هـ، صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم المقدسة ،ذي القعدة الحرام ١٤٠٣
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لامام أهل التحقيق ورئيس ذوي التدقيق عمدة الأئمة المتقدمين والمتأخرين وخاتمة الحفاظ المحدثين الامام الكبير والعلم الشهير جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي رحمه الله تعالى ،دار الفكر، بيروت – لبنان د.ت
- رسائل الشريف المرتضى الشريف المرتضى دار القرآن الكريم – قم مطبعة سيد الشهداء ١٤٠٥ هـ
- الشافي في الإمامة الشريف المرتضى (قدس سره) مؤسسة الصادق – طهران الطبعة : الثانية ١٤١٠ هـ . ق
- ظواهر اسلوبية في الشعر اليمني الحديث د. أحمد قاسم الزمر مركز عبادي للدراسات والنشر صنعاء الجمهورية اليمنية ط/١ ١٤١٧ هـ –١٩٩٦
- عصمة الانبياء :فخر الدين الرازي(ت٦٠٦ هـ) مطبعة الشهيد – قم ١٤٠٦ هـ
- العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام الموضوع سماحة العلامة المحقق الأستاذ جعفر السبحاني بقلم : جعفر الهادي مؤسسة الصادق عليه السلام الطبعة : الأولى التاريخ : ١٤١٩ ه – ١٩٩٨ م
- الفصول المهمة في أصول الأئمة محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق محمد بن محمد الحسين القائيني، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ . ق .
- في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في صول الدين تأليف دكتور احمد محمود صبحي دار النهضة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م بيروت
- كتاب التفسير لمؤلفه المحدث الجليل أبي النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي تصحيح وتحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ،المكتبة العلمية الاسلامية طهران سوق الشيرازي، د.ت

- كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ١٠٠ - ١٧٥ هـ . تحقيق الدكتور مهدي المخزومي الدكتور إبراهيم السامرائي مؤسسة دار الهجرة الطبعة الثانية - إيران : ١٤٠٩هـ
- كتاب الكافي في الأصول والروضة لثقة الإسلام أبى جعفر محمد بن يعقوب الكليني مع شرح الكافي الجامع للمولى محمد صالح المازندراني المتوفى ١٠٨١ هـ مع تعاليق الميرزا أبو الحسن الشعراني ضبط و تصحيح: السيد علي عاشور دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان ،الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م
- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد تأليف : العلامة الحلي قدس سره تحقيق وتعليق : الأستاذ آية الله الشيخ حسن حسن زادة الآملي مؤسسة النشر الاسلامي - قم الطبعة : السابعة المنقحة ١٤١٧ هـ . ق
- كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبى جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ،المتوفى سنه ٣٨١ ،صححه وعلق عليه على أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة إيران - محرم الحرام ١٤٠٥
- لسان العرب للامام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري نشر أدب الحوزة قم - إيران ١٤٠٥ هـ ١٣٦٣ ق.
- مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية الدكتور مهدي اسعد عرار دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٨.
- مجمع البيان في تفسير القرآن تأليف أمين الاسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري حققه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين منشورات مؤسسة الأعلمي الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م بيروت- لبنان
- المستصفى في علم الأصول تأليف الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ طبعه وصححه محمد عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت – لبنان د. ت
- مسند احمد الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١) دار صادر، بيروت- لبنان د.ت.
- معاني الأخبار للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المتوفي سنة ٣٨١ عني بتصحيحه علي أكبر الغفاري الناشر انتشارات إسلامي - قم ١٣٦١

هجري شمسي.
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (- ٣٩٥) تحقيق : عبد السلام محمد هارون مركز النشر - مكتب الاعلام الاسلامي مطبعة مكتب الاعلام الاسلامي جمادي الآخرة ١٤٠٤
- مقارنة الأديان (الإسلام)تأليف الدكتور أحمد شلبي ،مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة : ١٩٧٣
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ،تأليف الإمام ابي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ،المتوفى سنة ٣٣٠هـ تحقيق وشرح الدكتور نواف الجراح دار صادر، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م
- مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني ،تأليف الدكتور ستار جبر حمود الأعرجي بيت الحكمة العراق - بغداد الطبعة الأولى – ٢٠٠٨
- المواقف عضد الدين الإيجي (ـ ٧٥٦) تحقيق : عبد الرحمن عميرة دار الجيل لبنان - بيروت - الطبعة : الأولى ،١٤١٧ - ١٩٩٧م.
- الميزان في تفسير القرآن تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة د.ت
- نحو توسيع مفهوم الخطاب عبدالله بن ظافر الشهري مجلة فصول العدد /٧٧ ربيع ٢٠١٠.
- النص الديني في الإسلام من التفسير الى التلقي د. وجيه قانصوة دار الفارابي بيروت - لبنان الطبعة الأولى -٢٠١١.
- النكت الاعتقادية ورسائل أخرى الشيخ المفيد دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت. لبنان الطبعة الثانية ١٤١٤ هجرية - ١٩٩٣ ميلادية.

هوامش البحث

(١) كتاب العين مادة (عصم) ١ :٣١٣

(٢) معجم مقاييس اللغة مادة (عصم) ٤: ٣٣١

(٣) ظ: لسان العرب مادة (عصم) ١٢: ٤٠٣

(٤) النكت الاعتقادية ورسائل أخرى: ٣٧ وظ :الامالي : للمرتضى :٢ : ٣٤٧

(٥) معاني الأخبار:١٣٢

(٦) أوائل المقالات: ٦٣

(٧) المواقف ٣: ٤٤٨

(٨) التعريفات : ١٢٣

(٩)التفسير الكبير: ٣١ :٢١٧

(١٠) المواقف ٣: ٤٢٨ و ظ : المصدر السابق ٣١ : ٢١٧

(١١) ظ : تنزيه الأنبياء والأئمة للشريف المرتضى علم الهدى:٣٧ وظ :كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد:٣٦٧

(١٢)المواقف: ٣ : ٤١٦

(١٣) ظ : أسباب النزول سباب النزول

(١٤)إذ معه «نصل الى ذروة ما بلغه علم الكلام عند الاشاعرة، إذ يتميز كتابه المواقف مع شرح الجرجاني عليه بنسق متكامل شامل في عرض الموضوعات وترتيب محكم لم يتمكن متكلم أشعري من بعده ان يزيد عليه فضلا عن ان يجاريه» في علم الكلام (مصدر سابق) ٢: ٣٥٧

(١٥) المواقف ٣ : ٤٢٣

(١٦) لسان العرب (مادة منى) ١٥ :٢٩٤

(١٧) ظ : مقاييس اللغة (مادة منى) ٥ :٢٧٧ وظ لسان العرب(مادة منى) ١٥ :٢٩٤

(١٨)ظ :التبيان في تفسير القرآن٧: ٣٢٩ وظ: تفسير السمرقندي ١ : ٩٣ وظ :تفسير الثعلبي: ٧ :٣٠

(١٩) التحرير والتنوير ٩ : ٢٩٣

(٢٠) الميزان في تفسير القرآن ١٤ : ٣٩١.

(٢١)ظ: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت: ١٣١

(٢٢)بدليل حديث عن عبد الله بن عمرو قال : ((كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش عن ذلك وقالوا تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الغضب والرضا فأمسكت حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق)) مسند احمد الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١) دار صادر، بيروت- لبنان ٢ : ١٩٢

(٢٣) النص الديني في الإسلام: ١٦٤

(٢٤)نحو توسيع مفهوم الخطاب عبدالله بن ظافر الشهري مجلة فصول العدد /٧٧ ربيع ٢٠١٠: ٨٩

(٢٥)المستصفى ٢ : ٦٧

(٢٦) مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية ،: ١٧٢

(٢٧)إشكالات النص دراسة لسانية نصية : ٤٥٤ – ٤٥٥

(٢٨) النص الديني في الإسلام :١٦٦ -١٦٧

(٢٩) النص الديني في الإسلام : ٦٨ – ٦٩

(٣٠) البرمة : القدر ظ : مقاييس اللغة (برم) ١: ٢٣٣ الخزيرة : شبه عصيدة بلحم وبلا لحم عصيدة أو مرقة من بلالة النخالة . ظ: القاموس المحيط (خزر) ٢ : ١٩

(٣١)مسند احمد ٦ : ٢٩٢ وفي المعنى نفسه ينظر صحيح مسلم ٧ : ١٣٠

(٣٢)ظواهر اسلوبية في الشعر الحديث في اليمن: ٤٦-٤٧

(٣٣)التبيان في تفسير القرآن ٣: ٢٣٦

(٣٤) التفسير الكبير١٠ : ١٤٩

(٣٥)ظ: المصدر نفسه

(٣٦) المصدر نفسه ٣١: ٥٦

❖ ففي المعاجم عبس الرجل يعبس عبوسا : كلح . وعبس وجهه شدد للمبالغة والتعبس: التجهم عبس الرجل يعبس عبوسا وهو عابس الوجه غضبان العابس: الكريه الملقى الجهم المحيا ظ: مقاييس اللغة ٤: ٢٢١.و لسان العرب ٦ : ١٢٨

(٣٧) عصمة الانبياء :فخر الدين الرازي(ت٦٠٦ هـ) مطبعة الشهيد – قم ١٤٠٦ هـ : ١٠٨

(٣٨)ظ : تنزيه الانبياء : ١٦٦وظ : التبيان :١٠:٢٦٩

(٣٩)مقارنة الأديان (الإسلام): ١١٩

(٤٠)المصدر السابق: ١١٩ – ١٢٠

(٤١)الاصول العامة للفقه المقارن: ٢٢٩

(٤٢)تاريخية الفكر العربي الاسلامي: ١٦٥

(٤٣)المصدر نفسه

(٤٤) النص الديني في الاسلام :١٧٠

(٤٥) الكافي ٨ : ٣١٢

(٤٦) ظ التأويل وقراءة النص في دراسات الإعجاز القرآني: ١٣٧

(٤٧) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ١٧٢ -١٧٣

(٤٨)ظ :رأي الباقلاني في كتابه الإنصاف فيما يجب اعتقاده : ١٩ – ٢٠ ورأي الغزالي في كتابه الاقتصاد:١٧

(٤٩)مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني :٤٠١

(٥٠).ظ:الجامع لأحكام القرآن ٥ :٢٩١ . وظ : الدر المنثور في التفسير ٢ :١٧٧ وظ : البحر المحيط ٣: ٣١٨ . بألفاظ مختلفة .

(٥١) التفسير الكبير١٠ : ١٤٤

(٥٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٤٤

(٥٣) المصدر نفسه ١٠: ١٤٦

(٥٤)التبيان في تفسير القرآن ٣ :٢٣٦

(٥٥)المصدر نفسه ٣: ٢٣٦

(٥٦) مجمع البيان في تفسير القرآن ٣ :١١٤

(٥٧) الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٩١

(٥٨)كمال الدين وتمام النعمة: ٢٥٣

(٥٩) الخصال : ١٣٩

❖ التظني: إعمال الظن وأصله التظنن أبدل من إحدى النونات ياء . ظ : لسان العرب مادة(ظني) ١٥ : ٢٥

(٦٠)أمالي الشيخ الطوسي :١٢١

(٦١) ظ : الكافي ١ :٥٣

(٦٢) تلخيص الشافي ١: ٢٥٣

(٦٣)مسند أحمد ٥: ١٨٢وظ صحيح مسلم ٧ : ١٢٣ وظ: أمالي الصدوق: ٥٠ وظ:أمالي الطوسي : ١٦٢وغيرها من كتب الطرفين . بألفاظ مختلفة .

(٦٤) مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني :٥١

(٦٥) الشافي في الإمامة ١: ١٧٢

(٦٦)رسائل المرتضى ١ :١٥ -١٦

(٦٧)ظ الكافي ١: ٥٣

(٦٨) الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :٣٢٨

(٦٩) كتاب التفسير للعياشي ١: ١٦٢

(٧٠)الفصول المهمة في أصول الأئمة ١: ٥٥٤

(٧١)الامالي للصدوق : ٤٤٩

العقل

وأهميته في فكر الإمام موسى الكاظم عليه السلام من منظور قرآني

م. د. مياس ضياء القزويني

المقدمة

الحمد لله والحمد حقه، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى اهل بيته الطيبين الطاهرين.

تتمثل عظمة أهل البيت عليهم السلام في كمال ذواتهم الإنسانية، وتميزهم من سائر الناس في معرفتهم بالله تعالى، والتوجه الخالص له، وهو المتصف بالخير والكمال المطلق، وانعكاس هذه المعرفة سلوكاً وعملاً في حياتهم المثالية الخالدة .

إن سيرة الإمام الكاظم عليه السلام الكفاحية، نبراساً ومثالاً للقيم الاخلاقية والتربوية في حياة الامة، ذلك ان هذه المسيرة المعطاء تميزت بالصلابة والصمود، وعرفاناً اصيلاً لسيرة الرسول الاكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسلوك والاداء والعطاء، فلا عجب ان نرى في سيرته عليه السلام الزهد والتضحية، وبذل المال والنفس في سبيل الوصول الى مرضاة الله جل جلاله، والعمل على انقاذ الإنسانية ووضعها على طريق الهدى.

ويظهر ذلك جلياً في عطائه الفكري الذي أكد على العقل وأهميته وعلاقته بالعلم والمعرفة، فالذي بين أيدينا تراث وثورة فكرية وحضارية فذة، تسهم في بناء الإنسان وتصحيح مساره، فنحن عندما نقف على هذه العطاءات الفكرية والتربوية الغنية، علينا ان نستثمرها ونوظفها في بناء

الحضارة الإسلامية وتربية الإنسان المؤمن، لذا فقد سلطت الضوء على هذا الجانب من عطاء الإمام الفكري ؛ لأنه أكد على العقل وأهميته بشكل كبير من خلال توصياته واقواله .

وهذه دراسة موضوعية تتضمن مبحثان:-

الاول:- تعريف العقل وبيان أهميته وعلاقته بالعلم.

والمبحث الثاني:- تناولت فيه العقل وأهميته في فكر الإمام موسى الكاظم عليه السلام من منظور قرآني.

وأسأل الله جل جلاله ان يتقبل عملي هذا ويجعله في ميزان حسناتي، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم .

المبحث الاول: تعريف العقل وبيان أهميته وعلاقته بالعلم

١ـ تعريف العقل :-

قال ابن الفارس :- العقل : هو الحابس عن ذميم القول والفعل[١].

وقال الخليل :- العقل :- نقيض الجهل، ويقال : عقل يعقل عقلاً، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما يفعله، وجمعه عقول[٢].

والعقل: الحِجْرُ والنهي، ورجل عاقلٌ وعَقولٌ[٣].

وعقل الشيء :- فهمه وتدبرهُ .

وعقل فلان :- عرف الخطأ الذي كان عليه .

٢ـ أهميته :-

إن التفكير والتعقل عماد الإسلام، وركيزته الاساسية، فالشريعة السماوية لا تبيح للإنسان تصديق ما لا يراه صحيحاً، والإتيان بما يستقبحه العقل من الاعمال، لذا جاءت الآيات القرآنية الكريمة، واحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام داعية الى التدبر، والتعقل، والتعلم، وأكدت عليها في توجيهاتها اكثر من أي شيء آخر .

فالإسلام يرى ان العقل اساس الإنسان، ومعيار لقيمته ودرجة كماله، وقد جاء القرآن الكريم مليئاً بذكر العقل في آياته الكريمة مانحاً له أهمية واضحة، إذ دعا الى استخدام الفكر واستعمال العقل الذي يؤمن بالاستدلال وينكر التبعية والتقليد الاعمى، يقول سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٢ ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة:١٧٠.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الأنعام: ١١٦، فالقرآن الكريم يرفض التبعية الفكرية دون استخدام العقل لأن ذلك يعدُ انسياقاً وراء أوهام التبعية التي لا طائل منها، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحج: ٦٥ ، فالله سبحانه وتعالى أمر المؤمن ان يتفكر فيما تحت يده في الأرض، وما فوقه من أفلاك ليتعرف كنهها، لأنها سخرت له وذللت لإرادته، لذا دعا القرآن الكريم الى النظر في الكون والمخلوقات، قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ العنكبوت: ٢٠، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٨٥، فهذه الآيات وغيرها دعوة واضحة الى استعمال العقل وإعمال النظر في المخلوقات الكونية، وايضاً دعا القرآن الكريم العقل الى امعان النظر في الحكمة من وراء الصلاة كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجمعة: ٩، والصوم كقوله تعالى ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٨٤.

فالإسلام بوصفه آخر دين سماوي جاء لخير الإنسان، يقدر الطاقة العقلية ويديرها ليستخدمها المسلم في صلاح الناس الى يوم القيامة، وقد وضع لذلك المنهج الصحيح للنظر العقلي، فطلب تدبر نواميس الكون، وتأمل ما فيها من دقة وارتباط، ولذلك فقد نعى على الإنسان التقليد المطلق الذي لا يستخدم العقل، كما بينت الآيات السابقة، وهذه من المعطيات الثورية للحرية الفكرية في الإسلام فالحرب التي شنها على التقليد وجمود الفكر، والاستسلام العقلي للأساطير أو لآراء الاخرين دون وعي وتمحيص، و الهدف الذي يرمي اليه الإسلام من ذلك تكوين العقل الاستدلالي أو البرهاني عند الإنسان، فلا بد في رأي الإسلام لإنشاء الفكر الحر أن ينشئ في

الإنسان العقل الاستدلالي الذي لا يقبل فكرة دون بحث ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان، ليكون هذا العقل الواعي ضماناً للحرية الفكرية وعاصماً للإنسان من التفريط بها، بدافع من التقليد أو التعصب، أو الركون الى الخرافة، وفي الواقع ان هذا جزء من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلي للإنسان، فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات، كذلك حرر الوعي الإنساني من عبودية التقليد، وبهذا أو ذاك اصبح الإنسان حراً في تفكيره وحراً في إرادته.[٤]

وهذا ما أكدته الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يكن احدكم إمعة يقول انا مع الناس ان احسن الناس أحسنت وإن اساؤوا أسأت»، وقال الإمام علي عليه السلام: «إذا اراد الله بعبد خيراً منحه عقلاً قويماً وعملاً مستقيماً»[٥].

وكان الإمام علي عليه السلام يوصي ولده الحسن عليه السلام فيقول: «... يا بني لا فقر أشد من الجهل، ولا عدم أشد من عدم العقل ... ولا عبادة كالتفكر في صنعه الله عز وجل، يا بني العقل خليل المرء .. إنه لابد للعاقل من ان ينظر في شأنه ...»[٦]، وقوله عليه السلام: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل ولا ميراث كالأدب»[٧].

وتتجلى النزعة العقلية في فكر الإمام موسى الكاظم عليه السلام من خلال وصيته لتلميذه هشام بن الحكم التي أكد فيها على العقل من خلال النهج القرآني الذي أكد على أثر العقل كحجة الله على عباده، في مسألة الايمان، والكفر، والضلالة، والاستقامة، والانحراف، والحديث عن السلبيات والايجابيات في سلوك الإنسان من خلال تحريك العقل أو تجميده، فلم يعد العقل لديه مجرد قوة تتصل بالكليات العامة في حياته، بل تحول الى قاعدة للوعي التفصيلي الذي يحدد للإنسان موقع الحكمة في حياته التي سأبينها في المبحث الثاني ان شاء الله تعالى .

٢ـ علاقته بالعلم :-

من أروع مبادئ التربية الإسلامية تعظيم العلم والمعرفة، وقد ذكر العلماء مكانة العلم ومن تحلى به، وتوسعوا في بيانه عن طريق العقل، والتنزيل والسنة النبوية .

اما الكتاب فقد أشار الى ذلك في مواضع كثيرة منها قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ العلق: ١ – ٥ ، حيث أفتتح كلامه سبحانه بذكر نعمة الإيجاد واتبعه بذكر نعمة العلم، فلو كان بعد نعمة الإيجاد نعمة اعلى من العلم لكانت أجدر بالذكر، وقد قيل في وجه التناسب بين الآي المذكورة في صدر هذه السورة المشتمل بعضها على خلق الإنسان من علق، وبعضها على تعليم مالم يعلم، انه تعالى ذكر أول حال للإنسان يعني كونه علقة وهي بمكان من الضعة، وآخر حاله وهي صيرورته عالماً وذلك كمال الرفعة والجلالة[٨] . وقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ الطلاق: ١، فإنه سبحانه جعل العلم علة لخلق العالم العلوي والسفلي طراً وكفى بذلك جلالة وفخراً ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الحج: ٥٤، والى غير ذلك من الآيات الدالة عظمة العلم وشرفه .

أما السنة النبوية الدالة على فضل العلم فكثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله: «العالم بين الجاهل

كالحي بين الاموات، وإن طالب العلم ليستغفر له كل شيء حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وانعامه، فأطلبوا العلم فإنه السبب بينكم وبين الله عز وجل وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ألا إن الله يحب بغاة العلم»[٩].

وقد جاء عن الأئمة عليهم السلام في فضل العلم ومكانته اقوال كثيرة ايضاً منها قول الإمام علي عليه السلام: «الجاهل صغير وان كان شيخاً، والعالم كبير وان كان حدثاً»[١٠]، وقوله عليه السلام: «لا علم كالتفكير ولاشرف كالعلم»[١١].

فالعلم والعقل امران متلازمان، فقد استدل على فضل العلم بالعقل، فشرف العلم وتقدمه على جميع المعقولات والموجودات أمر قضت به الضرورة وحكم به العقل والوجدان، ففي العلم يكون تمام الكمال، وفي الجهل يكون غاية النقصان، لأنه عندما يلاحظ الإنسان المعقولات فهي اما موجودة أو معدومة، ولا شك ان الموجود اشرف، ثم ان الموجود منه الجماد ومنه النامي، ولاريب ان النامي اشرف من الجماد، والنامي إما حساس أو غير حساس، والحساس اشرف، ثم الحساس منه العاقل وغير العاقل كالإنسان وسائر الحيوانات، ولاشك ان العاقل أشرف، ثم العاقل ينقسم الى عالم و جاهل، ولا ريب ان العالم أشرف، فالعالم حينئذ أشرف المعقولات[١٢].

وقد بين الإمام الكاظم عليه السلام علاقة العقل والعلم وجعل العقل مع العلم من خلال قوله لهشام بن الحكم :- ان الله يقول ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٣، ويقول تعالى ايضاً ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان: ١٢، قال :- الفهم والعقل .

يا هشام إن لقمان قال لابنه : تواضع للحق تكن اعقل الناس، وان الكيس لدى الحق يسير، يا بني : ان الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الايمان، وشراعها التوكل، وقيمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر .

يا هشام :- لكل شيء دليل، ودليل العقل التفكر، ودليل التفكر الصمت، ولكل شيء مطية، ومطية العاقل التواضع، وكفى بك جهلاً ان تركب ما نهيت عنه .

يا هشام : – نُصب الخلق لطاعة الله، ولا نجاة الا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعلم يعتقد، ولاعلم إلا من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل .

يا هشام :– ما بعث الله انبياءه ورسله الى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله، واعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، واعقلهم ارفعهم درجة في الدنيا والآخرة.[١٣]

وبهذه المقتطفات من كلام الإمام الكاظم عليه السلام تبين لنا كيف اشاد بالعقل بوصفه طاقة جبارة تأخذ العلم وتتفرد به لاستجلاء كنه المبهمات .

المبحث الثاني: العقل وأهميته في فكر الإمام موسى الكاظم عليه السلام

ان للعقل اهمية كبيرة وواضحة في فكر الإمام موسى الكاظم عليه السلام فالمدقق في كلامه عليه السلام يلحظ ذلك الاهتمام العجيب لموضوع العقل وعلاقاته الاخرى، سواء كان ذلك من تعليق موضوع العقل بالصفات أو تفسير الآيات القرآنية التي موضوعها العقل، أو ايضاح صفات العقل، الى غير ذلك وسأبين العقل وأهميته في فكر الإمام عليه السلام من خلال الامور الآتية :–

١ـ بيانه لدلالة العقل في القرآن الكريم :-

فقد بين عليه السلام دلالة العقل من خلال ذكره للآيات القرآنية التي تشير اليه، فقال في بداية وصيته لهشام بن الحكم : (يا هشام ان الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزمر:١٨.

فبدأ بذكر الآيات الدالة على العقل والتعقل ومدح اولي العقول والالباب، وذم من ترك فرض العقل والتدبر، وبين ايضاً بعض معاني الآيات القرآنية ودلالتها في مسألة العقل وانها مقصودة به، قال عليه السلام: (يا هشام : ان الله يقول ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ ق: ٣٧، يعني العقل، وقال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ لقمان: ١٢، قال : الفهم والعقل)[١٤].

وأكد على ذلك المعنى في بيانه لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الرعد: ١٩، قال : هم اولو العقول[١٥].

وقال عليه السلام: (يا هشام بن الحكم : ان الله عز وجل أكمل للناس الحجج بالعقول وأفضى اليهم بالبيان، ودلهم على ربوبيته

بالإدلاء فقال ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣،

وقوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤، يا هشام قد جعل الله عز وجل دليلاً على معرفته بان لهم مدبراً فقال ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل: ١٢، وقال ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ الزخرف: ١ – ٣، وقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم: ٢٤،

يا هشام ثم وعظ اهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام: ٣٢، وقال ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ القصص: ٦٠.

يا هشام ثم خوف الذين لا يعقلون عذابه فقال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الصافات: ١٣٦ – ١٣٨ .

يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٧٠، وقال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأنفال: ٢٢، وقال ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقمان: ٢٥، ثم ذم الكثرة فقال ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الأنعام: ١١٦، وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾ الأنعام:٣٧ .

يا هشام ثم مدح القلة فقال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سبأ: ١٣، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص: ٢٤، وقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ هود: ٤٠ .

١ـ علاقة العقل بمعرفة الله سبحانه وتعالى :-

يُبين الإمام موسى الكاظم عليه السلام الصلة الوثيقة بين العقل ومعرفة الله تعالى، فلمعرفة لا تتم الإ بالعقل، يقول عليه السلام: يا هشام ان الله جل وعز حكى عن قوم صالحين انهم قالوا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ آل عمران: ٨ ، حين علموا ان القلوب تزيغ وتعود الى عماها ورداها، إنه لم يخف الله من لم يعقل الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على المعرفة الثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون احد كذلك إلا من كان قوله لفعله مصدقاً، وسره لعلانيته موافقاً، لأن الله لم يدل على الباطل الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه)[١٦].

ويقول عليه السلام ايضاً (يا هشام : نصب الخلق لطاعة الله، ولا نجاة الا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالعقل يعتقد، ولا علم الا من عالم رباني ومعرفة العلم بالعقل)[١٧].

فالعقل أساس كل شيء حتى معرفة الله سبحانه وتعالى .

٢ـ حجية العقل :-

أكد الإمام الكاظم عليه السلام أن العقل الإنساني يستطيع ان يدرك حقائق العلوم وان يستنبط الفروع والأصول، وان يجرد الكليات من الجزئيات، إلا انه لا يستطيع ان يجاوز الطور الذي خلق له، لأن العقل ميزان يستطيع الإنسان ان يزن به أمور الحس والتجربة، لكنه لا يستطيع ان يزن به أموراً هي خارج طوره كأمور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الالهية .

فالعقل السوي وبوجود الفطرة السليمة يدرك ويعي علة وجوده بين الموجودات معتمداً التفكر والتدبر ومستعيناً بأدواته في الحجة والبيان والدليل، وهذا الذي يقصده الإمام عليه السلام بحجية العقل في قوله: (ان لله على الناس حجتين : حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والانبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول)، وفي قوله عليه السلام: (ان الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين بالبيان ودلهم على ربوبيته بالأدلة)[١٨].

فالإمام يعتقد بالمصاديق التي توصل الى اليقين كالحجة والبيان والدليل .

٣ـ العقل وعلاقته بالدنيا والآخرة :-

أكد الإمام الكاظم عليه السلام في أقواله الرابط

بين الدنيا والاخرة، وشدد بألفاظ عديدة على خطورة التمسك بالدنيا والاعتزاز بزخرفها، وترك طلب الاخرة أو تهوينها، فهذا خلاف العقل الذي يعد الحجة الباطنة لله تعالى، وخلاف ما أمر الله تعالى به على لسان أنبيائه ورسله وهم الحجة الظاهرة، لذا فقد أكد وجوب الزهد في الدنيا وجعلها الوسيلة الى الاخرة وهذا تمام التعقل فقال عليه السلام: (يا هشام : إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الاخرة، لأنهم علموا إن الدنيا طالبة مطلوبة، والآخرة طالبة مطلوبة، فمن طلب الاخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته)[١٩].

وقوله عليه السلام: (يا هشام : ان مثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفي جوفها السم القاتل، يحذرها الرجال ذووا العقول، ويهوي اليها الصبيان بأيديهم، يا هشام : اصبر على طاعة الله، واصبر على معاصي الله، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى منها فليس تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأتِ منها فليس تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي انت فيها فكأنك قد اغتبطت)[٢٠].

ولا يخفى ما لهذا الكلام من أثر في ايضاح المعنى وتوكيد الفكرة، وبيان صحة سلوك من أعمل العقل وجعل له مقاماً حياً .

٣. بيانه عليه السلام للصفات التي يتصف بها العقلاء :

بعدما بين الإمام الكاظم عليه السلام أهمية العقل وصفته، امتدح العقلاء وبين مقامهم وصفاتهم التي يتصفون بها، هذه الصفات التي يتحلون بها لا يجتمعون بها مع غيرهم، لأنها صفات تساير افعالهم، فهم الملتزمون بحدود الله تبارك وتعالى الشاكرون له في جميع احوالهم قال عليه السلام في وصفه لهم (يا هشام: ان العاقل لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره، يا هشام: قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود، يا هشام : ان العاقل رضي بالدون من الدنيا بالحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا فلذلك ربحت تجارتهم، يا هشام: ان العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف الذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض)[٢١].

وقال عليه السلام ايضاً في مدح العقلاء ومفارقتهم ذميم الصفات: (يا هشام: ان العاقل لا

يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه، وكان امير المؤمنين عليه السلام يوصي اصحابه فيقول: (أوصيكم بالخشية من الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والاكتساب في الفقر والغنى، وان تصلوا ارحامكم، وتعفوا عمن ظلمكم، وتعطفوا على من حرمكم، وليكن نظركم عبرا، وصحتكم فكرا، وقولكم ذكر، وطبيعتكم السخاء، فأنه لا يدخل الجنة بخيل، ولا يدخل النار سخي) يا هشام: ان العاقل لا يكذب وان كان فيه هواه)[٢٢].

فهذه الصفات التي بينها الإمام عليه السلام لا يمكن ان تكون لدى انسان من دون ان يكون عقله راجحاً على هواه.

٤ـ علاقة العقل بالحكمة :-

الحكمة ثمرة العلم، ومصداق التعقل، ولا تنال إلا بالعلم، لذا أكّدها الإمام الكاظم عليه السلام، وحث على طلبها وعدم اضاعتها، فالدنيا كلها لا تساوي الحكمة عند اهلها، ولا تصل حدودها، يقول عليه السلام: (يا هشام: لا تمنحوا الجهال الحكمة

فتظلموها، ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم، يا هشام كما تركوا لكم الحكمة، فاتركوا لهم الدنيا)[٢٣].

ويقول عليه السلام: (يا هشام : مجالسة اهل الدين شرف الدنيا والاخرة، ومشاورة العقل الناصح يُمن وبركة ورشد وتوفيق من الله، فاذا أشار اليك العاقل الناصح فإياك والخلاف فإن في ذلك العطب)[٢٤].

فالحكمة تقتضي مراعاة اصناف الناس واختيار افاضلهم معاشرة، واعلمهم بالحق واهله، واقربهم الى الله تعالى.

ثم يبين عليه السلام ضرورة العمل بالحكمة وليس فقط أخذها، فربط العلم بالعمل فلا فائدة من الحكمة اذا لم نعمل بها، فقال الإمام عليه السلام ناقلاً عن المسيح عليه السلام قوله: (يا هشام : ان المسيح عليه السلام قال للحواريين ... بحق اقول لكم : ان الناس في الحكمة رجلان: فرجل أتقنها بقوله وصدقها بفعله، ورجل أتقنها بقوله وضيعها بسوء فعله، فشتان بينهما، فطوبى للعلماء بالفعل، وويل للعلماء بالفعل، .... يا بني اسرائيل زاحموا العلماء في مجالسهم ولو جثوا على الركب، فان الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر)[٢٥].

٥ـ العقل والجهل :

يُبين الإمام عليه السلام صفات العقل وصفات الجهل، وهي مجموعة من الصفات تتصل بالعقل وماله من امور كريمة يتصدرها الخير، و ما للجهل من اوصاف سقيمة يتصدرها الشر، لذا كان الإمام عليه السلام يؤكد لتلميذه هشام بن الحكم هذه الصفات فيقول (يا هشام : اعرف العقل وجنده، والجهل وجنده تكن من المهتدين)[٢٦].

فالهداية متعلقة بالمعرفة والمعرفة طريقها العلم ولا علم من دون تعقل، ومعرفة العقل وجنده ثمرتها الهداية .

ومن المقابلة بين صفات العقل وصفات الجهل يتضح لنا ذلك التوجه الدقيق واللطيف للترغيب بإعمال العقل، والتحلي بصفاته، والترهيب من صفات الجهل والتخلي عنها .

والمقارنة واقعة لا محالة بين الاثنين طالما وهب الإنسان عقلاً مفكراً، ولباً مدركاً، فسوف يختار ما هو أصح لحاله، وأقوم لنفسه، وارجى ما عند ربه، فإذا عرف الإنسان معالم التعقل، ونهج طريق معرفة الله، ومعرفة نفسه والاخرين، ادرك مفاهيم العقل وصفاته وكيفية مخالطة الاخرين، والتعايش معهم، فليس للتعقل

قيمة من دون تطبيقاته وليس للتطبيق أثر من دون صوابه وصحته، والصواب والصحة تكون بالطاعة والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل، كما نص عليه الإمام الكاظم عليه السلام، فقد أشار عليه السلام الى تلك الصفات التي منها : التواضع، والصدق، وتزكية العمل، والحياء، والتقرب الى الله تعالى، والتراحم، والشكر،... وغيرها، وأشار ايضاً الى صفات الجهل والتي منها : الكبر، والتعاظم، والافتتان بالدنيا، وايثار الهوى عن الرغبة الى الله تعالى... وغيرها.

٦ـ دور العقل في الفضائل : ـ

العقل أساس الفضائل وينبوع الآداب، فلا يسمى الإنسان فاضلاً حتى يكون عاقلاً، يعرف ما ينبغي له ان يؤثر من خير، أو يتجنب من شر، لأن الاخلاق الفاضلة من موجبات العقل الصحيح، فإذا تم عقل المرء سهل عليه التغلب على مشكلات الحياة وصعوباتها، فالعقل أذن هو الهادي الى الرشاد والصواب، والموصل الى الخير، والجالب للرحمة، وفي ذلك يقول الإمام الكاظم عليه السلام : (يا هشام : ما قسم بين العباد أفضل من العقل، نوم العاقل افضل من سهر الجاهل، وما بعث الله نبياً الاعاقلاً، حتى يكون عقله افضل من جميع جهد المجتهدين، وما ادى العبد فريضة من فرائض الله حتى عقل عنه)[٢٧].

فالعقل عند الإمام عليه السلام آلة للتمييز والتدقيق في أمور الحياة، وبه ينظر الى مبادئ الامور ولوازمها وعواقبها، وإرادة للخير، صارفة عن الشر، وبهذا العقل يميز الإنسان خيراته وشروره، والحق والباطل، والحسن والقبح والعلم والجهل، والطاعة والمعصية، فالعقل نور يضيئ الطريق للفضائل والمحاسن .

الخاتمة

يمكن استخلاص النتائج الاتية من البحث :

١- تفرد الإمام الكاظم عليه السلام بمقتضيات العقل وما يتعلق بمفهومه من جوانب متعددة، كالكشف عن غاياته ومعالجة انحرافاته، وصغ كمالاته وبلورة مقاصده .

٢- التعريف بالعقل وبيان أهميته، وبيان صفاته، وفضائله وتحديد دلائل العقل وحجيته .

٣- بيان علاقة العقل بالعلم، وكونه يسلك بالإنسان طريقاً الى معرفة الله تعالى.

٤- مدح العقلاء وذكر صفاتهم ومحاسن اعمالهم وعاقبة سلوكهم وقربهم من الله سبحانه وتعالى .

٥- تقرير صفات العقل وصفات الجهل

٦- كيفية بناء الإنسان ذاتاً وسلوكاً، وانعكاس ذلك على تصرفاته .

٧- ان الإمام يؤمن بالعقل السليم والفطرة النقية فيما لو اشتركا بمسار واحد يكون مؤداه الى توحيد خالص من الشوائب، فقد ربط بين العقل ومعرفة الله تعالى وبين ما يقرره العقل بعد التأمل في ملكوت الله جل جلاله وبين توحيده الناتج من لزوم وجود مدبر لهذا الملكوت في الخلق والابداع.

٨- ان الفكر الذي يعبر عن المستوى الناضج في الرؤية والمنهج والإنجاز حري ان يظهر بمعطياته الاصلية الى الناس لان هذا الفكر لا يوجد إلا عند أهل البيت عليهم السلام بوصفهم منهل هذا الفكر الضخم الذي يتخذ من العقل السوي والفطرة النبيلة حكمة عالية مفادها توحيد الله تعالى، فلا يوجد من يساوم أهل البيت عليهم السلام في نتاجهم الفكري لانهم مبتكرو هذا المنهج الواضح.

المصادر

القران الكريم

١- بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الاطهار، محمد باقر المجلسي، منشورات مؤسسة الوفاء، ط٢، بيروت - لبنان، د.ت .

٢- تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق : احمد عبد الغفور، منشورات دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٤٠٧ هـ .

٣- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د. ت .

٤- غرر الحكم ودور الكلم، عبد الواحد الامدي، جامعة طهران، ط١، ايران، ١٣٦٠هـ .

٥- الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، د علاء الدين السيد أمير القزويني، مكتبة الفقيه، ط٢، الكويت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

٦- الكافي، ابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق : علي أكبر غفاري، المطبعة الحيدرية، ايران، ١٣٨٨هـ .

٧- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق : مهدي المخزومي، وابراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٨٨ م .

٨- المدرسة الإسلامية، محمد باقر الصدر، دار الزهراء للطباعة والنشر، ط٣، بيروت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠ م .

٩- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة، ١٩٨١م .

الهوامش

١- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٤ / ٦٩، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة، ١٩٨١م .

٢- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق : مهدي المخزومي، وابراهيم السامرائي، ج٦ /١٢٠، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨م .

٣- ينظر : تاج اللغة وصحاح العربية ، اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق، احمد عبد الغفور، مادة عقل، منشورات دار العلم للملايين ،ط٤، بيروت ١٤٠٧هـ .

٤- المدرسة الإسلامية، محمد باقر الحكيم، ١٢٦- ١٢٧، دار الزهراء للطباعة والنشر، ط٣، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م .

٥- غرر الحكم ودور الكلم، عبد الواحد الامدي، ٢٢٧، جامعة طهران، ط١، ايران، ١٣٦٠ هـ .

٦- بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الاطهار، محمد باقر المجلسي، ج١ / ٨٨، منشورات مؤسسة الوفاء، ط٢، بيروت – لبنان، د.ت .

٧- نفسه، ج١، ١٧٩ .

٨- الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، د. علاء الدين السيد امير القزويني، ١٥٤، مكتبة الفقيه، ط٢، الكويت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

٩- الكافي، أبو جعفر محد بن يعقوب الكليني، تحقيق، علي اكبر غفاري، ج٢، ٥٢٢، ٥٢٦، المطبعة الحيدرية، ايران، ١٣٨٨ هـ .

١٠- بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الاطهار، ج١ /١٨٣.

١١ - نفسه، ج١/ ١٧٩ .

١٢- الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، ١٥٧ .

١٣ - تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ٣٨٣- ٣٩١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د . ت .

١٤ - تحف العقول، ٣٨٣ – ٣٩١

١٥- نفسه، ٣٨٣ ،٣٩١،

١٦- تحف العقول، ٣٨٣ – ٣٩١.

١٧- نفسه، ٣٨٣ – ٣٩١ .

١٨- تحف العقول، ٣٨٦ .

١٩ - نفسه، ٣٨٣- ٣٩١.

٢٠- نفسه، ٣٨٣ -٣٩١ .

٢١- تحف العقول ، ٣٨٣- ٣٩١ .

٢٢- نفسه، ٣٨٣ – ٣٩١.

٢٣- نفسه، ٣٨٣- ٣٩١ .

٢٤- نفسه، ٣٨٣ – ٣٩١ .

٢٥- نفسه، ٣٨٣ – ٣٩١ .

٢٦- نفسه، ٣٨٣- ٣٩١.

٢٧- ٣٨٣- ٣٩١ .

الشعراء
في القرآن الكريم

د. كاظم جاسم منصور العزاوي

الإسلام دين السلام

ذكر الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، أن الذين يتبعون الشعراء هم «أهل الغي لا أهل الرشاد والهدى»[١]. وقد بيّن أن أهل التأويل قد اختلفوا في الذين وصفوا بالغي في هذه الآية «فقال بعضهم: رواة الشعر، وعن ابن عباس: هم الرواة، وعن مجاهد وقتادة: هم الشياطين، وعن عكرمة: هم عصاة الجن، وقال آخرون: هم السفهاء»[٢]. وعن سبب نزول الآية الكريمة قال ابن عباس: «كان رجلان على عهد رسول اللهﷺ: أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وأنهما تهاجيا، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء»[٣]. وعنه أيضاً قال: «هم الكفار يتبعهم ضلاّل الجن والإنس»[٤]. وهذا الوصف (الغواية) يجري مجرى التعميم ويشمل كل من غوى وابتعد عن الهدى لذلك يقول الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال فيما قال الله جل ثناؤه: إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس، ومردة الشياطين، وعصاة الجن، وذلك أن الله عم بقوله ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ

﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فلم تخصص بعض الغواة دون بعض، فلذلك عم جميع أصناف الغواة التي دخلت في عموم الآية»[٥].

أما الزمخشري فقد حاول أن يخصّص الغاوين بعد أن بين حال الشعراء بقوله: «إنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم، وماهم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون والسفهاء والشطّار. وقيل الغاوون: الراوون، وقيل الشياطين، وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي ومن ثقيف أمية بن أبي الصلت، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم»[٦].

وعلى وفق ذلك يكون الشعراء هم الغاوين فيتبعهم أمثالهم، ولا سيما «القدامى منهم، فإنهم كانوا يعيشون في الأحلام والأوهام {...} وقديماً قيل: (أحلام الشاعر) وقيل (أعذبه أكذبه) أي الشعر، ولا يتبع هؤلاء الشعراء إلا من كان من شاكلتهم»[٧].

ومن هنا فإن الشعراء يتبعون (المزاج والهوى)، وهم المشركون الضالون الحائدون عن الحق، ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى، الذين لا منهج لهم ولا هدف، على حين نجد أن المقصود بالشعراء عند علي بن ابراهيم القمي ــ من مفسري القرن الرابع الهجري ــ شيئاً مختلفاً تماماً. فهو يرى أن الآية الكريمة «نزلت في الذين غيروا دين الله بآرائهم وخالفوا أمر الله»[٨]. دالّاً على ذلك بقوله: «هل رأيتم شاعراً قط تبعه أحد، إنما عنى بذلك الذين وضعوا دنيا بآرائهم فيتبعهم الناس على ذلك»[٩]، مؤكداً رأيه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، «يعني يناظرون بالأباطيل ويجادلون بالحجج المضلة وفي كل مذهب يذهبون {...} يعظون الناس ولا يتعظون وينهون عن المنكر ولا ينتهون ويأمرون بالمعروف ولا يعملون»[١٠].

وقد أكد العياشي ذلك بالإسناد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «هم قوم تعلموا وتفقهوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»[11].

ويذهب الطوسي إلى أبعد من ذلك، فيذكر أن «المراد بالشعراء (القصّاص) الذين يكذبون في قصصهم ويقولون ما يخطر ببالهم»[12]. ومما يؤكد ذلك ما جاء في الاعتقادات للشيخ المفيد الصدوق (ت٣٨١هـ). من أن الإمام الصادق سئل عن قول الله ــ عز وجل ــ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فقال: هم القصّاص[13]. ولما ذكر القصّاصون عنده قال: «لعنهم الله. إنهم يشنّعون علينا»[14].

وتأسيساً على ذلك فأن الآية الكريمة لا تعني بـ(الشعراء)، الشعراء المعروفين بنظم الشعر فحسب، وإنما تدل على ما هو أوسع من ذلك وأشمل من هذا المعنى، فتعني فيما تعني، الناس الذين حاولوا أن يغيروا دين الله بآرائهم وأفكارهم، وتعني من تفقه بغير علم فضلّ

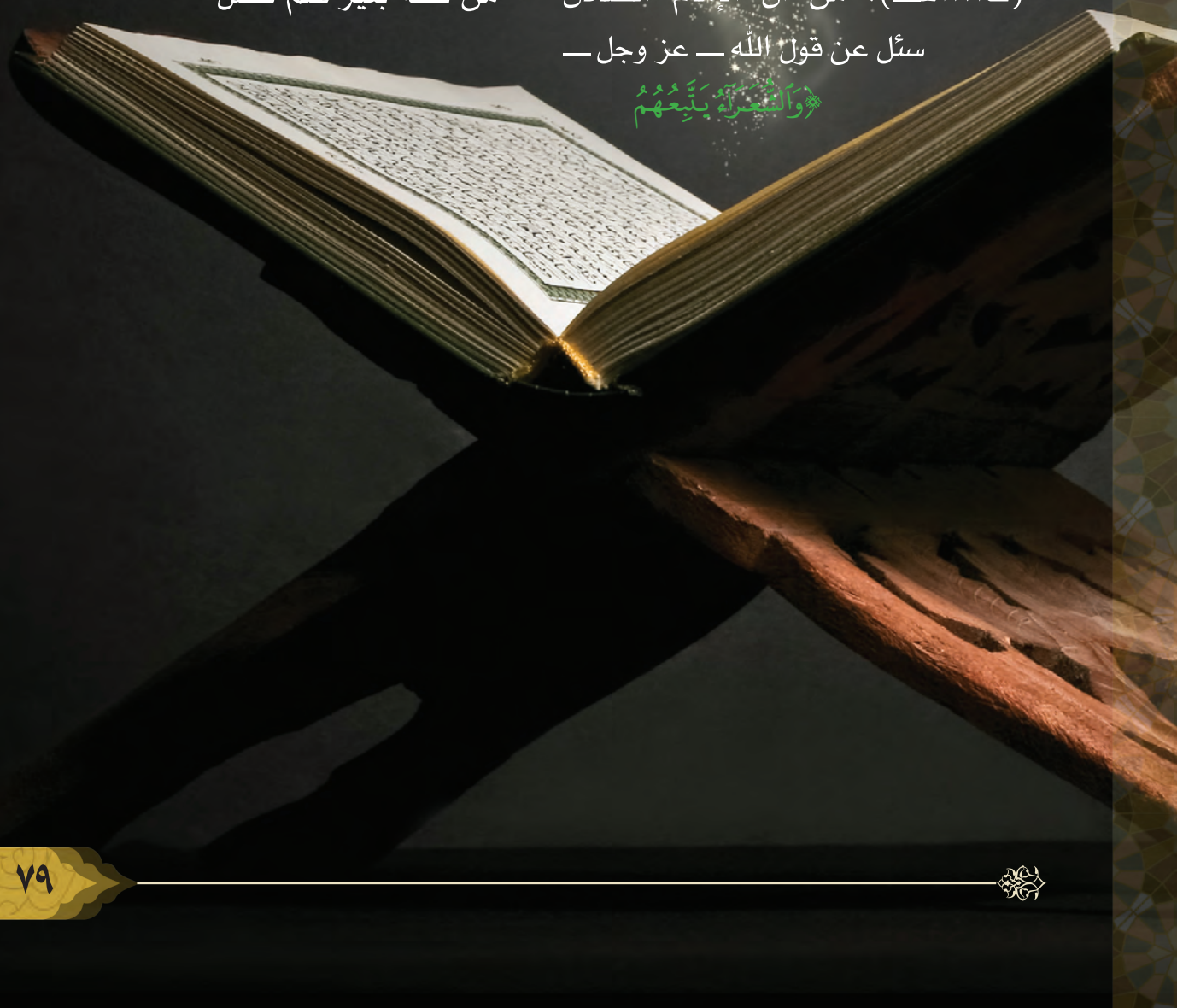

وأضل، وتعني القصاص الذين يستميلون قلوب الناس وأفكارهم بقصصهم ورواياتهم المضلة فيغيرون دين الله فيتّبعهم الغاوون الضالون من الناس.

وتعني الذين يشنّعون على آل البيت أمرهم تشنيعاً، قال الأزهري: شنّع على فلان أمره تشنيعاً[١٥].

وبهذا المعنى تكون الآية قد جمعت بين الشعراء ــ الذين يقولون الباطل ويهيمون في أودية الضلال الفكرية ــ والقصّاص الذين حاولوا أن يغيروا دين الله بآرائهم وشنّعوا على آل البيت أمرهم. فهولاء جميعاً هم المعنيون بالغواية دون سواهم.

ولو سلّمنا بأن موضوع الذم في الآية هم الشعراء المعنيون بنظم الشعر، فيمكن توجيه الآية الكريمة بعد قراءتها قراءة جديدة تستعين بالقرائن اللفظية من دون التوقف على القرائن الحالية ومنها أسباب النزول. وهذا الأمر يدعونا إلى الرجوع

إلى المدلول اللغوي لجذر كلمة (شعر) في المعاجم القديمة كـــ(لسان العرب). إذ إن الرجوع بكلمة ما إلى معناها اللغوي في المعاجم القديمة يعني في حقيقة الأمر الرجوع بها إلى مجالها التداولي الأصلي. وهذا يعني «أن الكلمة التي يرجع بها إلى معناها اللغوي إنما يطلب مدلولها كما كان يتحدد داخل المنظومة اللغوية التي تنتمي إليها، وبالتالي فهي لا بد أن تحمل في معناها اللغوي قليلاً أو كثيراً من خصائص رؤية أهلها للعالم {...} وطريقة تفكيرهم في ظواهره وحوادثه»[١٦]. فشَعَرَ يَشعُر شعرا: بمعنى يعلم، وليت شعري أي ليت علمي أو ليتني علمت، وسمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر مالا يشعره غيره، أي يعلم. وشعرت به واستشعرت به إذا أحسست به[١٧]. فكل كلام يعبر عن الشعور والأحاسيس النفسية أو يكون سبباً لإثارتها هو شعر، سواء أكان منظوماً أو منثوراً[١٨].

وقديماً قال حسان بن ثابت وهو شاعر الجاهلية قبل مجيء الإسلام وشاعر الرسول بعد مجيء الإسلام لابنه: «قال ابني الشعر وربّ الكعبة»[١٩]، حين سمعه يصف زنبوراً لسعه بقوله: «كأنه ملتف في بردي حبرة»[٢٠]. وقوله هذا يعني أنه «عدّ شعراً ما ليس موزوناً ولا مقفى وما لا يتميّز إلا بالتشبيه»[٢١]. وهذا الموقف ألا يدل على أن العرب قديماً كانوا يطلقون الشعر على النثر المشتمل على الخيال المؤثر في الوجدان كما يطلقونه على الموزون المقفى؟ ويقال نظمت الشعر: أي أخذت الكلام المعبر عن الأحاسيس والشعور فجعلته منظوماً، أي موزوناً ومقفى. فأصبح الكلام متصفاً بكلا الأمرين، الوزن والأحاسيس معاً.

ومن هنا يمكن القول بأن ما بين مفهوم النظم ومفهوم الشعر نسبة العموم، من حيث أن الكلام يمكن تقسيمه إلى أربعة أقسام[٢٢]: الشعر المنظوم وهو ما كان مشتملاً على الوزن ومعبراً عن الأحاسيس والشعور النفسي. والنظم وهو ما كان مشتملاً على الوزن دون الأحاسيس والشعور وهو الذي يعبر عن الجهات العلمية، والشعر المنثور وهو ما كان معبراً عن الأحاسيس والشعور النفسي وفاقداً للوزن. والكلام العادي وهو ما كان فاقداً لكلا الأمرين سواء أكان بليغاً أم اعتيادياً. وإذا كان الشعر بهذا المعنى، ما يرجع إلى العواطف النفسية والخلجات القلبية

(الشعور والإحساس) سواء أكان منظوماً أم منثوراً[٢٣]، ولا ربط له ــ ربطاً حقيقاً ــ بالنظم، فإن مضمون الآية يختص بمن يكثر شعوره النفسي لا بمن يكثر نظمه للشعر. وإن النظم بما هو نظم ليس موضوع الآية، بل الشعور النفسي منظوماً أو منثوراً. وهذا معنى غير معنى الشعر المتعارف. وإن المذموم من هذه الأحاسيس النفسية والخلجات القلبية ما هو باطل لا ما هو حق، بدليل قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ . وبما أن الغواية ضد الهداية[٢٤]، فإن الغاوين يتبعون ما هو باطل والمهديين يتبعون ما هو حق، وليس العكس.

ولرب معترض يقول: إن الله سبحانه تعالى ــ عطف قوله: (وَالشُّعَرَاءُ) على قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.[٢٥]

فقد ألحقت الآية فعل الشر بالشياطين ونسبته إلى الإفك والإثم والكذب.

وجواب ذلك: عدم ارتباط هذه الآية السابقة على آية الشعراء بالشعراء أنفسهم، بل هو حديث مستقل عن الشياطين وأتباعهم. ثم يبدأ حديث مستقل جديد عن الشعراء وأتباعهم من الغاوين ولا ربط لصدر الآية بذيلها و (الواو) هنا: استئنافية وليست حرف عطف، وبذلك فلا علاقة بين ما يسبقها وما لحقها[٢٦].

ثم أن الشعر سواء بمعنى النظم أو العاطفة، فيه ما هو حق وما هو باطل، ومن البديهي أن الشياطين لا تتنزل على ما هو حق ، وإنما تتنزل على ما هو باطل . والحق ليس فيه إثم ولا إفك ولا كذب ، إنما يكون ذلك في الباطل[٢٧].

أما طبيعة هؤلاء الشعراء وطبيعة غوايتهم التي بينها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فسيقف الباحث عندها متابعاً أقوال المفسرين وآراءهم فيها.

لقد قال ابن عباس في معنى ﴿فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾: في كل لغو يخوضون، وقال مجاهد: في كل فنّ يفتنون، وقال قتادة: يمدحون قوماً بباطل ويشيحون قوماً بباطل[٢٨]. وقال ابن عباس في معنى ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾: أكثر قولهم يكذبون، وعنى بذلك شعراء المشركين[٢٩].

ويرى الطبري أن الشعراء «في كل وادٍ

يذهبون كالهائم على وجهه على غير قصد بل جائراً على الحق وطريق الرشاد وقصد السبيل، وإنما هذا مثل ضربه الله لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حق، فيمدحون بالباطل، ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور»[٣٠]. وهذه هي إذن طبيعة الشعراء المعنيين في الآية وطبيعة غوايتهم كما يراها الطبري وأهل التأويل من قبله .

أما الطوسي فيذكر قول الجبائي في طبيعة الشعراء وطبيعة غوايتهم فهم «يصغون إلى ما يلقيه الشيطان إليهم على جهة الوسوسة لما يدعوهم إليه من الكفر والضلال»[٣١].

وقد بين الطوسي سبب وصف الشعراء بالغي بقوله: «وإنما صار الأغلب على الشعراء الغي باتّباع الهوى، لأن الذي يتلو الشعر ــ في الأكثر ــ العشاق ولذلك يقبح التشبيب، مع إن الشاعر يمدح للصلة ويهجو على جهة الحمية فيدعوه ذلك إلى الكذب {...} والآية تتناول كل شاعر يكذب في شعره»[٣٢].

وقد شاطر الزمخشري الطوسي الرأي مبيناً معنى الوادي والهيوم بقوله: «ذكرُ الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حد القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم، وأن يبهّتوا البريء ويفسّقوا التقي»[٣٣].

ومن هنا فإن الغواية تتجلى في أدق صورها في الكذب والمغالاة والحياد عن الحق، لأن الشعراء الموصوفين بهذا الوصف يتبعون عواطفهم التي هي في اضطراب وعدم استقرار، فتضطرب مواقفهم وتتبدل تبعاً لذلك .

وفي ضوء ما تقدم من آراء المفسرين، يبدو أنهم مجمعون على أن طبيعة الشعراء المعنيين في الآية الكريمة وطبيعة غوايتهم تتمثل في الخوض في فنون القول والحياد عن الحق واتباع الباطل، جرياً وراء أهوائهم ومشاعرهم وانفعالاتهم. إلا أن علياً بن ابراهيم القمي يرى أن الغواية التي عنتها الآية المباركة تعني أمراً آخر مختلفاً عما ذكره المفسرون الذين سبقت الإشارة إلى أقوالهم وآرائهم. فهو يرى أن الغواية تعني المناظرة بالباطل والجدال بالحجج المضلة «يعني يناظرون بالباطل ويجادلون بالحجج

المضلة وفي كل مذهب يذهبون، يعظون الناس ولا يتعظون، وينهون عن المنكر ولا ينتهون، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون»[٣٣].

وفي ضوء هذا المعنى، فإن الغواية لا تختص بالشعراء المعروفين بنظم الكلام الشعري الموزون، لأن المناظرة والجدال والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يختص به الخطباء والمتكلمون وليس الشعراء. وهؤلاء إنما يناظرون ويحاولون لأجل مبدأ أو فكرة، وهم ربما يفعلون ذلك بالباطل أو نصرة للباطل. وهذا الفهم يقود إلى أن الآية الكريمة تعني بالشعراء معنى أشمل وأوسع من المعنى المتعارف عليه، وهذا المعنى يدعم ما ذهب إليه القمي والطوسي من أن الشعراء هم القصّاص ــ على تأويل الإمام الصادق عليه السلام ــ الذين غيروا دين الله بآرائهم وخالفوا أمره، والذين تفقهوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا، وكما اشرنا إلى ذلك في أثناء البحث.

وتأسيساً على ذلك فلا مجال للشبهة بالشعراء ولا مجال لذمهم والقدح بهم، إنما الشبه والذم والقدح بهؤلاء الذين غيروا دين الله وخالفوا أمره. وهؤلاء هم المعنيون بالغواية وطبيعتها.

وإجمالاً تبرز طبيعة هؤلاء الشعراء - الغاوين - وطبيعة غوايتهم عند فريق من المفسرين. على أنهم يخوضون بالباطل ويزيغون عن الحق، وهم في حل من أي التزام ديني وأخلاقي، وأن النعوت والأوصاف شملت كل الشعراء الغاوين في كل زمان ومكان . وقد كشف بعض المفسرين ــ وكما أشرنا ــ عن هوية الشعراء الغاوين الذين خصتهم الآية وسمّوهم بأسمائهم، ورأوا أن الآية نزلت بحقهم. بينما تكون طبيعة الشعراء الغاوين المعنيين في الآية الكريمة وطبيعة غوايتهم عند علي بن إبراهيم القمّي والعياشي والطوسي، طبيعة أخرى لا علاقة لها بمن ينظم الشعر وإنما علاقتها بمن غير دين الله بآرائه وخالف أمره من القصّاص والرواة والخطباء والمتكلمين. وقد صدر هؤلاء المفسرون في رأيهم هذا عن الإمام الصادق عليه السلام. ومن المسلم به أن ما يؤخذ من آل البيت يكون حجة معتمدة لأنهم أقرب إلى دين الله من غيرهم بوصفهم الامتداد الطبيعي لرسول الله، وهم أهل بيت الوحي[٣٤]. وقد قال رسول الله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٣٥]، وعندما يكون الإمام علي باب مدينة رسول الله،

فإن أبناءه يرثون علم تلك المدينة ولا يصدرون إلا عن علم النبي. وقد روي أن الإمام الباقر قال : «إن علياً كان عالماً والعلم يتوارث»[٣٦].

وردت في الآية الكريمة طائفة مستثناة من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ . وللكشف عن هوية هذه الطائفة سيتابع البحث آراء وأقوال المفسرين.

ذكر الطبري أن هذا الاستثناء نزل في شعراء الرسول، حسان بن ثابت وكعب بن مالك ثم هو لكل من كان بهذه الصفة التي وصفه الله بها[٣٧]. وقيل: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى الرسول يبكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية إنا شعراء، فتلا النبي قول الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣٨]. وعن ابن عباس قال: ثم استثنى المؤمنين منهم ــ يعني الشعراء ــ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣٩].

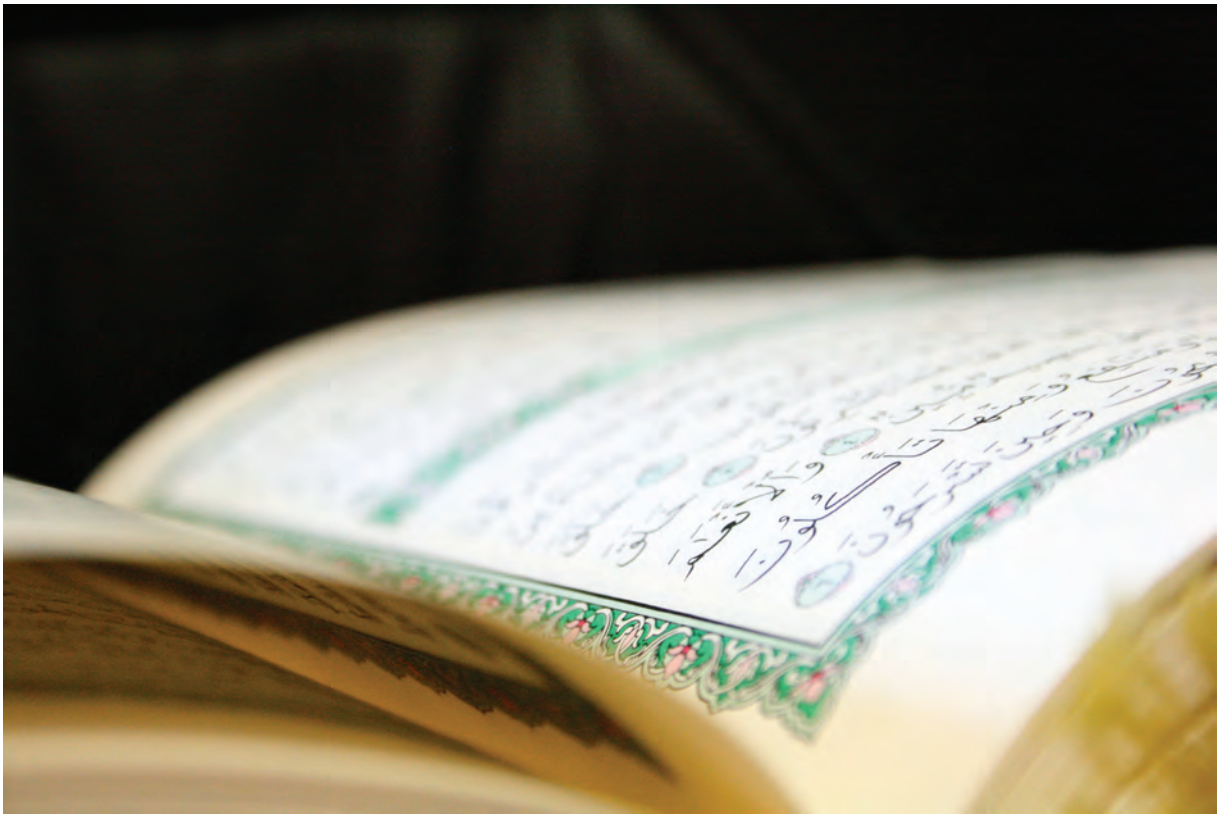

أما عن حال الذكر الذي وصف الله به هؤلاء الشعراء المستثنين فقال بعض أهل التأويل: هي حال منطقهم ومحاورتهم الناس، وعن ابن عباس، أن المقصود بذلك في كلامهم، وذهب آخرون إلى أن المقصود به في شعرهم[٤٠]. بينما يرى الطبري أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: «إن الله وصف هؤلاء الذين استثناهم من شعراء المؤمنين، بذكر الله كثيراً، ولم يخص ذكرهم الله على حال دون حال في كتابه ولا على لسان رسوله، فصفتهم أنهم يذكرون الله كثيراً في كل أحوالهم»[٤١].

ومن صفات هؤلاء المستثنين قوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ فيقول الطبري: «وانتصروا ممن هجاهم من المشركين ظلماً بشعرهم وهجائهم إياهم وإجابتهم عما هجوهم به»[٤٢]. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال: «يردّون عن الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين»[٤٣]. وعن مجاهد قال: «عبد الله وأصحابه»[٤٤]، وبمثله قال الطوسي[٤٥] أيضاً.

بينما وضّح الزمخشري طبيعة هذه الطائفة المستثناة، فذكر أن الله عز وجل قد «استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعرا قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ومدح الرسول ﷺ والصحابة والأئمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يلتبسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[٤٦]، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[٤٧]»[٤٨].

بينما يرى القشيري أن الشعراء المستثنين هم ممن «يكون شعره خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة ، وهذا كما قيل : الشعر كلام إنسان فحسنه كحسنه وقبيحة كقبيحة»[٤٩]. وأما القمّي فيرى أن الشعراء المستثنين «هم آل محمد عليهم السلام وشيعتهم المهتدين[٥٠].

ويبدو أن المعيار الذي تم بموجبه الاستثناء في الآية الكريمة هو (الحق) فالإيمان وصالحات الأعمال تردع الإنسان

عن ترك الحق واتباع الباطل، ثم أن الذكر الكثير لله سبحانه وتعالى يجعل الإنسان مقبلاً إلى الحق مدبراً عن الباطل. وفي ضوء هذا يظهر وجه تقييد الاستثناء بالإيمان وعمل الصالحات وذكر الله والانتصار والانتقام من المشركين الذين هجوا النبي بقصائدهم أو طعنوا فيها بالدين وقدحوا في الإسلام والمسلمين[٥١].

إن الله سبحانه وتعالى وصف الشعراء بالوصف العام في قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، هذا الوصف الذي في ظاهره يشمل كل الشعراء وفي كل زمان ومكان. أما الاستثناء الذي ورد في الآية من قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، فهذا يعني أن هؤلاء الشعراء المستثنين ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام «فهؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة الإيمان، واستقامت حياتهم على منهج، وعملوا الصالحات، فاتجهت طاقاتهم إلى عمل الخير الجميل، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام، وانتصروا من بعد ما ظلموا، فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقاتهم ليصلوا إلى نصرة الحق الذي اعتنقوه»[٥٢]. والشعراء الذين يعبرون عن أماني المستضعفين ويقفون مع المظلومين ويناصرون العدالة ويثورون على الطغاة والعتاة وعلى الجهل والتخلف يقفون في طليعة المجاهدين في سبيل الله. وقد قيل لرسول الله: «ما تقول في الشعر ؟ فقال: إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضخونهم بالنبل»[٥٣]. وقال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٥٤].

وممّا لا شك فيه أن الشعر أعلى فنون البيان أو أبلغها تأثيراً في النفوس وأنه ثروة اللغة وكنزها الثمين، ولذا «استثنى سبحانه الشعراء الطيبين المجاهدين {...} أي انتصر الشعراء للحق وأهله ممن اعتدى عليهم ونافحوا عن الإنسان وحريته وكرامته {...} وهذا نص صريح من الله سبحانه وتعالى على أن شعر الثورة ضد الظلم والطغيان هو من صميم الدين والأيمان وصالح الأعمال»[٥٥].

ولعل ما ذهب إليه محمد جواد مغنية يأتي سندا لما قال به علي بن إبراهيم القمّي من أن الشعراء المعنيين بالاستثناء هم آل محمد وشيعتهم الذي جاهدوا وانتصروا للحق ممن تفقه بغير علم فضل

وأضل وغيّر دين الله بآرائه وشنّع على أمر آل محمد.

وإجمالاً يمكن القول بأن المفسرين رأوا أن الشعراء الذين شملتهم الآية الكريمة بالاستثناء هم خارجون عن الوصف العام للشعراء الذي يوحي بالذم، وهم ممن اتصف بالإيمان وعمل الصالحات وذكر الله الكثير والانتصار للحق. وهذه الصفات تمثل في حقيقتها الحق بكل أشكاله وألوانه. وعليه فمن اتبع سبيل الحق من الشعراء فهو معني بهذا الاستثناء في كل زمان ومكان.

ولرب معترض يقول: إن السياق في الآية الكريمة يشعر بأن الممدوحين غير الشعراء الذين سبق ذكرهم والذين يتصفون بالغواية، وعلى وفق هذا الفهم فإن الشعراء ليسوا من الممدوحين وإنما يكون منهم من أعرض عن صفته تلك وتاب عنها وعمل الصالحات وذكر الله كثيراً.

وجواب ذلك أنه تبين من خلال البحث أن لكلمة الشعراء شمولاً وإطلاقاً لجانبي الحق والباطل فيكون الاستثناء بمنزلة القرينة المقيدة لذلك الإطلاق. إذ إن السياق يكشف لنا عن أشياء كثيرة منها: أن الشعر لا حدود لميادينه، يطرق أودية الشر والخير ويجري في كل فن، وأن الخيال عند الشعراء سائب لا يقف عند حد معين. وأن الشعر يفسد الأخلاق في بعض الأحيان ويقود الغاوين، وأن الشعراء قوم غير (عمليين) يقولون ما لا يفعلون[٥٦]. وهو ما يدعم الفكرة التي تقول: إن الذم مختص بالباطل ولا يمكن أن يكون شاملاً للحق. ومن ثم لا بد من الالتفات إلى أن الآية الكريمة لم تقل إن الشعراء إنما يكونون مؤمنين ذاكرين الله كثيراً إذا أعرضوا عن الشعر ولم يكونوا شعراء. بل يمكن أن يكونوا ــ في الشعر ــ مع الإيمان وذكر الله وعمل الصالحات، بل هو (أي الشعر) يكون ذاكراً لله ومن عمل الصالحات، ولا يمكن أن يكون مذموماً سواء فهم الشعر على أنه من النظم أو العاطفة[٥٧]. لذا لم يطرد القرآن الشعراء جميعاً من دولته المثلى ــ وإنما استثنى منهم هؤلاء الشعراء الذين وصفهم بهذه الأوصاف التي تخرجهم من الغواية، وينأى بهم عن أودية الشر والظلالة، ويدخلهم في أودية الخير والهداية، ويخلق تماثلاً بين ما يقولون وما يفعلون. مما يفضي إلى حلول (الأخلاقي) في الشاعر فيفوق (الأخلاقي) في غير الشاعر في أداء

الرسالة لبلوغ غاياتها المثلى[٥٨].

وخلاصة القول: وفي ضوء ما تقدم، فإن الآية الكريمة تصح أن تكون تشريعاً عاماً ومقياساً من مقاييس مضمونية ولغوية في بنية دعوة الالتزام بالشعر[٥٩]. وأن القرآن الكريم قد رسّخ أساسين متلازمين للتمييز بين الشعراء الصالحين والطاغين، وفرز الخطوط الدقيقة لأسلوب الشعر الذي ينبغي للشعراء أن يحيدوا عنه ويجعلوه دبراً، وحدد المضمون الفكري الذي لابد للشعراء من الصدور عنه. وهذان الأساسان يتمثلان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فاتباع مختلف السبل في القول من غير الاحتفال بأدنى قيد أو شرط وإلى درجة إظهار الباطل في صورة الحق ، أمر يبتعد عن القانون العام الذي سنه القرآن للحياة، ويكون على طرفي نقيض من الآداب العامة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ﴾ أية في تشخيص حال هؤلاء الشعراء المذمومين الذين يطلقون الكلام على عواهنه، فتأتي دعاوى أقوالهم مخالفة لحقيقة أفعالهم.

إن المقاييس التي وطدها القرآن الكريم قواعد للقول الشعري هي[٦٠]: (الإيمان) والفعل (آمنوا) بسعته وخلوه من القرائن ينبسط عاماً شاملاً لا يقتصر على الإيمان بمفهوم دون آخر ولا ينحصر في الاستسلام لفكرة بعينها . ذلك أن الإيمان هو ضرب من الاعتقاد الصميم الذي يختص بالقلوب، كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٦١] ومن هنا، فإن الشعراء الذين آمنوا إيماناً مطلقاً وتشربت قلوبهم به، على أنه(أي الشعر) أولى ملكات فن القول، ينساب قولهم الصادق متسللاً إلى قلوب المتلقين[٦٢]، ومن ثم، فإن هذا الشعر الذي يصور ثمرة الإيمان يكون مكسوا بثوب جميل هو ما يدعو إليه القرآن ويستثني قائله من قائمة المذمومين.

ثم يأتي (عمل الصالحات) مقياساً آخر للشعراء المستثنين من الذم في القرآن الكريم» ويتعين أن أعمال المؤمنين الصالحات تفيض بين يدي القرآن الكريم بما لا مجال للإحاطة به، تجارب نضالية ومواقف إنسانية، قولاً وفعلاً وكفاءة ونزاهة والتزاماً، لأنهم شعراء مؤمنون تشكل قصائدهم من منابع الحق صوتاً للإيمان النظري والموقف العملي»[٦٣].

و(ذكر الله) يأتي مقياساً ثالثاً لهؤلاء الشعراء المستثنين. وأما رابع هذه المقاييس فـ(الانتصار من بعد الظلم) وهو الانتصار للدين وللرسول ولآل بيته وللمسلمين، وهذا يشكل بمجمله الانتصار للحق بعد أن ظُلم الدين والرسول وآل بيته والمسلمون .

وهذه المقاييس الأربعة بمؤشراتها تشكل هوية الشعراء الممدوحين الخارجين عن المذمومين لتستوي بين يدي القرآن معالم ينبغي أن يسير في هديها الشعر والشعراء، خدمة للإسلام والمسلمين والمجتمع الإنساني بأسره في جميع قضاياه ومشاكله ومعالجتها.

وخلاصة القول، فإن القرآن الكريم، سواء عنى بآية الشعراء، الشعراء المشركين الغاوين أم القصاص الذين غيروا دين الله بآرائهم وخالفوا أمره. وتفقهوا بغير علم فضلوا وأضلوا، والشعراء المؤمنين، فإنها جاءت لتقرر منهجاً يرتسمه الشعراء في كل زمان ومكان. إذ إنه وضع مقاييس بيّن بموجبها الغواية وطبيعتها من جهة، والهداية وطبيعتها، من جهة أخرى، وبموجب هذه المقاييس يقوّم الشعر والشعراء. ثم أنه ـــ أي القرآن ـــ بيّن طبيعة الشعر ، من أنه علم وأن مصدره بشري لا صله له بالسماء.

وهذا هو شأن القرآن . فهو وإن كان يعالج مسألة ما عرضت للمجتمع المكي أو المدني آنذاك، لا يهمل مكاناً غير مكة أو المدينة، ولا يقتصر النظر عن زمان حدوث تلك المسألة أو زمان نزوله فيها .

ومما يدعم هذا ويشفع له ما رواه العياشي بإسناده عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٦٤] : «إن القرآن حي لا يموت، والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ثم ماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين»[٦٥]. ويؤكد هذا صاحب تفسير الفرات بقوله: «ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره مادامت السماوات والأرض»[٦٦].

وبحسب ذلك كان لا بد لهذا القرآن ـــ صاحب تلك الشريعة المتكاملة الشاملة ـــ من أن يحدد موقفاً صريحاً من الشعر ويخلق منه أدباً يعتمد على أصول تلك الشريعة، فرسم ـــ القرآن ـــ منهجاً للشعر وحدد مساره وأطره بأطر الأخلاق والعفة والصدق والحق، ورفض القول الفاحش

وادعاء الكذب والدعوة للباطل. بمعنى أنه أرادوا من الشعر أن يكون مثالياً يؤكد كل ما من شأنه المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الجديد، وطرح تلك العادات الجاهلية البغيضة التي من شأنها تمزيق المجتمع. وبعبارة أخرى فإنه يريد من الشعر أن يكون واقعياً مثالياً يبحث عن الحقيقة (الحق) ويؤكدها، وأن يبتعد عن كل ما هو خيالي غير واقعي ومغالى فيه ويدعو إلى الباطل وتزيينه في نفوس الناس.

وفي ضوء ما تقدم فإن القرآن لم يحرم الشعر ولم يقف موقفاً معادياً ومناوئاً له «وإنما وجهه وجهة أخرى: ربطه بالدين والقيم المنبثقة عنه، فجعله أداة لخدمته»[٦٧]، ومن ثم، فهو (أي الشعر) أداة لخدمة المجتمع الإسلامي شريطة أن يسير على وفق المنهج الذي رسمه القرآن .

الهوامش

(١) جامع البيان عن تفسير القرآن ، الطبري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط٢ ، مصر، ١٩٥٤ : ١٢٦/١٩ .
(٢) م .ن :١٩ / ١٢٧.
(٣) م. ن : ١٩/ ١٢٧.
(٤) م .ن : ١٢٧/١٩.
(٥) م. ن : ١٩ /١٢٧ – ١٢٨ .
(٦) الكشاف، الزمخشري، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ط٢ ، ١٣١٨هـ : ٣٥٣/٢ .
(٧) م .ن : ٥٢٤/٥.
(٨) تفسير القمي ، علي بن إبراهيم القمي ، تصحيح وتعليق ، السيد طيب الموسوي ، مطبعة النجف ، ١٣٧٨هـ : ١٢٥/٢.
(٩) م .ن : ٢/ ١٢٥.
(١٠) م .ن : ١٢٥.
(١١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، تح: السيد هاشم الرسول المحلاتي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت : ٢,٨/٧.
(١٢) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي ، تح : أحمد حبيب العاملي ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٢ : ٦٩/٨.
(١٣) الاعتقادات، الشيخ المفيد، تح: عصام عبد السيد، دار المفيد، ط٢، ١٤١٤هـ :١١٠.
(١٤) م. ن :١٠٩ .
(١٥) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت: مادة (شنع) .
(١٦) بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، بيروت، ٢٠٠٠: ١٥ .
(١٧) لسان العرب : مادة (شعر) .
(١٨) ينظر: ما وراء الفقه، محمد الصدر، مطبعة القضاء ، النجف الاشرف ،:١٢٢/١٠ .
(١٩) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تح: ريتر ، استانبول ، ١٩٥٤ : ١٥٧.
(٢٠) م .ن : ١٥٧.
(٢١) نظريات الشعر عند العرب، مصطفى الجوزو، دار الطليعة، ط١، بيروت ، ١٩٨١ : ١٦.
(٢٢) ينظر : ما وراء الفقه :١٠/ ١٢٣.
(٢٣) ينظر : م. ن : ١٢٧/١٠.
(٢٤) لسان العرب : مادة (غوى).
(٢٥) الشعراء : ٢٢١-٢٢٢.

(٢٦) ينظر : ما وراء الفقه :١٠/ ١٢٧.
(٢٧) ينظر : م. ن :١٠/ ١٢٩.
٢٨) ينظر : جامع البيان : ١٩ /١٢٨.
(٢٩) ينظر : م.ن :١٠/ ١٢٨.
(٣٠) ينظر : جامع البيان :١٩/ ١٢٨.
(٣١) التبيان في تفسير القرآن : ٦٩/٨.
(٣٢) م. ن : ٧٠/٨.
(٣٣) الكشاف : ٣٥٣/٢.
(٣٤) تفسير القمي : ٢ : ١٢٥.
(٣٥) جاء في أصول الكافي أن «الأئمة كونهم معصومين كالأنبياء إن لم يكن في جميع الأخطاء فعلى الأقل من الكبائر مثل الكذب . فهم أولياء والولاية في التصور الشيعي سلطة إلهية خص الله بها الأنبياء والأولياء سواء بسواء فالوالي بمنزلة النبي يبلغ عنه ويتحدث باسمه وتعد تعاليمه من تعاليم النبي أو هي نفسها». أصول الكافي، الكليني، طبعة طهران ، ١٢٢٨ هـ : ٦٥ .
(٣٦) التبيان في تفسير القرآن: ٢٠٧/٢ .
(٣٧) أصول الكافي : ٦٥.
(٣٨) ينظر : جامع البيان : ١٢٨/١٩.
(٣٩) ينظر : م.ن : ١٢٨/١٩.
(٤٠) ينظر : م.ن : ١٢٨/١٩.
(٤١) ينظر : م.ن : ١٩ /١٢٩.
(٤٢) م.ن : ١٩ /١٣٠.
(٤٣) م.ن : ١٣٠/١٩.
(٤٤) ينظر : م . ن : ١٣٠/١٩.
(٤٥) م.ن : ١٣٠/١٩.
(٤٦) م. ن: ١٩/ ١٣٠.
(٤٧) النساء : ١٤٧.
(٤٨) البقرة : ١٩٤.
(٤٩) ينظر التبيان في تفسير القرآن : ٨/ ٧١.
(٥٠) لطائف الإشارات، الإمام القشيري، تح، إبراهيم بيوني، دار الكتاب العربي، القاهرة الإشارات : ٥: ٢٢.
(٥١) تفسير القمي : ٢ : ١٥٢.
(٥٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧: ٣٣٢/١٥-٣٣٣.
(٥٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء الكتب العربية، ط١ : ١٩ /١٢١.
(٥٤) مسند أحمد بن حنبل ، دار صادرت بيروت : ١٣٨٧/١ . وينظر الكاشف : ٢٢٥/٥ .
(٥٥) الرحمن : ٣-٤.
(٥٦) الكاشف : ٢٢٥/٥.
(٥٧) ينظر: مواقف في الأدب والنقد، عبد الجبار المطلبي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠ : ١٣٨.
(٥٨) ينظر : ما وراء الفقه :١٢٧/١٠.
(٥٩) ينظر : مواقف في الأدب والنقد : ١٣٨-١٣٩.
(٦٠) ينظر : أثر القرآن في الصورة الفنية لدى شعراء صدر الإسلام ، الطيب بو شيبه ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٥ : ١٠٨.
(٦١) ينظر : م. ن : ١٠٨ ، وما بعدها.
(٦٢) الحجرات : ١٤.
(٦٣) ينظر : أثر القرآن في الصورة الفنية : ١٠٩.
(٦٤) م. ن : ١٠٩ .
(٦٥) الرعد : ٧.
(٦٦) تفسير العياشي ، أبو النضر محمد بن سعود بن عباس القمي السمرقندي المعروف بالعياشي، تح: السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، المكتبة العلمية الإسلامية ، طهران ، ٢٠٣/٢.
(٦٧) تفسير الفرات، أبو القاسم فرات بن ابراهيم بن فرات الكوفي، ط١، طهران، ١٩٩٠: ٢٠٦.
(٦٨) الثابت والمتحول : أدونيس، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤ : ١٤٦.

سبل تعزيز القيم الروحية

قراءة في النص القرآني

د.نضال حنش شبار الساعدي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين، وآله الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

لا يخفى على كل ذي علم في المجتمع الإسلامي اهتمام القرآن الكريم بالمنظومة القيمية في مواجهة العالم المادي، والذي فصل فيه تفصيلاً كثيراً، مما لا نجده في الأنظمة الأخرى؛ إذ إن للقرآن الكريم المنهج الروحي والتربوي في تهذيب النفس الإنسانية، وتغذيتها للعقل والقلب بالقيم الروحية النبيلة، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[1]، وهو الدين الذي يتحقق بمنهجه المجتمع الإسلامي المثالي، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.[2]

وهنا لا ينحصر تفكير الفرد في مصالحه ومنافعه الشخصية؛ وإنما الشعور بالمسؤولية إزاء سائر الأفراد أيضاً في الالتزام بالنظام القيمي، والسلوكي لهذا الدين المقدس، سواء أكان ذلك في مجال الأخلاق أم في مجال الحقوق، وهو كثيراً ما تحث عليه التربية وتسعى إلى غرس وإكساب الفرد مجموعة من القيم منها على سبيل المثال (القيم الإنسانية) حب الناس، والتعاطف، والرحمة، والشجاعة، والعلم والعمل، والتسامح والإيثار، والحكمة والتضحية والأمانة، وغيرها من القيم الروحية التي وردت في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾[3] تسعى من خلالها التربية الإسلامية إلى بلوغ الكمال الإنساني، والكمال لله تعالى؛ إلا أن الإنسان لابد له أن يتصف بالكمال الروحي بغية تحقيق التوازن في الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[4].

وهنا صار لِزاماً علينا أن نفصل القول في القيم الروحية وسبل تعزيزها في مواجهة العلم المادي، وبما أن منظومة القيم الروحية لا يمكن حصرها؛ لذا سنقتصر في ورقتنا هذه بـــ(سبل تعزيز القيم الروحية في مواجهة العالم المادي(قراءة في النص

القرآني) ويمكن تفصيل القول فيها بما يلي:-

أولاً: قيمة العلم:

العلم عالم له قدسيته ومكانته، كلمة من أحرف ثلاثة تحمل في طياتها كل ما فيه صلاح البشرية والمعمورة لذا فضل الله في كتابه العظيم أهل العلم ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٥]، فقد ربط الشارع الحكيم العلم بالإيمان لعظمته وشرفه، فهو فرض وواجب على كل مسلم ومسلمة،كما أُثر عن الرسولﷺ قوله: (طلب العلم فريضةً على كل مسلم ومسلمة) وهو يرفع شان الإنسان عند الخالق والمخلوق فيجعله في مقام رفيع تعزه بين الناس وترفع من قدره، فتجعله كما قال فيهﷺ: (تعلموا العلم، فإن تعلمه حسنةً، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وسالك بطالبه سبيل الجنة، ومؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ودليل على السراء، وسلاح على الأعداء، وزين الأخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمة يقتدي بهم، ترمق أعمالهم وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم؛ لأن العلم حياة القلوب، ونور الأبصار من العمى، وقوة الأبدان من الضعف، وينزل الله حامله منازل الأحياء، ويمنحه مجالسة الأبرار في الدنيا والآخرة)، وهو كما روي عن امير المؤمنين (لا كنز أنفع من العلم).

ثانياً: مفهوم التسامح في اللغة والاصطلاح والقرآن

التسامح في اللغة من: سَمح سماحةُ، وسمح ككرم؛ معناه صار من أهل السماحة[٦]، والمراد من المسامحة في الاصطلاح هي ترك بعض ما يجب عند الحاجة الى ذلك[٧] وهي المساهلة والسماحة التي تشتمل معنى الجود[٨].

وعرّفها السيد الطباطبائي بسماحة الوجه، وعدم صعره وميله عن العنف[٩] وجاء في حديث للنبيﷺ قال:(رحم الله عبداً سمحاً، إذا باع سمحاً، إذا اشترى سمحاً، إذا اقتضى)[١٠] وفي الحديث دعوة صريحة إلى التسامح، ونبذ العنف ودعوة للتحلي بالتواضع والمحبة والموآخاة اتجاه الآخرين، لأن المجتمعات تتسم بالتعددية الدينية والمذهبية، والقومية وهذا الإختلاف والتفاوت بين الناس أكد عليه القرآن الكريم

في أكثر من موضع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[12]

وفي رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: (إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تُحب أن يعطيك الله عفوه).[13]

ويتضح مما تقدم أن مفهوم التسامح ضد العنف، وعدم رد الإساءة بمثلها كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[14]، فالتسامح قيمة تربوية أهتم علماء المسلمين بدراستها في باب الأدب الأخلاق والفضائل بحيث لم تخلُ كتب التفسير عن آية أو حديث أو فقه من الإشارة اليه؛ بل كُتبت مؤلفات كثيرة منها: اللاعنف في الإسلام للسيد محمد الحسيني الشيرازي، والتسامح ومنافع اللاتسامح لماجد الغرباوي، والمدرسة الإسلامية للسيد محمد باقر الصدر (قدس سره) وغيرها.

والملاحظ من خلال دراستنا لمفهوم التسامح أننا لم نجد هذا المفهوم بهذا اللفظ في القرآن الكريم؛ بل في لفظ الصفح والعفو في أكثر من موضع نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى:

(١) ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.[15]

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[16]

(٣) ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.[17]

(٤) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.[18]

(٥) ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[19].

(٦) ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[20].

(٧) ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[21].

ثانياً: منظومة التعايش السلمي بين الأديان والثقافات

يتضح مما تقدم أن الإسلام دين رحمة وعفو، ومسامحة، ومؤاخاة، كما أنه دين

للتآلف، والوئام، والتعاون والسلام ودين طمأنينة وأمان، وهي من الأسس الثابتة التي يتعامل بها مع غيره من العقائد، والطوائف، ومختلف الأجناس، إذاً فهو دينٌ مسّير للحياة، ونظام كامل وشامل لإدارتها بأحسن وجه فهو كامل لسعادة البشر في الدنيا، و هو كامل لسعادته في الآخرة[٢٢].

فالإسلام منظومة اجتماعية أساسها العدل الإلهي، وقوامها إفشاء خُلق العفو والتسامح، ونبذ العنف المتطرف بين الناس بمختلف أجناسهم وطوائفهم والتواضع في التعامل مع الآخرين القائم على أساس التعايش السلمي، وقبول الآخر والتعامل معه بكل محبة وإخوة، وهذا لا يعني تنازلاً عن ثوابتنا الإسلامية، بل هو فلسفة راقية في التعامل مع الآخر، وصورة حية للمنظومة القرآنية وشموليتها الربانية في التعايش مع الآخر، والاحترام المتبادل مع طوائف المجتمع في إفشاء الأمن، والسلام، ومضمون ذلك في قول سيد الشهداء أبي عبد الله عليه السلام قال: (من تعصب عصبهُ الله عصبة الله بعصابة من نار)[٢٣]،فكانت العصبية من الفتن التي، جرت المجتمعات الى التقاتل، الطائفي والقومي اختلفت أبعادها، الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، إذ تسببت في قتل الأبرياء، وتهجير الآمنين، مما تسبب في تغيير البناء الديمغرافي للمجتمع بمختلف فئاته تنفيذاً لأجندات سياسية ذات توجهات استعمارية، كان لها الأثر السلبي في بلدنا الجريح الذي عانى الكثير من الفتن الطارئة والغريبة على مجتمعنا العراقي، وما يؤسفنا أن آثارها مازلت مستمرة إلى وقتنا الحاضر بسبب التجاذبات والمصالح السياسية.

وللأسف لو كان هذا التعصب للدين لا للطائفة، ولوحدة الوطن لا لتمزيقة وتشريد أبنائه لما آل إليه حال بلدنا الحبيب، ولو أنا تمسكنا بالقرآن، وحثه على ثقافة العفو والصفح: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[٢٤]، وبسنة رسولنا الكريم ومن اهتدى بهديه، وبهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: (المسلم اخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه، التقوى ها هنا بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم)[٢٥].

وبمنهج آل بيته الأطهار (عليهم الصلاة والسلام)، الذين عُرف عنهم العفو والصفح عن المسيء، والذي تميزوا به حتى مع

أعدائهم، وبهذا السلوك علّموا الأمة كيف تحيا متآلفةً متحابةً كأنها الجسد الواحد، وكسبوا الاعداء قبل الأصدقاء بسيرتهم الطيبة مجسدين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٢٦] إلى واقع عملي فقد عفا أمير المؤمنين عليه السلام بعد انتصاره في معركة الجمل عن مروان بن الحكم،وعن عبد الله بن الزبير، وغيرهم فمن خرج لقتاله ونكث بيعته، وقد قال عليه السلام: (إذا ظفرت بعدوك فليكن العفو أحلى الظفرين).[٢٧]

فالقرآن يؤكد على تعميق مفاهيم وقيم العفو والصفح، والثبات على القيم الإنسانية، واستلهام روح المحبة والسلام، والمودة والوئام في التعايش السلمي بين فئات المجتمع باختلاف أجناسها، وأطيافها وفق القاعدة العلوية: الرعية صنفان فإنهم، إما أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.[٢٨]

فما أحوجنا اليوم إلى هذا النهج الرباني في نبذ العنف المتطرف بجميع أشكاله، واستبداله بالحوار الموضوعي بما يحمله من قيم الديمقراطية، والتعددية، والتعبير بحرية الرأي، واحترام الرأي الآخر بعيداً عن التعصب،والعدوانية بمجرد الاختلاف مع الآخر؛ وإنما يكون بفسح المجال الى الحوار المفتوح، والاستماع إلى الآخر بكل هدوء وموضوعية من دون طعن، أو تجريح تجاه من يخالفنا الرأي في الدين أو الدنيا.

المبحث الثاني: ضروب التسامح في المنظور القرآني

إن المتدبر لكتاب الله العزيز يجد أنه قد اتخذ الصفح والعفو سبيلاً للتسامح، ودعوةً الى الرفق بالآخرين، والذي اتخذ أساليب متنوعة،وطرق مختلفة تتناسب مع طبيعة النفس البشرية في إشاعة قيم التسامح ونشر العدل والمحبة والمؤاخاة وفق نظرية التعايش السلمي واحترام الآخر بدلاً من ثقافة الإرهاب وما تحدثه من أعمال عنف ذات طبيعة إجرامية، والقتل العشوائي، وإلقاء المتفجرات أو التخريب لإقامة سلطة أو تقويض أخرى، وهذا مما يخلق حالةً من الرعب والفوضى والاضطراب الذي

يستهدف تحقيق أهداف سياسية من قبل أفراد أو جماعات نهى الشارع الحكيم عنها بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢٩].

وهناك دعوة أخرى لنبذ العنف كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣٠] والصعر عند الراغب هو ميل الى العنف وهو ما ينهى عنه الشارع الحكيم لأن المؤمنين إخوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣١]، فأساس العلاقة بين الناس تقوم على الأخوة الإيمانية والمحبة والإنسانية التي تقوم على الانسجام والعيش باستقرار وطمأنينة من الحقائق والتبصر بها والإنشداد إليها والإنسان عندما يخضع نفسه ويسيرها وفق العقل والمنطق فانه سوف يصبح مؤمناً[٣٢] بتقوى الله ومخافته كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣٣].

مما يدل أن القرآن الكريم دستور المسلمين يقوم على قاعدة العدل والمساواة

والتآلف والتعايش واحترام الآخر من دون تمييز أو عنصرية أو طائفية، نهى الشارع عنها وتوعد فاعلها بأشد العذاب في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا

عَظِيمًا ﴾[٣٤]، ويتضح مما سبق أن القرآن الكريم يحث الناس الى ما فيه صلاحهم من الخير وحسن العاقبة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٣٥]، ونهيهم عن ما فيه من الشر وسوء العاقبة وتوعدهم بمعيشة ضنكا في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[٣٦] وفي الآية الكريمة وعيد لمن يعرض عن امره فيضل عن الحق ويكون وعيده النار، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٣٧].

١ـ التجاوز عن أخطاء الآخرين

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.[٣٨]

من اللافت للنظر أن هذه الآية الكريمة قد تكررت في أكثر من موضع أكدت فيه على تجاوز أخطاء الآخرين عما كان منهم من إساءة وخطأ في رأي أو نصيحة أشاروا عليكم في دينكم إرادة صدكم عنه، ومحاولة منهم لارتدادكم عن دينكم وإيمانكم، فلا يكون كشفكم لسوء نيتهم الرد بالقسوة والعنف بل معالجة رذيلتهم بالصفح عنهم والتخلق باخلاق القرآن في الصفح عما كان منهم من جهل في ذلك، ويحذر القرآن المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال والصبر عليهم حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح[٣٩] حتى يأتي الله بأمره؛ فيحدث لكم من أمره ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد .

وأشار الطبري أن الله جل ثناؤه نسخ العفو عنهم والصفح بفرض قتالهم على المؤمنين حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة أو يؤدوا الجزية عن يد صغارا[٤٠].

إذ إن الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام كانوا يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب،كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، وكان الرسول ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش.

واستطراداً لما ذكرنا فان القرآن الكريم يشير في سياق الآية الكريمة الى التأني في رد الإساءة بالمثل، والتحلي بالصبر وإتباع أفضل السبل في كسب الآخر وامتصاص عدوانيته فيما يخدم الإسلام والمسلمين وتحضرني بعض الشواهد التاريخية عندما دخل المسلمون الى مكة المكرمة، وكان الصحابي الجليل سعد بن عبادة يحمل إحدى رايات النصر أخذ ينادي بصوت عالٍ (اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة) فسمع العباس (رضي الله عنه) فأتى النبيﷺ وأخبره بما سمع من سعد، فأمر النبيﷺ أمير المؤمنين علي بن ابي طالبعليه السلام أن يدرك سعداً ويأخذ الراية منه ونادي اليوم يوم المرحمة اليوم تصان الحرمة[٤١] وهذا لا يعني تنازل المسلمين عن المبادئ والقيم بل هو التعامل مع الأحداث ومحدثيها بروية وحكمة تعكس صورة مشرقة عن روح التسامح والعفو عند المقدرة علما أن هذا لا يكون في موقف يستهين الآخر منا في ضرورة وموقف يستحق أن نتريث ونصفح ونعفو ونلقي إليهم السلم إذا ما القوه الينا أولاً كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[٤٢].

٢ـ العفو والصفح عن صلة الأرحام

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤٣].

فالقرآن الكريم يشير في هذه الآية الكريمة على صورة تربوية تشير إلى حقيقة عميقة في سلوكيات الحياة البشرية التي تمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي، والحدث في هذا الموضع، أن الرجل كان يسلم، فإذا أراد الهجرة منعه أهله وولده، وقالوا: ننشدك الله أن تذهب وتدع أهلك وعشيرتك، وتصير الى المدينة بلا أهل ولا مال فمنهم من يرق لهم، ويقيم فلا يهاجر، فلما هاجر أولئك ورأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا ن يعاقبوا أهلهم الذين منعوهم.[٤٤]

فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤٥]، وإفشاء خُلق التسامح بين صلة الأرحام يحمل أبعاداً بعيدة لا تنحصر في هذه الحادثة؛ بل هي أشمل من الحادث الجزئي فالإنسان قد يحتمل في نفسه ما لا يطيق من زوجه، وأولاده إلا أنه لا يحتمل أن يصيبهم مكروه، وإن آذوهُ أو عوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا، ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة والمتشابكة، تحذير الشارع الحكيم من ضغط بعض المؤثرات السلبية بين أفراد العائلة الواحدة، ومواجهتها بالمؤثرات الإيجابية في إشاعة قيم التسامح بين صلة الأرحام .

خلاصة القول أن دلالة العفو والصفح في الآية الكريمة رد الإساءة، والأذى الذي لحق بالأبناء، أو الآباء بالتسامح الذي هو ضرب من ضروب العفو وهو مصداق من مصاديقه البارزة في الابتعاد عن العنف بشتى أنواعه.فالمحور الذي تدور عليه الآية الكريمة هو محور التربية التي تشتد وسائلها الى درجة الحدود، وترق الى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التي تصل القلب بنور الله وآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة[٤٦].

٣ـ الصبر في تحمل أذى الآخرين

يُعد قانون اللين، واللاعنف هو أحد القوانين التي لها أثر مهم في تقدم المسلمين ونجاحهم في مختلف الميادين[٤٧] ولا يخفى علينا أن صور العفو والصفح في القرآن

الكريم متفاوتة في دلالتها؛ إلا أنها لا تبتعد كثيراً عن مفهوم التسامح، و التصبير كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[٤٨].

يتضح من سياق الآية الكريمة أن دلالة الصفح هنا لتصبير الرسولﷺ والإعراض عن سفاهة قومه فإنه إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات الفاسدة سّهل تحمل تلك السفاهات على النبيﷺ؛ إنه تعالى لما صبّره على تحمل أذى قومه، ورغبه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم فقال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[٤٩]،أي أعرض عنهم، وتحمّل ما تلقى منهم بالقول الجميل، والخلق الحسن، والعفو والصفح[٥٠].

ومن أعظم صور العفو، ورفعها درجةً ما أُصيب به رسول اللهﷺ عندما كان ذات يوم ساجداً تحت الكعبة، يصلي لله، والمسجد الحرام لو يجد الإنسان فيه قاتل أبيه ما قتله، فقال بعض السفهاء من قريش، والمعتدين منهم أذهبوا إلى جزور آل فلان فأتوا بسلا الجزور، والرسولﷺ ساجد تحت الكعبة، فوضعوه على ظهره إهانةً له، وإغلظةً له، فبقي الرسولﷺ ساجداً حتى جاءت ابنته فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمينعليها السلام، وألقت السلام عن ظهره، فقام من السجود، ولما سلّم رفع يديه يدعو الله على هؤلاء الملأ من قريش[٥١] فالشاهد أن الرسولﷺ كان يؤذى أشد الأذى، لاسيما إذا أوذي في الله، فإنه يتحمل ويصبر، ويحتسب إلى الله تعالى.

فكان الرسولﷺ لا يضرب أحدً على شيء من حقوقه، وهو من كرمه وعفوه على الناس في حق من حقوقه؛ لأن له أن يعفو ويصفح عن حقه، وله أن يأخذ بحقه[٥٢]؛ ولكن إذا انتهكت محارم الله؛ فإنهﷺ لا يرضى بذلك، ويكون أشد ما يكون آخذاً بها؛ لأنه لا يقر أحداً على ما يغضب الله سبحانه وتعالى، وهكذا ينبغي علينا أن نحرص على أخذ العفو والصفح، ونقتدي بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٥٣].

فالصبر على الأذى، والعفو عن الناس إسوةً بالرسل الكرام (صلوات الله عليهم وسلامه)، وفي ذلك روي عن الرسولﷺ

قال: (من كظم غيظاً، وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً)[٥٤]؛أي لا يعملون غضبهم في الناس، ويعفون عمن ظلمهم كما قال: (من سرّه أن يشرق له البنيان، وترفع له الدرجات، فليعفُ عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه)[٥٥].

الخاتمة

بعد أن مَنَّ الله علينا بإتمام بحثنا الموسوم بـــ(سبل تعزيز القيم الروحية في مواجهة العالم المادي (قراءة في النص القرآني)، يطيب لي أن أوجز القول في أهم النتائج التي تم بعونه تعالى الوصول إليها وهي كما يلي:-

١ــ التسامح هو ضرب من ضروب الصفح والعفو، وهو مصداق من مصاديقه البارزة في الابتعاد عن العنف بشتى أنواعه.

٢ــ صور الصفح والعفو في القرآن الكريم متفاوتة في دلالتها؛ إلا أنها لا تبتعد كثيراً عن مفهوم التسامح، وتحمل أذى الآخرين.

٣ــ يؤكد القرآن على وجود التفاوت بين الناس من حيث أديانهم، وأجناسهم، وهو ما يؤكد حتمية التسامح والتعايش السلمي.

٤ــ ترسيخ قيم التسامح، ونبذ العنف المتطرف ابتداءً من الأسرة ثم المنظومة التعليمية ثم بقية مؤسسات الدولة.

٥ــ الإيمان بتعددية الأديان، والطوائف والقوميات، وترسيخ روح الولاء للدين والوطن.

٦ــ استلهام المفاهيم والقيم العليا من القرآن الكريم والسنة النبوية، وآثار السلف الصالح.

٧ــ بناء العلاقات الاجتماعية على أساس الإخوة الإيمانية والمحبة الإنسانية بين المسلمين، وبقية الأديان وغيرهم .

٨ــ الإنطلاق في بناء المجتمع على أساس قاعدة العدل والمساواة والتآلف والتعايش السلمي.

٩ــ احترام الرأي الآخر بكل شفافية وموضوعية .

١٠ــ التأكيد على قيم الصفح والعفو في أكثر من موضع في القرآن الكريم ما هو إلا دلالة على أهمية قيمة التسامح، وما تحمله من معاني الإخوة الإيمانية والإنسانية.

١١ــ تجاوز أخطاء الآخرين، وعدم ردّ الإساءة بمثلها أو بأعنف منها.

١٢ــ إتباع أفضل السبل في كسب الآخر، وامتصاص عدوانيته فيما يخدم الإسلام والمسلمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الهمزة

(١) أسباب النزول (علي بن أحمد النيسابوري) (ت ٤٦٨)، ضبطه وصححه: محمد عبد القادر شاهي، ط٢،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م).

(٢) إحقاق الحق (نور الله الحسيني) مكتبة النجيفي (د ـ ت٩).

الباء

(٣) بحار الأنوار(للعلأمة محمد باقر بن محمد تقي المجلسي)، ط٣،مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

التاء

(٤) تفسير القرآن العظيم (عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي) (ت٧٧٤هـ) تحقيق: مصطفى السيد محمد، وآخرين، مؤسسة قرطبة، مكتبة أولاد الشيخ للتراث.

(٥) تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن (لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري)(ت ٢٢٤ـ ٣١٠هـ)تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

(٦) تفسير مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير(للشيخ محمد بن فخر الدين الرازي (٥٤٤ـ ٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٧) تفسير الميزان (للسيد محمد حسين الطباطبائي) ، مكتبة دار الأعلمي لمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

السين

(٨) سلوك المالك في تدبير الممالك (ابن أبي الربيع أحمد بن محمد)،مطبعة جمعية المعارف العربية(١٢٨٦هـ).

(٩) سير الأئمة الإثني عشر

(١٠) سنن الترمذي (محمد بن عيسى بنسور الترمذي) تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، ط١،١٩٣٧.

الشين

(١١) شرح رياض الصالحين (لابن عيثمين) تحقيق: محمد محمد تامر، ط١،دار التقوى (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

(١٢) شرح نهج البلاغة (عز الدين عبد الحميد بن محمد بن أبي الحديد) تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط٢، دار إحياء

التراث ــ بيروت ــ لبنان(١٣٨٧هـ).

الفاء

(١٣) في رحاب الإيمان (للسيد محمد تقي المدرسي).

(١٤) في ظلال القرآن (سيد قطب) ط٧،دار إحياء التراث العربي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ــ لبنان (٣٩١هـ ــ ٩٧١م).

(١٥) في ظلال نهج البلاغة (محمد جواد مغنية).

اللام

(١٦) اللاعنف في الإسلام ((للسيد محمد الحسيني الشيرازي) .

(١٧) لسان العرب (للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري)، دار صادر، بيروت ــ لبنان.

الميم

(١٨) المستدرك على الصحيحين (لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط٢،دار الكنى العلمية،بيروت ــ لبنان.

(١٩) المسلك الثالث في التعاطي مع الطرح المفاهيمي للإسلام (للشيخ سعيد العكيلي) تقديم الدكتور صالح العلوي.

الهوامش

(١) سورة البينة: الآية٥.

(٢) سورة النور: الآية٥٥.

(٣) سورة البينة:الآية٣.

(٤) سورة القصص:الآية٧٧٦.

(٥) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٦) ينظر: لسان العرب (مادة سمح)٢/٣٤.

(٧) ينظر:سلوك المالك في تدبير الممالك: ابن ابي الربيع احمد بن محمد ٢٨.

(٨) ينظر: تفسير مفاتيح الغيب: للرازي٣١٢.

(٩) ينظر: تفسير الميزان، في تفسير قوله تعالى:(ولا تصّعر خدك للناس..).

(١٠) ينظر: إحقاق الحق: للحسيني نور الله ١١ ــ ٤٣١.

(١١) سورة الشورى: الآية ٨.

(١٢) سورة هود:الآية١١٨ــ ١١٩.

(١٣) نهج البلاغة: رسالة ص٥٣، من كتابه للأشتر.

(١٤) سورة البقرة:الآية ٢٣٧.

(١٥) سورة البقرة:الآية ٢٣٧.

(١٦) سورة التغابن: الآية ١٤.

(١٧) سورة الأعراف: الآية ١٣٤.

(١٨) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(١٩) سورة الحجر: ٨٥.

(٢٠) سورة النور:الآية ٢٢.

(٢١) سورة الشورى: الآية ٤٣.

(٢٢) ينظر: المسلك الثالث في التعاطي مع الطرح المفاهيمي للإسلام: للشيخ سعيد العكيلي٢١٩.

(٢٣) بحار الأنوار ٧٠/٢٨٤ب ١٣٣ح١٨٩.

(٢٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٧.

(٢٥) سنن الترمذي ٥٣٧.

(٢٦) سورة فصلت:الآية: ٣٤ــ٣٥.

(٢٧) ينظر:سير الأئمة الإثني عشر: ١٥٨/٢.

(٢٨) ينظر: نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٩٠، ٥١١ ــ ٥٣٤.

(٢٩) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٣٠) سورة لقمان: الآية١٨.

(٣١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٣٢) في رحاب الإيمان: للسيد محمد تقي المدّرسي ١٩٧.

(٣٣) سورة فصلت: الآيتان ٣٣ــ٣٤.

(٣٤) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٣٥) سورة النازعات: الآيتان:٤٠ــ ٤١.

(٣٦) سورة طه: الآية١٢٤.

(٣٧) سورة النازعات: الآيتان ٣٧ــ٣٨.

(٣٨) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٣٩) ينظر:تفسير القرآن العظيم: لإبن كثير : ١٧٨/١.

(٤٠) تفسير الطبري: ٥٠٤/٢.

(٤١) ينظر:في ضلال نهج البلاغة: محمد جواد مغنية ٢٥/٣.

(٤٢) سورة النساء: الآية٩٠.

(٤٣) سورة التغابن: الآية ١٤.

(٤٤) أسباب النزول للنيسابوري ٣٢٢.

(٤٥) سورة البقرة: الآية ١٤.

(٤٦) سيد قطب: ٣/٦٤.

(٥٠) ينظر: اللاعنف في الإسلام: للشيرازي ١٧٣.

(٥١) سورة الحجر: الآية ٨٥.

(٥٢) سورة الحجر: الآية ٨٥٨.

(٥٣) ينظر:تفسير مفاتيح الغيب: للرازي ٢٣٥/٢٧.

(٥٤) ينظر: شرح رياض الصالحين: لإبن عيثمين ٣٣٤٥/٢.

(٥٥) المصدر نفسه: ٣٤٦/٢.

(٥٦) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٥٧) جامع البيان:للطبري ٣٢١/٣.

(٥٨) المستدرك على الصحيحين: للنيسابوري ٣٢٥/٢.

تأملات

في قصة نبي الله موسى عليه السلام

في السياق القرآني

القسم الأول

السيد محمد الشوكي

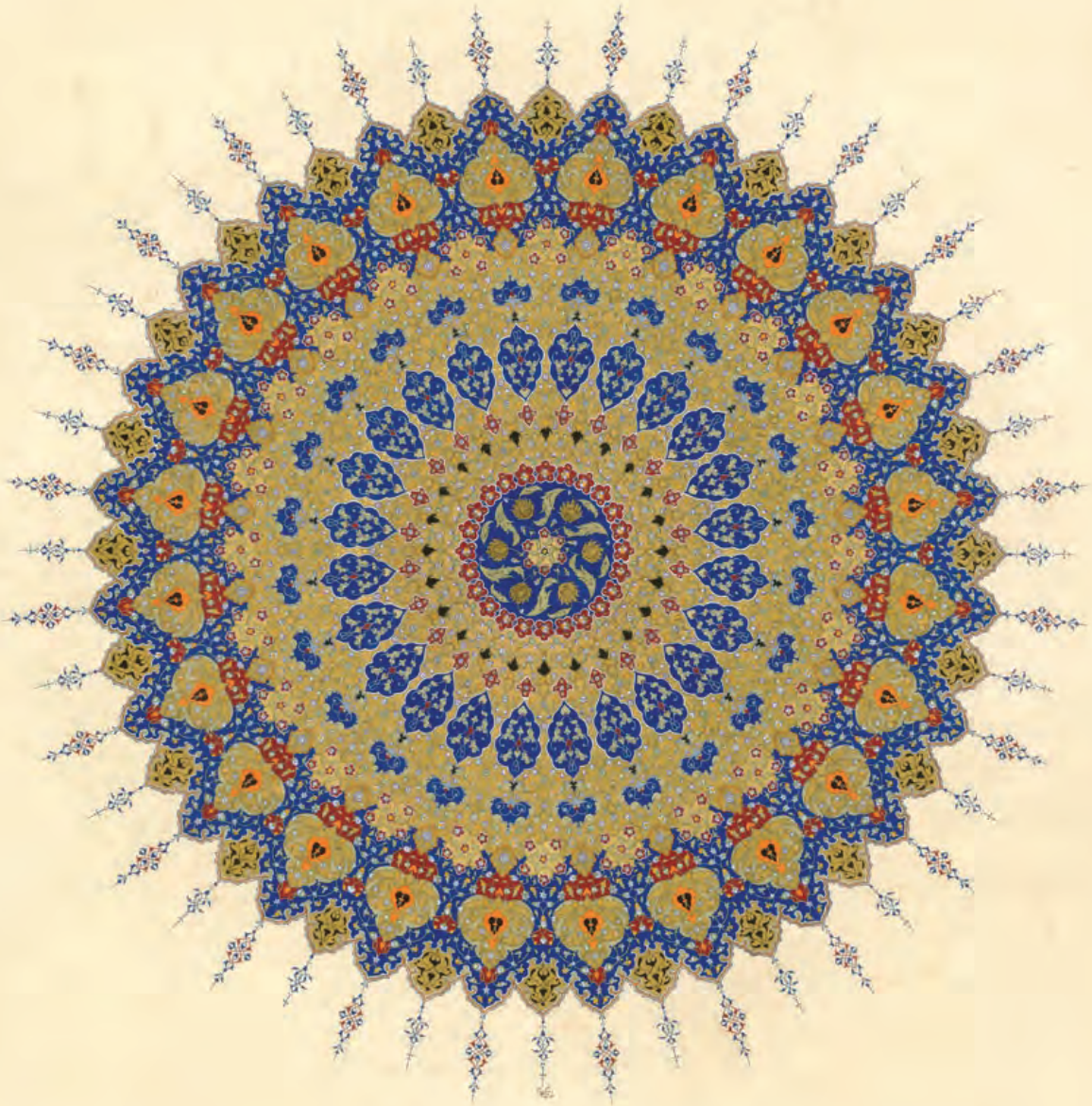

قصة نبي الله موسى عليه السلام من القصص التي ذكرها القرآن الكريم كثيراً، فهي من أكثر القصص انتشاراً في سور الكتاب العزيز، وربما تناولت السور القرآنية قصة موسى أكثر من القصص الأخرى، وجاء اسمه في القرآن الكريم أكثر من الأسماء الأخرى.

وكثرة عرض القرآن لقصة موسى عليه السلام ليس اعتباطاً وإنما لكثرة العبر والدروس الواردة في قصصه عليه السلام.

ومن مميزات قصة موسى عليه السلام تنوع مشاهدها، فهناك تنوع كبير في مشاهد هذه القصة الكريمة، من أوضاع بني إسرائيل قبل مجيء موسى عليه السلام، إلى ولادته وأحداثها المثيرة وإلقائه في اليم والتقاط آل فرعون له وما جرى له معهم، إلى قضائه على القبطي في النزاع بينه وبين الإسرائيلي والذي كان سبباً في خروج موسى من مصر خائفاً يترقب، إلى هجرته إلى مدين ولقاءه بالبنتين ثم لقاءه بأبيهما شعيب عليه السلام، إلى زواجه وعمله في رعي الغنم في مدين، إلى هجرته ثانياً إلى مصر وما جرى في الطريق من تكليم الله له وبعثه بالرسالة، ثم مواجهته في مصر فرعون والملأ، وبعدها منازلته مع السحرة وانتصاره عليهم، ثم خروجه من مصر مع بني إسرائيل واتباع فرعون لهم وانشقاق البحر وغرق فرعون، ثم التيه في الصحراء وما جرى فيه، وكذلك عبادة العجل وما فعله السامري، وغير ذلك من المشاهد الأخرى كقصته مع قارون أو قصته في ذبح البقرة وكذلك ما يرتبط بها كقصة زوجة فرعون ومؤمن آل فرعون وغيرها من التفاصيل الأخرى.

ولا يخفى أن هذا التنوع في المشاهد له علاقة بواقع الرسالة الإسلامية وواقع المسلمين والظرف الموضوعي الذي يتحركون فيه. وغير خاف أن القرآن الكريم نزل نجوماً مواكباً لتطورات الرسالة، وكانت آياته تنزل بمناسبات موضوعية يعيشها المسلمون. والملاحظ أن عرض القرآن الكريم لتفاصيل قصة موسى عليه السلام جاء ليتناسب مع واقع المسلمين المتغير. وأحاول أن أشير إلى مثال واحد في المقام وهو: إن من يلاحظ السور المكية والمدنية التي تناولت قصة موسى عليه السلام سوف يرى أن أغلب السور المكية تحدثت عن موسى وفرعون بينما ركزت السور المدنية على قصة موسى مع قومه وعن بني إسرائيل

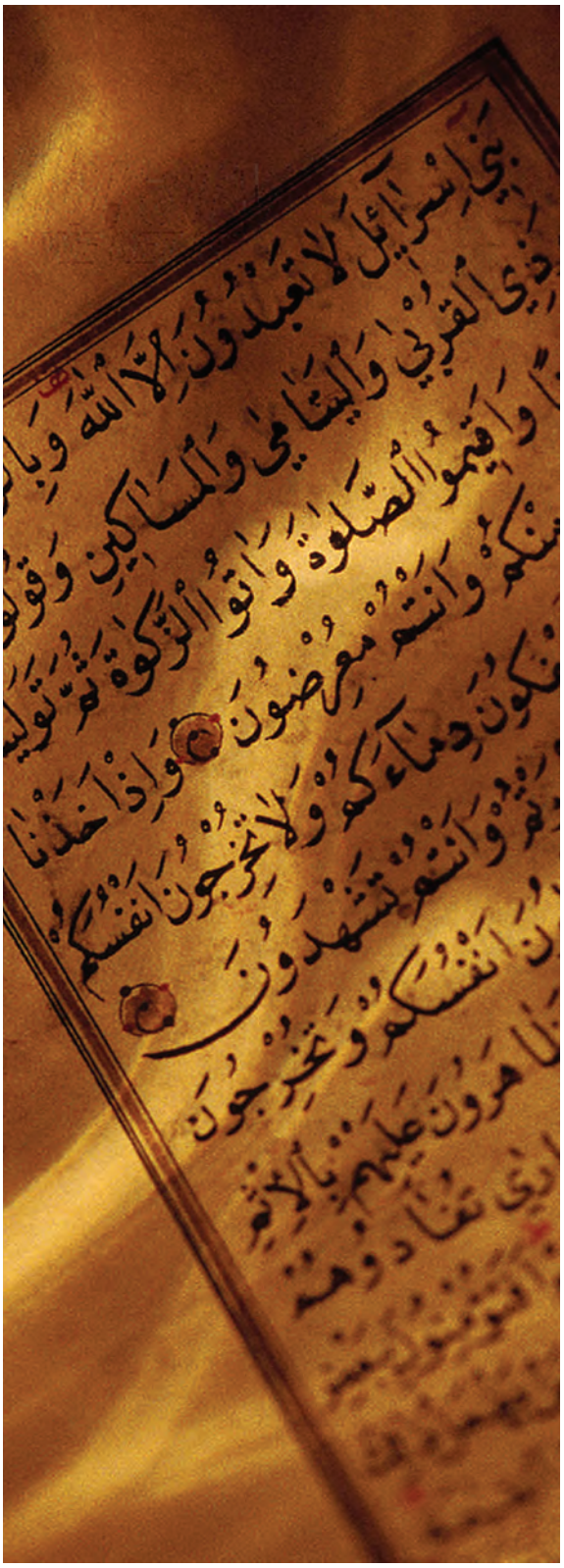

وأهل الكتاب. وذلك يرجع والله العالم إلى أن الصراع في مكة كان بين المسلمين وبين طواغيت قريش، حيث كان المسلمون يمثلون أقلية مستضعفة يسومهم طواغيت قريش سوء العذاب كما كان بنو إسرائيل أقلية في المجتمع المصري ومستضعفين من قبل طواغيتهم، وكان النبي ﷺ يواجه الإستكبار والطغيان القرشي كما كان موسى عليه السلام يواجه الطغيان الفرعوني، وبالتالي فإن قصة موسى مع فرعون وقصة بني إسرائيل مع فرعون تشبه الواقع الذي كان يعيشه المسلمون في مكة مما يجعلها أكثر ملامسة لواقعهم وأكثر عطاء وعبرة لهم. بينما في المدينة خرج المسلمون من الضغط والقمع القرشي كما خرج الإسرائيليون من القمع الفرعوني وأصبحوا يعيشون بحرية، وكان الصراع من جهة مع اليهود القاطنين قرب المدينة فاستدعى ذكر قصصهم وأساليبهم وطبيعتهم حتى يعرف المؤمنون كيف يتعاملون معهم، ومن جهة ثانية نرى أن النبي ﷺ أسس مجتمعاً مؤمناً وأراد أن يسرد لهم قصة المجتمع الإسرائيلي مع موسى حتى يتجنبوا نقاط الضعف فيه.

وملاحظة أخرى لا بد من الإشارة إليها

قبل الولوج إلى تفاصيل القصة، وهي أن قصة موسى عليه السلام تتميز ببعد ربما لا يوجد في القصص الأخرى، فإن الأنبياء الآخرين الذين حدثنا القرآن الكريم عنهم بعثوا إلى أقوام ضالين ليهدوهم إلى الطريق الصحيح، بينما بعث موسى عليه السلام فضلاً عن إنقاذ قوم مستضعفين من قبضة متجبر ظالم. وهذه خصوصية لا توجد في غير قصة موسى عليه السلام، وبالتالي فإنها من هذه الناحية تحمل دروساً وعبراً أكثر من غيرها من القصص وسنشير إلى ذلك في محله.

تاريخ الوجود الإسرائيلي في مصر

نجد لزاماً علينا قبل أن نخوض في تفاصيل قصة موسى عليه السلام أن نشير باختصار إلى تاريخ وجود بني إسرائيل في مصر، حيث إن أغلب أحداث القصة جرت في مصر. وتاريخ بني إسرائيل / وهم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم / يرجع إلى قصة يوسف عليه السلام عندما ألقاه إخوته في الجب وجاءت سيارة فعثروا عليه وأخذوه إلى مصر وباعوه في أسواقها بثمن بخس دراهم معدودة. وقد كان القدر أن الذي اشتراه من مصر هو عزيز مصر، فعاش في بيته معززاً مكرماً، ثم كان ما كان من زوجة العزيز التي راودته عن نفسه فاستعصم فأدى ذلك إلى أن يؤمر به إلى السجن، فعاش زمناً في السجن، ثم قدر له أن يخرج من السجن معززاً مكرماً مرفوع الرأس حيث كشفت كل الأوراق وبرأه الله تعالى مما رموه به.

ولما خرج من السجن تبوأ منصباً إقتصادياً رفيعاً في مصر، ثم كان أن البادية التي كان يسكنها أهله قد أقحطت فجاء إخوته ببضاعتهم ليبيعوها في مصر، فالتقوا بيوسف عليه السلام وجرى ما جرى مما ذكره القرآن الكريم من قصتهم حتى جاؤوا جميعاً وسكنوا في مصر.

عاش بنو إسرائيل في مصر زماناً طويلاً ربما يقرب من القرنين، وتناسلوا عبر السنين[1]، وعاشوا آمنين مطمئنين، وأصبحوا من الأثرياء واشتغلوا بصياغة الذهب والفضة، وكانت علاقتهم مع الحكومات جيدة، لأنه في زمن بني إسرائيل كان الرعاة الهكسوس هم المسيطرون على مصر كما يرى الكثير من المؤرخين، وهم وافدون على مصر كما هم بنو إسرائيل مما جعل العلاقة معهم وطيدة متينة. ولكن بعد أن انتصر المصريون على

الهكسوس واستعادوا السلطة منهم على يد أحمس ساءت أحوال الإسرائيليين لأن الشعب المصري راح ينظر إليهم أنهم كانوا متعاونين مع الهكسوس المحتلين، وراحت الحكومات تضطهدهم بألوان شتى.

ولم يذكر التاريخ أسباباً محددة لعداء السلطة الحاكمة مع بني إسرائيل، فربما ذلك ناشئ من علاقة المواطنين بالوافدين وهي علاقة لا تتسم بالود في أغلب الأحوال، وربما نلمس في القرآن تلميحاً إلى ذلك، حيث نرى أن الملأ من قوم فرعون يحاولون أن يعزفوا على هذا الوتر، ويستغلوا هذه النقطة في تأجيج الشارع ضد بني إسرائيل، يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. (الأعراف:١٠٩-١١٠). فلاحظ قولهم /يخرجكم من أرضكم/ فهي أرضكم لا أرضه ولا أرض قومه. وربما يرجع ذلك إلى تعاونهم مع المحتلين الهكسوس، أو غير ذلك من الأسباب الأخرى.

شخصية الطاغية فرعون

يظهر من كثير من الباحثين أن كلمة /فرعون/ ليست اسم علم لشخص وإنما هو لقب حكومي، ككسرى عند الفرس، وقيصر عند الروم، وإن كان البعض منهم يخالف في ذلك ويرى أن الآثار والكتابات المصرية لم تكن تعرف ذلك كلقب لحكام مصر، ولم يطلق على كبار ملوكهم إسم الفرعون.

وأياً كان الأمر، فإن شخصية فرعون هذا شخصية إستبدادية إستكبارية متعالية، وقد وصفه القرآن الكريم في غير موضع من الكتاب بذلك، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. (الدخان:٣٠ - ٣١). ويقول أيضاً: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. (يونس:٨٣). فقد كان مسرفاً في علوه واستكباره، حتى قال متبجحاً أمام قومه تلك الكلمة الجبروتية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وهذا العلو والإستكبار انسحب على الملأ من قومه والمحيطين به كما يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾. (المؤمنون :٤٥- ٤٦). ولا ريب فإن الحاكم إذا كان متجبراً عاتياً فإن قومه وملأه والمحيطين به سوف يكونون على شاكلته، بخلاف ما لو كان مؤمناً صالحاً متواضعاً فإن ذلك سوف يؤثر في المحيطين به.

هذا العلو والعتو الفرعوني انصب على بني إسرائيل فاستضعفهم استضعافاً كبيراً، فكان يحرمهم من فرص العمل الجيدة، وكان يستخدمهم في الإعمال الشاقة، وغير ذلك من الأمور الأخرى التي أشار إليها المؤرخون. لكن القرآن الكريم يشير إلى ممارسة واحدة وخطيرة وهي ممارسة الاستئصال بوصفها أهم تلك الجرائم، لأن الاستئصال والإبادة الجماعية هي أهم وأخطر جريمة يمكن أن تحدث في مجتمع ما. فكان فرعون كما يحدثنا القرآن الكريم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، أي يستبقي نساءهم أحياء.

ويروي المؤرخون والمفسرون أن يوسف عليه السلام جمع بني إسرائيل عند موته وأخبرهم بأن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم وسيذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وأن خلاصكم على يدي رجل اسمه موسى بن عمرآن، فكانوا يسمون أبناءهم بعمران، وإذا ولد له ولد سماه موسى رجاء أن يكون ذلك، فلفت ذلك فرعون وتناهت إلى سمعه تلك الأخبار. روى الشيخ الصدوق رحمه الله بسنده عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن يوسف بن يعقوب صلوات الله عليهما حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً فقال: إن هؤلاء القبط سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب، وإنما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران عليه السلام، غلام طويل جعد آدم، فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي إبنه عمران ويسمي عمران ابنه موسى .. فبلغ فرعون أنهم يرجفون به ويطلبون هذا الغلام، وقال له كهنته وسحرته إن هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام الذي يولد من بني إسرائيل هذا العام، فوضع القوابل على النساء وقال: لا يولد غلام هذا العام إلا ذبح، ووضع على أم موسى قابلة، فلما رأى ذلك بنو إسرائيل قالوا: إذا ذبح الغلمان واستحيى النساء هلكنا فلم نبق، فتعالوا لا نقرب النساء، فقال عمران أبو موسى عليه السلام: بل باشروهن فإن أمر الله واقع ولو كره المشركون، اللهم من حرّمه فإني لا أحرمه، ومن تركه فإني لا أتركه). (كمال الدين: ١٤٨).

وكذلك يروون أن فرعون رأى رؤيا أفزعته حيث رأى أن ناراً تأتي من بيت المقدس وتحرق بيوت الأقباط فما من بيت

من بيوتهم إلا وأحرقته ولم تمس بيوت بني إسرائيل بسوء. وفسرها له الكهنة بأن مولوداً سيولد في بني إسرائيل يكون دمار ملكه على يديه[٢]. فراح كما يقولون يستأصلهم عاماً فعاماً، فعام يذبح الأولاد الذكور وعاماً يستبقيهم، ولهذا قالوا إن هارون أخا موسى عليه السلام ولد في العام الذي كان يعفو فيه فرعون عن المواليد. وقد وكل بالنساء الحوامل نساء جواسيس يخبرنه بالمولود الذي يولد من نساء بني إسرائيل فإن كان ذكراً ذبحه وإن كان بنتاً استبقاها. والآية الكريمة استخدمت الفعل يذبح بالتشديد للدلالة على الكثرة والقسوة.

ويبقى هناك سؤال لابد من الإجابة عليه، وهو هل أن فرعون كان يفعل ذلك قبل مجيء موسى ومقارعته له، أم أن ذلك حدث بعد أن جاء موسى متحدياً له، فرأى أن يفعل ذلك لكي يحرمه من القاعدة الشعبية التي يمكن أن يتكأ عليها.

بعض الآيات القرآنية أطلقت ذلك الفعل من هذه الجهة ولم تتحدث عن زمان ذلك، ولكن آيات أخرى يظهر منها أن هذا الفعل الإجرامي صدر من فرعون بعد مجيء موسى إليه وتحديه له، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾. (غافر:٢٥).

وهكذا في الأعراف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (الأعراف:١٢٧).

نعم في سورة القصص يظهر من السياق أنه كان يفعل ذلك قبل مجيء موسى عليه السلام، حيث ذكر ذبح الأبناء قبل أن يتحدث عن ولادة موسى عليه السلام، وهذا يشكل قرينة سياقية على ذلك، وكذلك القرينة الثانية هي إلقاء موسى في الماء فإن ذلك كان بداعي الخوف عليه من ذبح فرعون ولا داعي آخر متصور غيره، فضلاً عن الروايات التي تحدثت عن أنه كان يمارس هذا العمل الشنيع قبل ولادة موسى عليه السلام. وربما كان يفعل ذلك قبل موسى لكي لا يولد المخلّص الإسرائيلي، وفعل ذلك بعد مجيء موسى عليه السلام حتى ينقص قوتهم أو يخضعهم أكثر. وربما يشير بنو إسرائيل إلى هذا بقولهم ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. (الأعراف:١٢٩).

أم موسى مع وليدها

ذكر المؤرخون أن فرعون كان يضع القوابل من القبطيات رقيبات على نساء بني إسرائيل الحوامل، فلما حملت أم موسى به وضع عليها قابلة من الأقباط. جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «فوضع على أم موسى قابلة تحرسها، فإذا قامت قامت، وإذا قعدت قعدت، فلما حملته أمه وقعت عليها المحبة، وكذلك حجج الله في خلقه، فقالت لها القابلة: مالك يا بنية تصفرين وتذوبين؟ قالت: لا تلوميني فإني إذا ولدت أخذ ولدي فذبح! قالت: لا تحزني فإني سوف أكتم عليك، فلم تصدقها، فلما أن ولدت التفتت إليها وهي مقبلة فقالت: ما شاء الله، فقالت لها: ألم أقل إني سوف أكتم عليك، ثم حملته فأدخلته المخدع وأصلحت أمره، ثم خرجت إلى الحرس فقالت انصرفوا فإنما خرج دم منقطع فانصرفوا). (كمال الدين: ١٤٨).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إن موسى لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعه، وكان فرعون وكّل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظنهن، وذلك لما بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون إنه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده. فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون .. فلما وضعت أم موسى بموسى عليه السلام نظرت إليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت: يقتل الساعة، فعطف الله بقلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى: مالك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف أن يذبح ولدي فقالت: لا تخافي! وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه». (تفسير القمي: ٢/١٣٥).

لقد كان الخوف يخالط قلب هذه الأم المبتلاة، لأنها لا تستطيع أن تكتم خبر ولادته إلى الأبد، فربما عثر عليه المفتشون الذين كانوا يفتشون بيوت بني إسرائيل كما يقول المؤرخون، وربما يشي به بعض الجيران المرتزقة والجواسيس، وربما يخبرهم به بعض ضعاف النفوس من المحيطين بها من أجل المكافأة.. فكان الخوف يعتمل في نفسها. هنا أوحى الله لها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. (القصص: ٧). أي اتركيه عندك وأرضعيه كما ترضع كل أم وليدها حتى تحسي بالخطر عليه فعند ذلك ألقيه في اليم.

وقال المفسرون أن الوحي هنا وحي إلهام لا وحي إعلام، ولكن لا دليل على ذلك بل الظاهر من الآية الشريفة أن ذلك كان وحياً كلامياً، فإن فيه تفاصيل لابد أن تكون كلامياً: (أن أرضعيه) ، (فإذا خفت عليه فألقيه في اليم)، (ولا تخافي ولا تحزني)، (إنا رادوه إليك)، (وجاعلوه من المرسلين)، وهذه الأوامر والنواهي والبشائر هي أنسب بالوحي الكلامي من الوحي الإلهامي. ثم إن الموقف يقتضي ذلك فإن إلقاء الأم وليدها في البحر مخاطرة كبيرة لا تستطيع كل أم أن تفعلها، فلابد من تطمينات كثيرة، ولا بد أنها شاهدت آيات مطمئنة ومعجزات. وما المشكلة أن ينزل عليها جبرئيل أو غيره من الملائكة ويتكلم معها ويطمئنها كما نزل على مريم عليها السلام؟ نعم نحن لا توجد لدينا امرأة نبية، ولكن هل كل من ينزل عليه الوحي فهو نبي؟ كلا، النبي هو من ينزل عليه الوحي بالرسالة والنبوة، وإلا فالله تعالى أوحى لمريم من خلال رسوله جبرئيل، وكان جبرئيل ينزل على فاطمة ويحدثها كما في الأخبار. ويؤيده بعض الأخبار التي عبرت عن الوحي بالنداء وأنها نوديت بما ذكره الله في كتابه، كالرواية عن الإمام الباقر عليه السلام التي رواها القمي، فإن فيها: (ونوديت أمه ضعيه في التابوت فألقيه في اليم ...)[٣].

على كل حال فإن ما كانت تخشى منه أم موسى قد حدث، فقد أحست بالخطر عليه ولهذا قامت بما أمرت به فأرضعته ثم وضعته في التابوت ليلاً وجاءت به إلى البحر، والله يعلم اللحظات التي كانت تعيشها في تلك الحال وكم كانت عسيرة عليها؟ كيف وهي تريد أن ترمي وليدها في الماء وهو طفل صغير، وربما ضربت الأمواج التابوت فكسرته، وربما تسرب الماء إليه فغرق في الماء، وربما وربما إلى غير ذلك من الإحتمالات التي كنا نحتملها وتخطر ببالنا لو كنا مكانها. نعم لا يمكن لأم أن تفعل ذلك، بل أن تفكر في ذلك، فلا أدري كيف طاوعتها يداها إلى أن تقذفه في اليم، ولكن أم موسى كانت على يقين من ربها، وحصلت على تطمينات إلهية مباشرة، والله تعالى ربط على قلبها، وثبّت وجيب فؤادها، فهي تعلم أن الله أرحم بولدها منها، وأن ولدها الذي تركته وحيداً في الماء له راع يرعاه ويرعى جميع الخلق.

وأخذت الأمواج تتدافع وتدفع معها

التابوت، وراح ولدها يمضي بعيداً عنها في غلس الليل، فقامت ورجعت إلى بيتها، ولا أدري كيف كانت تنقل قدميها، وكيف أنها لم تبق ملازمة للنهر.

وقد نظمت الشاعرة الإيرانية بروين اعتصامي هذا المشهد في أبيات جميلة تقول فيها:

أم موسى حين ألقت طفلها
للذي رب السما أوحى لها
نظرت للنيل يمضي مسرعاً
آه لو تعرف حقاً حالها
ودوي الموج فيه صاخب
وفتاها شاغل بلبالها
وتناغيه بصمتٍ ولدي
كيف يمضي بك هذا الزورقُ
دون ربّانٍ وإن ينسك منْ
هو ذو لطف فمن ذا يشفق
فأتاها الوحي مهلاً ودعي
باطل الفكر ووهماً يزهق
إن موسى قد مضى للمنزلِ
فاتق الله ولا تستعجلي
قد تلقينا الذي ألقيته
بيدٍ ترعى الفتى لا تجهلي
وخرير الماء أضحى مهده
في اهتزازٍ مؤنسٍ إن تسألي
وله الموج رؤوماً حدبا
فاق من يحدب أماً وأبا
كل نهر ليس يطغى عبثا
إن أمر الله كان السببا
يأمر البحر فيغدو هائجاً
وله الطوفان طوعاً مائجا
أين تمضين دعيه فله
خير رب يرتضيه لا هجا

وفي هذا المقطع من القصة مجموعة عبر ومواقف: منها المعاناة التي عاناها الأنبياء عليهم السلام وأهلهم في سبيل الحق والهدى وصلاح العباد، فعلى أتباع الأنبياء أن يعرفوا أن هذا الدين الذي هم عليه لم يقم بيسر ورخاء، وإنما هو نتيجة معاناة الأنبياء وأهلهم وأتباعهم فلابد أن يحافظوا عليه وأن لا يضيعوه. ومنها الظلم الكبير الذي كان يمارسه الطواغيت وما زالوا بحيث تضطر أم أن تلقي وليدها في النهر خشية من بطشهم الذي لا يعرف صغيراً ولا كبيراً. ومن الدروس ثقة الإنسان بوعد الله تعالى حيث كانت أم موسى على ثقة عالية بالله تعالى بحيث ألقت وليدها في البحر ثقة به وبوعده.

ويوجد ثمة حديث جميل عن الإمام

الجواد عليه السلام يقول فيه: (كيف يضيع من الله كافله، وكيف ينجو من الله طالبه). الذي يتكفله الله تعالى كيف يمكن أن يضيع حتى ولو اجتمع الخلق على تضييعه، فيوسف ألقاه إخوته وهو صغير في غيابة الجب، لكن لاحظ العناية الإلهية إلى أين أوصلته؟ وإبراهيم عليه السلام ترك إسماعيل وأمه في تلك الصحراء القاحلة بلا زاد وبلا ماء لكن انظر كيف رعاهم الله بعنايته؟ وموسى ألقته أمه في البحر لكن انظر العناية الإلهية كيف حفظته؟ فالمطلوب منك أن تثق بالله تعالى وأن تتوكل عليه ثم لا تبالي فإن الله لن يضيعك. كن مع الله تعالى يكون الله معك، فمن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فلن يخاف شيئاً.

موسى عليه السلام في بيت فرعون

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾. (القصص:٨- ٩).

تركت أم موسى وليدها بين يدي الأمواج التي راحت تتقاذفه بعيداً عن عينها، وراح

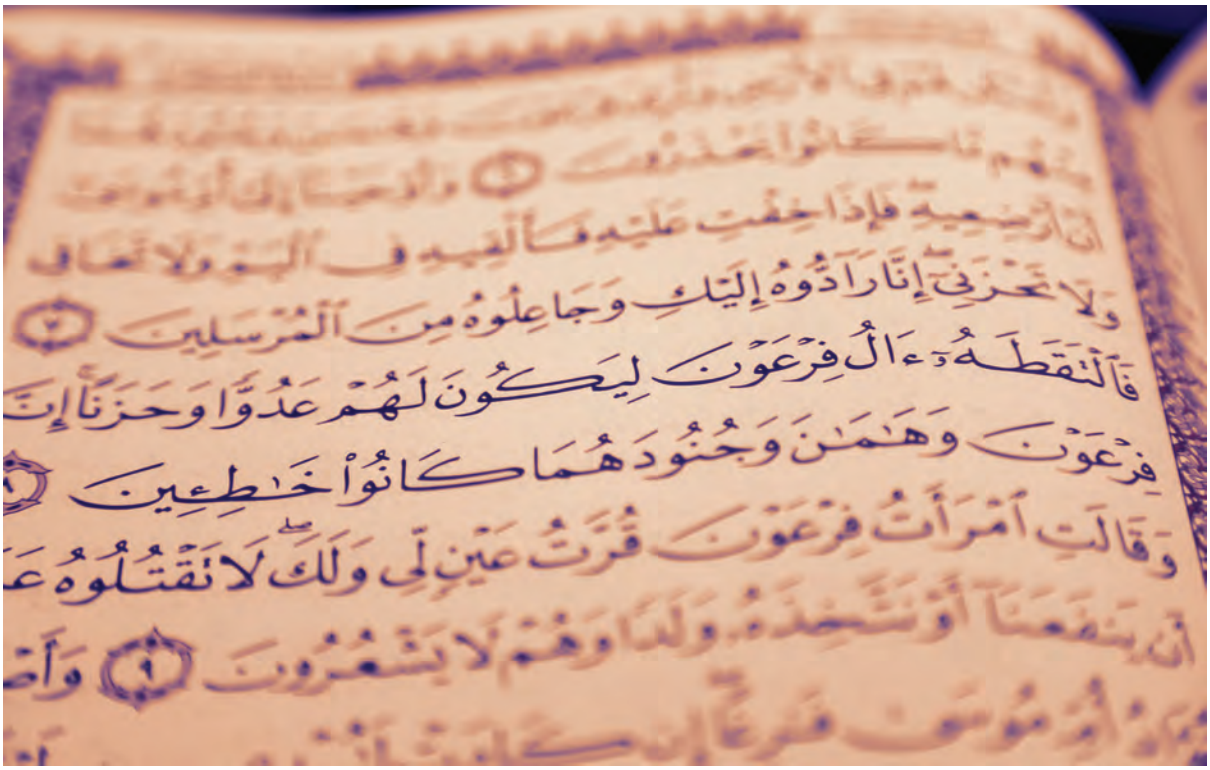

التابوت يسري في اليم وتتدافعه الأمواج إلى أن ألقته في الساحل قرب بيت فرعون. والحقيقة أن الله تعالى هو الذي فعل ذلك وأمر الأمواج بأن تنقله بسلام وأن تلقي به قريباً من قصر فرعون، فإن الأمواج خلق من خلق الله تعالى مطيع لأمره، والكون كله طوع إرادة الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. نحن عندما نريد شيئاً نهيئ الوسائل والمعدات والأسباب ونبذل الجهود ثم قد يكون ما نريد وقد لا يكون، ولكن الله تعالى إذا أراد شيئاً كان بمجرد مشيئته وإرادته. والكون كله تحت سلطان الله تعالى يعمل بأمره، فالله تعالى لما خلق السماء والأرض قال لها وللأرض أتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فالأرض طوع إرادته تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. (هود: ٤٤). والهواء والريح طوع إرادته ولهذا سخرها الله تعالى لسليمان تحمله أين ما شاء بلا ماكنات ولا توربينات ولا وقود ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾.(ص : ٣٦). والنار طوع أمره ولهذا قال لها: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾. (الأنبياء: ٦٩).

فكانت كذلك. وكذلك الماء طوع أمره فلقه لموسى عليه السلام فكان كل فرق كالطود العظيم، وهنا سخر الله الماء والأمواج لموسى عليه السلام فحملته بسلام إلى مقصد حدده الله له، وإلا لماذا لم يجده أحد الصيادين أو بعض الناس الذين كانوا على ضفاف النهر؟ ولكن مشيئة الله تعالى كانت أن يوصله إلى يد عدوه فرعون الذي ألقاه في اليم خوفاً منه، وإذا به يأتي إليه.

وكان لفرعون قصر على ضفاف النيل يصطاف فيه مع زوجته وخدمه، فالتقطه حاشيته وجاؤوا بالتابوت إليه، فلما فتحوه دهشوا، ولد رضيع في تابوت في الماء، فعلموا بحسب الظاهر أنه من بني إسرائيل وأنه ألقي في التابوت لعله يمضي بعيداً عن أعين السلطات في الأطراف ويأخذه بعض الناس ويربّونه دون علم فرعون وأجهزته الأمنية، وملامحه أيضاً تدل عليه، فقرروا أن يقتلوه، ولكن الله تعالى عطف عليه قلب آسية بنت مزاحم زوجة فرعون التي ستؤمن به فيما بعد وسيقتلها فرعون على ذلك. وكما قلنا أن الله تعالى ألقى محبته في النفوس، ثم إن آسية امرأة والمرأة قلبها أرأف وألطف فلم تستطع أن ترى هؤلاء

يقتلون طفلاً رضيعاً، ثم إنها امرأة طيبة القلب نقية السريرة كما يدل عليه إيمانها بعد ذلك بموسى وتحملها الموت من أجله، وهذا ليس شيئاً عرضياً بل كانت لها من السابق أرضية ملائمة للإيمان.

ثم إن الذي يظهر من قولها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أنهما لا ولد لهما ذكراً، أو لا أقل أنها هي لا ولد لها من فرعون لأن بعض المؤرخين يرى أن فرعون كان له أولاد آخرون فيمكن أن يكونوا من غيرها أو من الجواري التي يتسرى بهن. ولا يوجد لدينا نص قطعي في هذا الإتجاه إلا أن العبارة القرآنية توحي بذلك، وتؤيده بعض الأخبار. فاستغلت آسية هذا الأمر وقالت لفرعون نحن بحاجة إلى ولد يسعدنا ويملأ علينا حياتنا، وقد جاء الولد إلينا بنفسه، فاتركه قرة عين لي ولك، وسوف يتربى عندنا وفي بيتنا وسوف لن يعرف أهله وأصله، وما زالت به تلين قلبه وترققه عليه حتى وافق فرعون على ذلك.

وفي هذا المقطع من القصة تأملات كثيرة من أهمها التخطيط الإلهي الدقيق والعظيم، والقدرة الإلهية اللامتناهية، فإن أم موسى إنما خافت من فرعون فألقته في اليم، وإذا به يصل إلى فرعون؟! وفرعون كان يخطط لقتل من سيدمر ملكه، وإذا به يتكفله ويربيه؟!. فالله تعالى إذا أراد شيئاً كان، ولا يمكن لكل قوى العالم أن تقف في وجهه أو أن تغير مساره، مهما خطّطت ورسمت ومكرت وكادت فلن تستطيع أن تغير إرادة الله تعالى ومشيئته. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. (الطلاق:٣). ويقول في سورة يوسف: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١). فالله تعالى لا يمكن أن يغلبه أحد لا طواغيت العصور، ولا أجهزة المخابرات، ولا مراكز الدراسات الستراتيجية، إذا أراد شيئاً وخطط له سوف يكون هذا الشيء لا محالة. وهذا يعطينا ثقة كبيرة في مواجهة أعدائنا، فصحيح أن أعداءنا يخططون ويمكرون ويرسمون الاستراتيجيات ويدبرون المؤامرات، لكن كما قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. واللطيف أن الله تعالى يمكر بهم بنفس خططهم التي يرسمونها، فإذا بها تنقلب عليهم وتسير باتجاه معاكس لما خططوا.

موسى يعود لأحضان أمه

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ

مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص: ١٠- ١٣).

لقد وصل موسى عليه السلام طبقاً للإرادة والتخطيط الإلهي إلى آل فرعون فالتقطوه ليربوه في بيتهم ولداً لهم، وأما أم موسى فإنها بعد أن ألقت وليدها في البحر أصبحت وفؤادها فارغ، وفي ذلك رأيان للمفسرين:

الأول: أي أصبح فارغاً من الصبر والإستقرار والطمأنينة، وفارغاً من كل شيء إلا من موسى عليه السلام، فكانت قلقة متوجسة، وقد أوشكت أن تبدي به وتصرح به لولا أن ثبتها الله. ونتيجة لقلقها واضطرابها طلبت من أخته أن لا تبقى هكذا جالسة وأن تقتص أثره وأن تمضي مع الشاطئ لعلها ترى من أخذه وأين وصل ولكن من دون أن يشعر بها أحد.

والثاني: أن معنى أصبح فارغاً أي فارغاً من الهم والحزن، لأن الآية هذه جاءت بعد الآيات التي قصت التقاط آل فرعون له وقبولهم به. فإنه بعد أن التقط آل فرعون موسى عليه السلام وتبنوه ذاع الخبر في الناس، وخبر مثل هذا ينتشر بسرعة لغرابته، فإن طفلاً جاءت به الأمواج في تابوت إلى قصر الملك ليس أمراً عادياً، ثم أنهم راحوا يطلبون له المراضع فيأبى، فوصل الخبر إلى أم موسى أن آل فرعون التقطوا وليدها وأنهم عفوا عنه وتبنوه، عند ذلك أصبح فؤادها فارغاً من الهموم بعد أن كان مليئاً بها، واطمأنت نفسها، وطلبت من بنتها أن تقتص أثره ولكن بطريقة لا تجعلهم يشعرون بها.

المهم وأياً كان جاءت أخته إلى مقربة من قصر فرعون، وكان الكثير من الإسرائيليات يعملن كخدم في بيوت المصريين، فليس شيئاً غريباً أن ترى إسرائيلية في قصر فرعون. وقيل إنه كان يصطاف على النيل كما ذكرنا فجاءت تتمشى على الساحل فلمحته عن بعد فعرفته. وكانوا قد طلبوا له المرضعات فلم يقبل أن يرتضع من أي واحدة منهن، وذلك جزء من التخطيط الإلهي الذي أشرنا إليه، فإن الله تعالى صرفه عن الرضاع من جميع المرضعات اللاتي تقدمن لرضاعه حتى يرده إلى أمه التي وعدها بذلك ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. وقد علمت أخته ذلك، فقالت لهم أنا أستطيع أن أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ويرعونه حق رعايته، فقبلوا بذلك، فجاءت بإمها إليه، وبمجرد أن أعطته ثديها أقبل عليها، وهكذا رد إليها وليدها معززاً مكرماً بعدما رمته في البحر مشرداً.

ولنا أن نسأل: هل بقي موسى عليه السلام في

القصر وكانت أمه تأتي إليه لترضعه، أم أنها أخذته معها وكانت تأتي به إلى القصر لتراه امرأة فرعون؟ لا يوجد ما يدل على أي من الإحتمالين، لكننا نؤيد الإحتمال الثاني ونستوحي ذلك من قول أخته (أهل بيت يكفلونه) ولم تقل مرضعة ترضعه، مما يدل على أنهم أخذوا موسى عندهم وتكفلوا به.

وثمة سؤال آخر أيضاً مفاده: هل بقي موسى عليه السلام عند أمه في بني إسرائيل أم أنه جاء ليعيش في قصر فرعون بعد إتمامه مدة الرضاع؟ الذي يظهر من كتاب الله أيضاً أنه رجع إلى قصر فرعون وتربى فيه، وذلك لقول فرعون له: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾. (الشعراء: ١٨). فنشأ موسى عليه السلام في بيت فرعون ولكنه لم يتلوث بألواث الوثنية والشرك بالله تعالى والطاغوتية وجميع الأجواء السلبية التي كانت في قصر فرعون، فإن البيئة صحيح أنها تؤثر على الإنسان ولكن ليس تأثيرها تأثيراً حتمياً، بل هناك الكثير من الناس تربوا في أجواء سيئة ولكنهم خرجوا أناساً صالحين، ولو أردنا أن نسرد الشواهد الكثيرة على ذلك لطال بنا الأمر. فموسى عاش محسناً في علاقته بربه وفي علاقته بالناس، ولهذا اجتباه الله وآتاه حكماً

وعلماً لأنه كان من المحسنين. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. (القصص : ١٤). فلأنه كان من المحسنين فيما سبق من حياته كافأه الله تعالى فوهبه علماً وحكماً.

واختلف في هذه العبارة فقال قوم إنها إشارة إلى النبوة، وقال قوم إنه لم يكن نبياً في مصر وإنما بعث نبياً بعد رجوعه من مدين في طريقه إلى مصر، وإنما الحكم والعلم هو مقدمة النبوة، فالله تعالى وهبه العلم والبصيرة والقدرة على الحكم الصحيح على الأشياء والأشخاص، أو الحكم بين الأشخاص.

وفي هذا المقطع مجموعة دروس من أهمها صدق الوعد الإلهي، فإن الله تعالى وعد أمه بأنه سوف يرده عليها سالماً معافى ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. فنفذ الله ما وعد به ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فالله تعالى رده عليها حتى تقر عينها ولا تحزن رحمة بها وتسلية للوعة قلبها ومعاناتها في سبيله، ولكي تعلم أن وعد الله حق، وأن الله تعالى إذا أعطى وعداً فإنه سوف ينجزه بلا ريب. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾. فعلينا أن نؤمن بوعد الله تعالى ونتيقن به، ولا يتطرق الشك إلى قلوبنا بوعد الله تعالى، خصوصاً الذين يصدقون مع ربهم فإنه يصدق معهم.

الهوامش

(١) هناك اختلاف بين المؤرخين في أعداد بني إسرائيل في تلك البرهة، وهناك مغالاة من قبل بعض المؤخين في أعدادهم، وتلك المغالاة مسربة من كتب اليهود أنفسهم، حيث يرون أنهم كانوا مئات الألوف، واليعقوبي وغيره من المؤرخين يرى أنهم ستمائة ألف رجل غير الأطفال والشيوخ والنساء ونقل ذلك عن التوراة. لكنه بعيد بحسب الظاهر، لأن موسى عليه السلام من أبناء الجيل الرابع بعد الأسباط فمن غير المعقول أنهم تكاثروا بهذه السرعة وصاروا مئات الألوف، فالمرجح أنهم بقوا في مصر قرابة القرنين، وأن عددهم جميعاً(الأسباط مع أبناءهم) كان قرابة السبعين لما دخلوها. ومن غير المعقول أن يصبح الخمسون أو السبعون ستمائة ألف خلال قرنين، خصوصاً مع سياسة فرعون التي كانت تهدف إلى القضاء عليهم وإنقاص أعدادهم. وربما يدل على ما نقول أن فرعون قال لما استنفر الناس ضدهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي: ٢٠٦/١.

(٣) تفسير القمي: ١٣٥/٢.

مفهوم التوسل
في المنظور القرآني

سورة يوسف أنموذجاً

د. محمد حسين عبود

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين...

وبعد...

فإن التوسل أو الوسيلة من المفاهيم الواضحة نقلاً وعقلاً، والبينة التي لا يشوبها شك أو يعتريها شبهة، ومع أن الخوض فيها، لا يعدو أن يكون خوضا في الفروع، فقد أخذت مساحة من مجمل المنظومة الفكرية والعقائدية، لاسيما المعاصرة وباتت واحدة من الإشكاليات التي طالما أثارتها بعض الإتجاهات المتطرفة التي اتخذت من التكفير شعاراً ومن التطرف دثاراً، فاعتاشت على إثارة الفرقة الإجتماعية، والفوضى الفكرية بين المسلمين، وراحت ترمي بالكفر كل من يزور أضرحة الأنبياء والأئمةعليهم السلام أو يستغيث ويتوسل بمقامهم إتهاما منهم بالزور والبهتان أن التوسل عند المسلمين ،هو توسل مشفوع باعتقاد استقلال من يتوسل به المسلمون من دون الله سبحانه، وهو ما لا يقر به مسلم ،أو يعتقد به موحّد، بل إن الإعتقاد المنعقد في العقل والقلب عند عموم المسلمين في مسألة التوسل، هو أن المتوسل بهم ــ عباد الله لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا إلا بإذن الله ومشيئته ، وأنهم محتاجون الى رحمة الله ورضوانه، بيْد أنهم نالوا المقامات العالية عند الله، بعظيم العبادة والطاعة، فاصطفاهم سبحانه أنبياء وأوصياء وشهداء، فأصبحوا أقرب الى الله من غيرهم، وأسرع في استجابة الدعاء من سواهم ؛ لذا ترى المسلمين بناء على ذلك يلوذون بقبورهم ومقاماتهم إذا داهمتهم الخطوب والنوائب.

ومع أن الدلائل والبراهين - بجواز التوسل، بل بمرجوحيته - قد تكفلت الآيات والروايات ببيانه - كما سيكشف عنه البحث - غير أن الرؤى التكفيرية والتوجهات المتطرفة، ما فتأت تنخر بفكر الأمة ، وتعصف بوحدتها من خلال فتاوى التكفير، التي استحلت بها دماء المسلمين عموما،واتباع أهل البيت على الخصوص، الذي لا يمر يوم، إن لم تكن ساعة إلا وتهرق دماؤهم في أصقاع الأرض، بتهمة أنهم مشركون يتوسلون بغير الله سبحانه وتعالى.

لهذا وغيره من الأسباب انبرى الباحث ،الى اثبات محبوبية التوسل، من أدلة

القرآن التي لا تقبل نقضا أو رفضا، وقد اقتضى البحث أن يكون بمطلبين تتبعهما خاتمة البحث، ثم المصادر المعتمدة، سائلاً المولى سبحانه، متوسلاً بمحمد وآله، أن يجعل الباحث من المدافعين عن أصول الإسلام وعقائده.

المطلب الأول: مفهوم الوسيلة في المنظور القرآني

تطرق الخطاب القرآني في أكثر من موضع الى مفهوم الوسيلة كما في قوله تعالى:

أولا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1]، إذ ورد في تفسير هذه الآية أن المراد بها هو المسألة والقربة أي واطلبوا القربة اليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة من توسلت الى فلان بكذا، بمعنى تقربت اليه، ومنه قول عنترة:

ان الرجال لهم اليك وسيلة
أنيأخذوكتكحليوتخضبي[2]

كما ذكر المفسرون أن المراد منها هو المحبة أي تحببوا الى اللّه،وذُكر أيضا من جملة المراد بها «هو الرضا بالقضية

والصبر على الرزية والمجاهدة في سبيله والصبر على عبادته»[٣]، وأشار آخرون الى أن المطلوب من قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ هو «كل ما يتوسل به أي يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك»[٤].

ولا يخفى ما في الجمع في الآية آنفا -بأداة العطف(أو)- بين تقوى الله وابتغاء الوسيلة اليه،من التأكيد الجلي على أنهما من الأسباب المتماثلة والمتساوية في القربة الى الذات الإلهية المقدسة.

ثانياً: قوله تعالى في حكاية عن عبادة المشركين: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾[٥]، ثم يقول سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٦].

فالوسيلة هي «التي يتوصل بها الى تحصيل المقصود»[٧]، وأنها - وكما شخصها أمير المؤمنين عليه السلام - بقوله: «إن أفضل ما توسل به المتوسلون الى الله سبحانه الايمان به وبرسوله والجهاد في سبيله، فانه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص، فانها الفطرة، وإقام الصلاة فانها الملة، وإيتاء الزكاة فانها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنه جُنة من العقاب، وحج البيت واعتماره، فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب، وصلة الرحم، فانها مثراة في المال، ومنسأة في الأجل، وصدقة السر فانها تكفّر الخطيئة، وصدقة العلانية فانها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان»[٨].

بالتالي يؤكد لنا أمير المؤمنين عليه السلام أن الوسيلة - في الواقع - إنما هي اسم جامع مانع لكل أعمال الخير التي من شأنها تحقيق معنى الزلفة الى مقام المولى سبحانه وتعالى.

المطلب الثاني: مفهوم الوسيلة في سورة يوسف عليه السلام

قبل أن نذكر الموارد التي ورد فيها بيان المفهوم الواضح لمعنى الوسيلة في سورة يوسف عليه السلام المباركة لابد من الإشارة الى أنه يمكن القول أن هناك مرادين رئيسين يدور حولهما مفهوم الوسيلة، الأول : مادي، والثاني: معنوي، ومثال الأول توسل المريض بالطبيب في معالجة مرضه،فقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قوله: «تداووا، فما أنزل الله داء إلا أنزل معه دواء»[٩] وهو توسل شرعي عقلائي، لا يتنافى وحقيقة

الإعتقاد بالله والتوكل عليه، وربما ترائى لنا أن الحديث المذكور يتقاطع مع قوله تعالى حكاية عن نبي الله وخليله ابراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، غير أن الإمام الصادق عليه السلام، يحل لنا هذا الإشكال، من خلال الحديث المروي عن «أحمد بن فهد في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قال: هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه، قلت: فيقول ماذا يقول لولا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت، قال: نعم لا بأس بهذا أونحوه»[١٠]. بناء عليه فالمطلوب من المؤمن أن يتوكل على الله مطلقاً، وأن لا ينسب قضاء الحوائج برمتها الى الله سبحانه وتعالى ،حتى وإن بدا ظاهراً أن قضاءها بيد الناس على نحو مباشر؛ لأن كل ما في الكون متعلق بيد الله سبحانه.

أما مثال الثاني فهو التوسل بالدعاء، وبسائر الأعمال الصالحة المقربة الى ذات المولى سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١١] وقد ورد المفهومان المذكوران آنفا في سورة يوسف عليه السلام، فمثال التوسل بالأسباب المادية هو قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.[١٢]

والآية بصدد الإخبار عن الله تعالى «بأن يوسف أعطى إخوته قميصه، وقال احملوه الى أبي يعقوب واطرحوه على وجهه فانه يرجع بصيراً، ويزول عنه العمى، وذلك معجز دال على نبوته»[١٣].

ومعنى الآية واضح في أن القميص كان وسيلة مادية استعان بها نبي الله يوسف عليه السلام في شفاء والده نبي الله يعقوب عليه السلام من بلاء العمى الذي أصابه بسبب الحزن الذي ألم به جراء مفارقته إياه ولسنين طوال .

وهو ما يشرع لنا -من الناحية العقائدية - التوسل بالأسباب المادية لبلوغ المقصود والمراد، ومما يؤكد ذلك هو عدم استعانة نبي الله يوسف عليه السلام بالدعاء في معالجة مرض والده نبي الله يعقوب عليه السلام، و قد كان بوسعه أن يتوسل بالدعاء - كونه مستجاب الدعوة - بحكم امتلاكه مميزات النبوة، وأنه سلاح الأنبياء، فيبادر بالدعاء

ويلوذ به ويستعين به في كشف ضر والده،أو يخبر أخوته بأن يطلبوا من والدهم يعقوب، بأن يهرع هو بذاته الى الدعاء من أجل أن يزيل الله ما لحقه من الهم والغم والعمى.

كما أن نبي الله يعقوب سار هو الآخر ــ بذات الإعتقاد ــ من صحة التوسل بالأسباب المادية في تحقيق المطلوب، وأن شفاءه بالقميص الذي يحمل مع ريح يوسف وبشارة التخلص مما ألّم به،قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٤].

ولعل مما يرّكز هذا المعنى هو قول يوسف عليه السلام (اذهبوا) بصيغة الأمر، وقوله ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ مؤكداً، ثم اقتران الفاء بالفعل بقوله (فألقوه) واستعمال الخطاب القرآني للجملة الشرطية، التي تفيد تعليق الوجود على الوجود في قوله تعالى ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ التي تفيد توقف وجود البصر على وجود الإلقاء، ثم عدم وجود الفصل بين الإلقاء والإيتاء، أو بين الإلقاء والإرتداد في قوله سبحانه ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾، ما يوحي بسرعة ومباشرة تحقق المبتغى وهو رد البصر ليعقوب(عليه السلام)،من غير تأخير أو إطالة، الى غيرها من الأوجه البلاغية والنحوية المذكورة في الآية الشريفة.

خلاصة القول أن الآية تدل دلالة بينة على جواز التوسل بالأسباب المادية من أجل بلوغ الهدف والغاية، مادامت لا تتعارض ولا تقدح بعرى الإيمان التي انعقد عليها القلب.

سر قميص يوسف عليه السلام

مر علينا أن القميص الذي أُلقي على وجه نبي الله يعقوب عليه السلام كان له من القدرة والقابلية ما لم تكن لأمهر وأبرع الأطباء حذاقة وموهبة على علاج العمى الذي استولى على عيني يعقوب عليه السلام، فما سر هذا القميص؟ وما الأبعاد الطبية الخارقة التي منحته تلك المكنة الإعجازية في علاج هذا المرض المستعصي؟

والحق إن المتتبع لكتب التفسير والحديث والتأريخ عند الجمهور لا يجد بياناً لحقيقة هذا القميص، أو كشفا عن سره ومكنونه، وأن غاية ما توصل اليه مفسروهم ومحدثوهم وسواهم في شـــأنه، هو أن فيه ثلاث آيات، حين أُلقي على وجه أبيه فارتد بصيرا، وحين

قُد من دبر، وحين جاؤوا عليه بدم كذب[١٥] هذا في مقابل مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تولت كشف النقاب عن الواقع الغيبي لهذا القميص، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً مفضل بن عمر «أتدري ما كان قميص يوسف عليه السلام؟ قال: قلت: لا، قال: إن ابراهيم عليه السلام لما أُوقدت له النار أتاه جبرائيل عليه السلام بثوب من ثياب الجنة فألبسه إياه، فلم يضر معه حر ولا برد، فلما حضر ابراهيم الموت جعله في تميمة، وعلقه على إسحاق، وعلقه إسحاق على يعقوب، فلما وُلد يوسف عليه السلام علقه عليه،فكان في عضده حتى كان من أمره ما كان، فلما أخرجه يوسف بمصر من التميمة وجد يعقوب ريحه وهو قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فهو ذلك القميص الذي أنزله الله من الجنة، قلت جُعلت فداك فإلى من صار ذلك القميص؟ قال: الى أهله، ثم قال: كل نبي ورث علما أو غيره فقد انتهى الى محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته»[١٦].

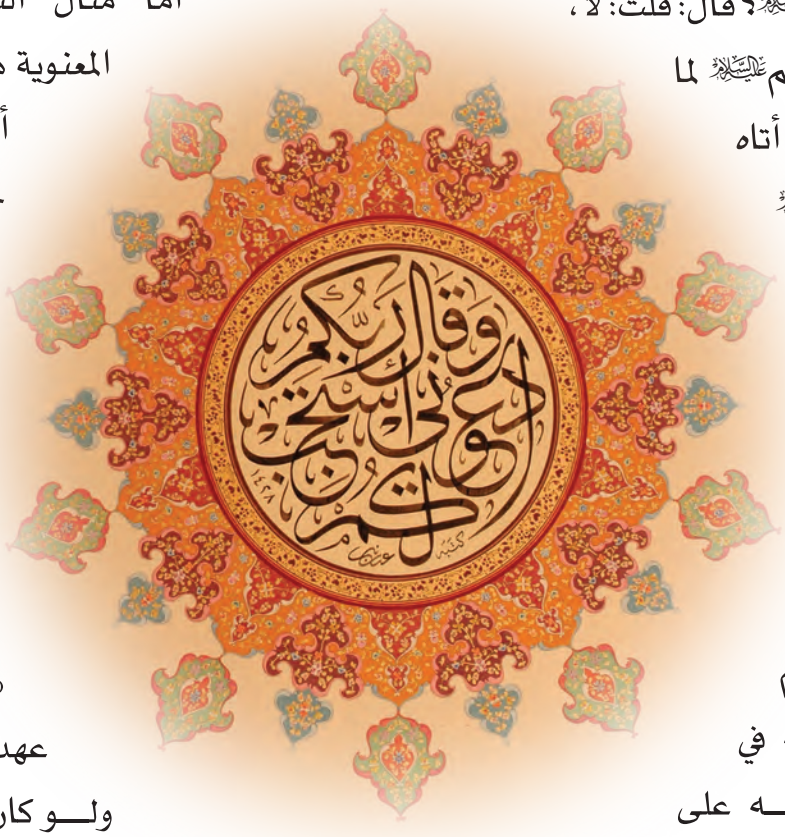

أما مثال التوسل بالأسباب المعنوية هو:

أولا: قوله تعالى حكاية عن أخوة يوسف عليه السلام:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[١٧]

الدال على أنهم «كانوا بعد في عهدة الذنب»[١٨] ولو كان متعلقا بـ (يغفر) حين قالوا لأخوهم يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[١٩]، فقال لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٢٠] «للزم أن يقطعوا بغفران ذنبهم حينئذ بإخبار النبي الصديق»،

غـــير أنّ ذلك لم يكن ليهب لهم الإطمئنان بغفـــــران ذنوبهم التي أصبحـــوا بسببها من الخاطئين، وربما يكون ذلك بسبب أن يوسف عليه السلام «إنما أراد مغفرة ما يرجع الى حقه،دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشـــتركا بينهم».[٢١]

ومهما يكن من أمر فإن عظم الذنب وفداحة الخطب دفعتهم لأن يتوجهوا نحو أبيهم نبي الله يعقوب عليه السلام فقالوا له: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[٢٢]، والآية تنقل لنا بشكل صريح سعي أخوة يوسف عليه السلام الحثيث للتخلص من الخطيئة التي لحقت بهم بسبب ما ارتكبوه بحق أخيهم يوسف، وما نتج عنه مما ألّم بأبيهم يعقوب،فما كان من الوالد الرحيم إلا أن قال لهم ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

والسؤال الذي ينبغي ذكره في المقام هو: لم لم يتوجه إخوة يوسف بنحو مباشر الى الله سبحانه وتعالى في طلب المغفرة؟، والحال أنه جل شأنه يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.[٢٣] ويقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، ولم لم يُجبْهم يعقوب بما أجابهم به يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾؟،أو يُخبرهم بضرورة طلب الإستغفار من الله ـــ وهو القائل ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ـــ من دون أدنى حاجة الى توسيط أي أحد في ذلك .

والجواب على ذلك يتلخص باعتقاد إخوة يوسف عليه السلام بالمكانة السامية، والقرب الإلهي الذي يحضى بهما، والدهم نبي الله يعقوب، ويقينهم بمقامه من الله، وقد شهدوا دلائله وعلاماته بشكل عملي، فقد كان يعلم ما تنطوي عليه سرائرهم، وأخبرهم غير مرة بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، مفادها أن تلك الحادثة التي وقعت بين يعقوب وبنيه من طلب الإستغفار من قبلهم، واستجابته لهم ،تسوق لنا تشريعاً نبوياً سماوياً بجواز التوسل بالصالحين في أهم غايات العبادة والطاعة وهي طلب المغفرة.

غير أن الملاحظ في إجابة نبي الله يعقوب عليه السلام لبنيه، وموعدته لهم بالمغفرة أنه قال لهم ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ «والمعنى إني أفعل ذلك في المستقبل، ولم يستغفر لهم في الحال»[٢٤]، وهو ما يدل بوضوح على التأني والتأخير في الإستغفار لهم، من دون المبادرة الفورية فقد نقل العياشي (ت٣٢٠هـ)عن محمد بن أبي عمير عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام في

تفسير قوله تعالى ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قوله: «أخرهم الى السحر، قال: يا رب إنما ذنبهم فيما بيني وبينهم، أوحى الله أني قد غفرت لهم»[٢٥]؛ لأن الإستغفار فيه مستجاب، وقد ورد عن محمد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السلام أن يعقوب عليه السلام أخره الى السحر ليلة الجمعة.[٢٦]

ولا يخفى أن تأخير الإستغفار الى هذا الوقت «لأنه أقرب الى إجابة الدعاء»[٢٧]، وبالتالي دليل على عناية النبي يعقوب عليه السلام بهذا الإستغفار، الذي يُعرب عن حبه ورحمته بأبنائه، وتأييده للسبيل الذي سلكوه في نواله والحظوة به، وهو التوسل بدعائه، والتوسط لديه بطلب الاستغفار.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.[٢٨]

حكاية عن ارتقاء نبي الله يوسف عليه السلام العرش وسجود أخوته وأبويه له، والآية صريحة في أن ظاهر السجود كان ليوسف عليه السلام، والحال أن السجود لا ينبغي ولا يصح ولا يجوز إلا لله سبحانه، قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾[٣٠].

عليه فكيف يتسنى لنا الجمع والموائمة بين مراد السجود في الآيات على النحو الذي يحقق لنا معنى السجود لله سبحانه، من غير تناقض ؟، وقد سُئل الإمام أبي الحسن عليه السلام جملة مسائل ، كان أحدها عن قول الله تعالى ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾، حيث قال السائل : كيف يسجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء، فأجاب أبو الحسن عليه السلام: أما سجود يعقوب وولده يوسف، فإنه لم يكن ليوسف، وإنما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم، ولم يكن لآدم إنما كان منهم طاعة لله وتحية لآدم عليه السلام، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكرا لله؛ لاجتماع شملهم، ألم تر أنه يقول في شكره ذلك الوقت ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾»[٣١].

والرواية واضحة الدلالة في فك رموز الإيهام والإبهام بخصوص السجود ليوسف، وهو – في الواقع – إنما كان سجوداً لله سبحانه.

وبعبارة أخرى إن السجود ليوسف عليه السلام كان بطول السجود لله، وليس بعرض

السجود له سبحانه من هنا فهو يجسّد صلب التزلف لله سبحانه ، والسعي لنيل رضاه جل شأنه، كما أنه يُبطل ما ذهب اليه ــ بحسب ما ذكره الطباطبائي ــ (ت١٤١٢هـ) بعضهم في توجيه الآية، وتفسير السجدة بأنها التحية الشائعة بين الناس يومئذ «كما أنها في الإسلام السلام، وقال بعضهم إن سنة التعظيم كانت إذ ذاك السجدة، ولم ينه عنها لغير الله بعد، كما في الإسلام وقول بعضهم كان سجودهم، كهيئة الركوع كما يفعله الأعاجم، كل ذلك غير وجيه».[٣٢]

خلاصة القول إن السجود ليوسف عليه السلام، نظير السجود لآدم عليه السلام، كان وسيلة نبوية تهدف الى تحقيق غاية ربانية، وهي العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى.

نتائج البحث

أولاً: تبين لنا بعد هذه الجولة القرآنية مع بعض آيات سورة يوسف عليه السلام أن من ألطاف الله وعظيم رحماته بعباده، أن جعل الطرق شتى والسبل وفيرة لعبادته وطاعته، ولعل من أظهرها هو التوسل بالسبل المادية والمعنوية، من أجل بلوغ المقاصد والحصول على الحاجات سواء في ذلك الأخروية كغفران الذنوب، أم المادية كشفاء المرضى وسواها.

وقد ضرب القرآن في ذلك الأمثال، إذ في الوقت الذي حصر المولى سبحانه الإستعانة بذاته المقدسة فحسب، حين قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣٣] فقد أمرنا سبحانه في سورة أخرى بالإستعانة بالصبر والصلاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٣٥]، والمراد الإستعانة وطلب العون[٣٦]، أي اتخاذها وسيلة لبلوغ المبتغى.

كما أن حصْر الإستعانة بالله أيضا، لا يتقاطع وقوله تعالى حكاية عن لسان ذي القرنين، الذي طلب العون من القوم الذي أرادوا منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج ردما، حين قال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[٣٧]، والآية صريحة بطلب العون منهم، أي أنه اعتمدهم كوسيلة وقوة من اجل بناء السد ،وهو لا يتعارض والإستعانة بالله ،أو التوكل عليه.

ثانيا: إن التوسل هو التوجه الى الله تعالى بالدعاء بالذات أو الجاه أو الحرمة، وقد ورد في الحديث عن «عثمان بن حنيف أن رجلاً أعمى أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا

رسول الله إني رجل أعمى فادع الله أن يشفيني قال: بل أدعك قال: ادع الله لي مرتين أو ثلاثا، قال:توضأ ،ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك الى الله أن يقضي حاجتي ...»[٣٨]

كما ثبت توسل عمر بن الخطاب أيام خلافته بالعباس عم النبيﷺ بقوله: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون»[٣٩]

من هنا فقد أكد السبكي(ت٧٥٦هـ) أنه يجوز التوسل والإستغاثة والتشفع «بالنبيﷺ الى ربه تعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين، المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين، وسير السلف الصالحين، والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الأديان، ولا سمع به في زمن من الأزمان، حتى جاء ابن تيمية، فتكلم في ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفاء الأغمار، وابتدع ما ليس اليه في سائر الأعصار»[٤٠]

اذن يمكن القطع أن القرن السابع الهجري الذي عاش فيه ابن تيمية هو العصر الذي شهد خروج ومروق طائفة على المألوف والمشهور بين المسلمين من جواز التوسل والإستغاثة بالأنبياء والصالحين.

كما أكد الذهبي(ت٧٤٨هـ) معنى التوسل في ترجمة ابن المقرئ،حيث ينقل عنه قوله: «كنت أنا والطبراني، وأبو الشيخ بالمدينة فضاق بنا الوقت، فواصلنا ذلك اليوم، فلما كان وقت العشاء حضرت القبر، وقلت يا رسول الله الجوع، فقال لي الطبراني: اجلس، فإما أن يكون الرزق أو الموت، فقمت أنا وأبو الشيخ ، فحضر الباب علوي، ففتحنا له فإذا معه غلامان بقفتين فيهما شيء كثير، وقال شكوتموني الى النبيﷺ؟ رأيته في النوم ، فأمرني بحمل شيء إليكم».[٤١]

من ثم فإن ما ألفه أتباع المذهب الإمامي من التوسل بالرسولﷺ وأهل بيتهعليهم السلام على مر الدهور والعصور، إنما يصب في صلب ما يعتقده المسلمون جميعاً من جواز التوسل بالصالحين ، فضلاً عما يمثله من التناغم والتواصل الروحي والعرفاني بين عموم الشيعة وبين رسول الله وأهل بيتهعليهم السلام؛ إمتثالا لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، وقول الرسولﷺ: «إني تارك الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب

الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».[٤٢]

خاتمة القول أن مفهوم التوسل من المفاهيم الشرعية والعقلية، التي أكدت عليها نصوص القرآن والسنة، وكانت موضع إجماع المسلمين بكل فرقهم ومذاهبهم ،ولم يشذ عنهم سوى فئة هجرت الكتاب والسنة، واتكلت على الأهواء والآراء الضالة والبعيدة عن روح الدين وحقيقة الملة.

قائمة المصادر

القرآن الكريم (خير ما يُبتدأ به).

١ــ أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)/ دار صادر ــ بيروت.

٢ــ البخاري أبي عبدالله محمد (ت٢٥٦هـ): صحيح البخاري/ ط (١٤٠١هـ) / نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣ــ الجصاص: أبي بكر أحمد بن علي (ت٣٧٠هـ): أحكام القرآن / تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين/ ط١(١٤١٥هـ)/ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

٤ــ ابن أبي الحديد: المعتزلي (ت٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة/ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم/ نشر دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٥ــ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد(ت٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء/ تحقيق شعيب الأرنؤوط ــ أكرم البوشي/ ط٩(١٤١٣هـ)/ نشر مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان .

٦ــ السبكي: تقي الدين(٧٥٦هـ): شفاء السقام في زيارة خير الأنام(ص)/ تحقيق السيد محمد رضا الجلالي/ ط٤(١٤١٩هـ).

٧ــ السلمي (ت٤١٢هـ): تفسير السلمي/ تحقيق سيد عمران/ط١ (١٤٢١هـ)/ طبع دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان.

٨ــ السمعاني(ت٤٨٩هـ): تفسير السمعاني/ تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم/ ط١(١٤١٨هـ) /مطبعة السعودية – دار الوطن – الرياض.

٩ــ الطبري: ابن جرير (ت٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل القرآن/ (١٤١٥هـ)/ دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع بيروت ـــ لبنان .

١٠ـــ الطبرسي: الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـــ): تفسير جوامع الجامع / ط١ (١٤٢٠هـــ)/تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١١ـــ الطوسي: محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـــ): البيان في تفسير القرآن/ نحقيق أحمد حبيب قصير العاملي/ ط١ (١٤٠٩هـــ)/مطبعة مكتب الإعلام الاسلامي.

١٢ـــ العاملي: الانتصار/ ط١ (١٤٢٢هـــ)/ دار السيرة بيروت ـــــ لبنان.

١٣ـــ العياشي: محمد بن مسعود (٣٢٠هـــ): تفسير العياشي/تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي/ نشر لمكتبة العلمية الإسلامية – طهران.

١٤ـــ الكليني: محمد بن يعقوب (ت٣٢٨هـــ): الكافي/تحقيق علي أكبر غفاري/ ط٥/ دار الكتب الإسلامية – طهران .

١٥ـــ المجلسي: محمد باقر (ت١١١١هـــ) بحار الأنوار/ تحقيق محمد باقر البهبودي/ ط٢ المصححة (١٤٠٣هـــ)/ مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان .

١٦ـــ ابن المنير الإسكندري: أحمد بن محمد (ت ٦٨٣هـــ): الإنصاف فيما تضمنه الكشاف/نشرشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم – خلفاء.

١٧ـــ النسائي: أبو عبد الرحمن بن شعيب (ت٣٠٣هـــ):السنن الكبرى/تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن/ط١ (١٤١١هـــ)/نشر دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

١٨ـــ النسفي: عبد اللّه بن أحمد (ت٥٣٧هـــ): تفسير النسفي.

الهوامش

(١) سورة المائدة /٣٥.

(٢) ظ: الطبري: ابن جرير (ت٣١٠هـــ): جامع البيان عن تأويل القرآن/ (١٤١٥هـــ)/ دار الفكر للطباعة والنشر والتويع بيروت ـــــ لبنان ٣٠٧/٦.

(٣) السلمي (ت٤١٢هـــ): تفسير السلمي/تحقيق سيد عمران/ط١ (١٤٢١هـــ)/ طبع دار الكتب العلمية بيروت ـــ لبنان ١٧٧/١.

(٤) النسفي: عبداللّه بن أحمد (ت٥٣٧هـــ):

تفسير النسفي ١/٢٨١.

(٥) سورة الإسراء /٥٦.

(٦) سورة الإسراء /٥٧.

(٧) العاملي: الانتصار/ط١ (١٤٢٢هـ) / دار السيرة بيروت ـ لبنان ٢٤٨/٥.

(٨) ابن أبي الحديد: المعتزلي(ت٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة/ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم/ نشر دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه ٢٢١/٧.

(٩) المجلسي: محمد باقر(ت١١١١هـ): بحار الأنوار/ تحقيق محمد باقر البهبودي/ ط٢ المصححة(١٤٠٣هـ)/ مؤسسة الوفاء - بيروت – لبنان ٦٥/٥٩.

(١٠) م . ن ١٤٨/٥.

(١١)سورة البقرة/١٥٣

(١٢)سورة يوسف/٩٣.

(١٣)الطوسي: محمد بن الحسن(ت٤٦٠هـ): التبيان في تفسير القرآن/ تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي/ ط١(١٤٠٩هـ)/نشر وطبع مكتب الإعلام الإسلامي ١٩١/٦..

(١٤) سورة يوسف/٩٦.

(١٥) ظ: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٤٠/١٢+ الجصاص: أبي بكر أحمد بن علي(ت٣٧٠هـ):أحكام القرآن /تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين/ ط١(١٤١٥هـ)/ دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان ٢١٨/٣، وغيرهم

(١٦) الكليني: محمد بن يعقوب(ت٣٢٨هـ): الكافي/تحقيق علي أكبر غفاري/ ط٥/ دار الكتب الإسلامية - طهران ٢٣٢/١.

(١٧) سورة يوسف/ ٩٧.

(١٨) ابن المنير الإسكندري: أحمد بن محمد(ت ٦٨٣هـ):الإنصاف فيما تضمنه الكشاف/نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم – خلفاء٣٤٢/٢.

(١٩) ، (٢٠) سورة يوسف/ ٩١-٩٢.

(٢١) ابن منير الإسكندري:الإنصاف فيما تضمنه الكشاف ٣٤٢/٢.

(٢٢) سورة يوسف/ ٩٧.

(٢٣) سورة آل عمران/١٣٥.

(٢٤) الطوسي:محمد بن الحسن(ت٤٦٠هـ):البيان في تفسير القرآن/نحقيق أحمد حبيب قصير العاملي/ط١(١٤٠٩هـ)/ مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي١٩٥/٦.

(٢٥) العياشي: محمد بن مسعود(٣٢٠هـ): تفسير العياشي/تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي/ نشر لمكتبة العلمية الإسلامية – طهران ١٩٦/٢.

(٢٦) ظ: م ن ١٩٦/٢.

(٢٧)الطبرسي: الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ): تفسير جوامع الجامع/ط١(١٤٢٠هـ)/تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة٢٤٠/٢.

(٢٨) سورة يوسف/١٠٠ .

(٢٩) سورة فصلت/٣٧.

(٣٠) سورة المؤمنون/٧٧.

(٣١) المجلسي: بحار الأنوار ٢٥١/١٢.

(٣٢)الطباطبائي: محمد حسين (ت١٤١٢هـ): الميزان في تفسير القرآن/ منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المقدسة ٢٤٧/١١.

(٣٣)سورة الفاتحة/ ٥.

(٣٤)سورة البقرة /١٥٣.

(٣٥)سورة المائدة /٢.

(٣٦)ظ:السمعاني(ت٤٨٩هـ): تفسير السمعاني/ تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم/ ط١(١٤١٨هـ) /
مطبعة السعودية - دار الوطن – الرياض ١٥٦/١.

(٣٧)سورة الكهف /٩٥.

(٣٨) النسائي: أبي عبد الرحمن بن شعيب (ت٣٠٣هـ): السنن الكبرى/تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن/ ط١(١٤١١هـ)/نشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٦٨/٦

(٣٩)البخاري أبي عبدالله محمد(ت٢٥٦هـ): صحيح البخاري/ط(١٤٠١هـ)/نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع١٦/٢.

(٤٠) السبكي: تقي الدين(٧٥٦هـ): شفاء السقام في زيارة خير الأنام ﷺ/ تحقيق السيد محمد رضا الجلالي/ط٤(١٤١٩هـ)/٢٩٣.

(٤١) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد(ت٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء/ تحقيق شعيب الأرنؤوط ــ أكرم البوشي/ ط٩(١٤١٣هـ)/ نشر مؤسسة الرسالة - بيروت – لبنان ٤٠٠/١٦

(٤٢) أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ)/ دار صادر ــ بيروت ١٤/٣.

مفهوم الغريب
في القرآن الكريم

م.د. فلاح رسول حسين الحسيني

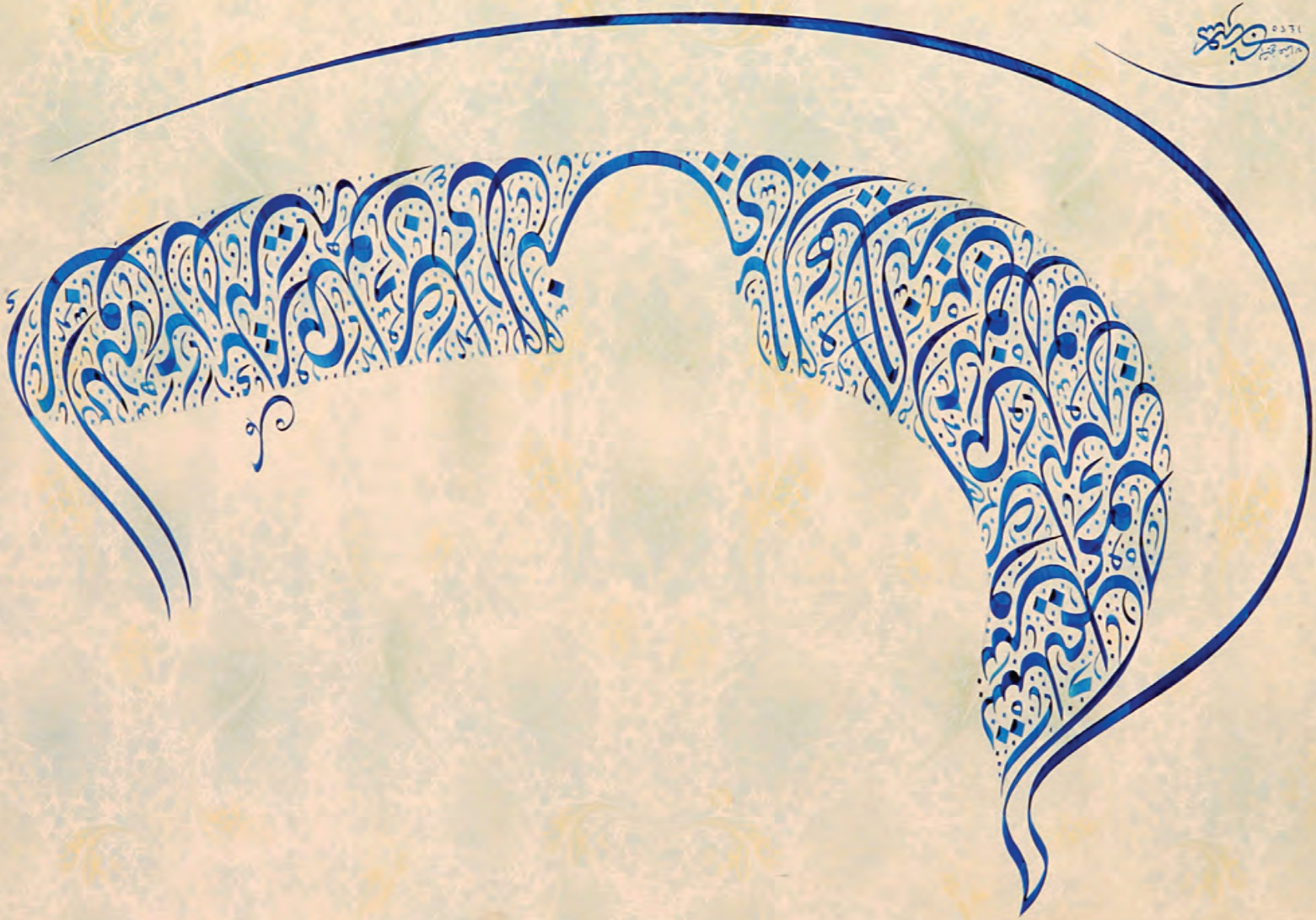

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين، أمّا بعد: فقد تناول هذا البحث مسائل عدة، وهي الغريب لغة واصطلاحاً، والغريب عند البلاغيين وصولاً إلى مفهوم الغريب في القرآن الكريم عند القدامى والمحدثين، وقد استعان الباحث بمصادر عدة زادت على الثلاثين، شملت بعض المعجمات، وكتب البلاغة والتفسير وغيرها، وقد خلص البحث الى مسائل عدة ذُكر أهمها في الخاتمة، نسأل الله تعالى أن ينتفع به طلاب المعرفة وأن يجعله في ميزان حسناتنا، والحمد لله أولا وآخراً.

الغريب لغة واصطلاحاً:

الغريب لغة:

بحثت المعجمات اللغوية العربية هذه اللفظة في مادة (غرب)، وقد تطرق لها الخليل، والجوهري، وابن فارس، وغيرهم، ذاكرين معناها، ونبدأ الآن بما ذكره الخليل بن احمد الفراهيدي في عينه: «الغَرْب: التمادي» و «الغَرْب: أعظم من الدلو ... وكل فيضة من الدمع غَرْب ... والغُروب ههنا الدمع» و«الغَرْب: الراوية، وغروب الأسنان الماء الذي يجري عليها» و«الغَرْبان مؤخّر العين ومقدّمها» و«الغَرْب: ما يقطر من الدلاء» و«غروب الأسنان أطرافها» و«الغَرْب خُرّاج يخرج في العين» و«الغَرْب: المغرب» و«الغروب غيبوبة الشمس» و«الغريب: الغامض من الكلام، وغَرُبت الكلمة غرابة وصاحبها مُغرب» و«الغارب أعلى الموج وأعلى الظهر... والمُغرَب: الأبيض الاشفار من كل صنف والشعرة الغريبة، وجمعها غُرُب لأنها حَدَثٌ في الرأس لم يكن قَبْلُ» و«الغَرَب: شجرة ... والغَرَب: جامٌ من فضة، والغربيب: الأسود» و«سهم غَرَب: بفتح الراء: لا يُعرف راميه»[١] .

ومما جاء في الصحاح للجوهري: «الغرباء: الاباعد» و«الغرب أيضا الخمر» و«الغرب في الشاة كالسَعَف في الناقة وهو داء يتمعّط منه خرطومها، ويسقط منه شعر عينيها» و«غرب كل شيء حدّه»[٢] .

ومما جاء في المقاييس لابن فارس: «الغُربة: البعد عن الوطن» [٣] .

ومما جاء في أساس البلاغة للزمخشري: «وقد غربت هذه الكلمة أي غمضت فهي غريبة ومنه مصنف الغريب» [٤].

ومما جاء في المصباح المنير للفيومي:

«وكلام غريب بعيد عن الفهم» [٥].

ومما جاء في تاج العروس للزبيدي: «الغَرْب: الذَهاب» و«الغرب أول الشيء وحده» و«الغَرْب: النشاط والتمادي في الأمر» و«الغَرْب كثرة الريق في الفم» و«الغَرْب الفرس الكثير الجري» و«الغَرْب:النوى والبعد» و«يقال تكلم فأغرب: جاء بغريب الكلام ونوادره» و«الغريب من الكلام: العميق الغامض»[٦] .

بعد هذا العرض نقول :

إنّ للغَرْب معاني عدة أهمها: التمادي والنشاط، والراوية، والطرف أوْ الحد، والداء أوْ الخُرّاج، والبعد، والذَهاب، والكثرة (كثرة الريق في الفم، والفرس الكثير الجري). ومما ذكر من معاني الغَرَب (بفتح الراء): شجرة، جام من فضة، ومن السهام ما لا يُعرف راميه .

أمّا الغريب من الكلام فهو الغامض، العميق، النادر، البعيد من الفهم .

وأمّا الغريب من الشعر فهو الحدث في الرأس لم يكن قبل .

الغريب اصطلاحاً :

عرفه أبو سليمان الخطّابي بقوله: «الغريب من الكلام انما هو الغامض البعيد من الفهم كما ان الغريب من الناس انما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، والغريب من الكلام يقال به على وجهين أحدهما أن يُراد به أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم الا عن بعد ومعاناة فكر، والوجه الآخر أن يراد به كلام مَن بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها» [٧] .

وعرف الجرجاني (الشريف علي بن محمد) الغرابة قائلاً: «كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال»[٨].

وقال محمد جواد الحسيني الجلالي: بعد أن ذكر تعريف الخطابي: «ويمكن تفسير الغريب بعبارة أشمل ليعم ما يُعرف بالغريب في عصرنا الحاضر. وهو ان الغريب كل كلام أو كلمة لا يكون ظاهر المعنى ولا مألوف الاستعمال لدى المخاطبين به سواء كانت الغرابة من جهة نفس الكلمة أم الكلام أم من جهة ابتعاد المخاطب عن أصول التحاور في اللغة كما هو عليه أكثر الناس في عصرنا الحاضر» [٩] .

الغريب عند البلاغيين :

يدخل في معنى الغريب ما لا تندرج فيه

شروط الفصاحة في علم البلاغة [١٠] .وقد بحث البلاغيون فصاحة الألفاظ وفصاحة التركيب، وأعطوا شروطا لكل قسم، وسنوجز ما قالوه على النحو الآتي:

فصاحة الألفاظ:

فصل ابن سنان الخفاجي القول في شروط فصاحة الألفاظ وكانت عنده على النحو الآتي[١١]:

١- أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج، ومثال التأليف في الحروف المتباعدة كثير، جلّ كلام العرب عليه، أما المتقاربة فمثالها (الهعخع).

٢- أن تجد لتأليف اللفظ في السمع حسنًا ومزية على غيرها وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة، ومثاله في الحروف (عذب)، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال .

٣- أن تكون الكلمة كما قال أبو عثمان الجاحظ غير متوعِّرة وحشية والمقصود هنا الغرابة .

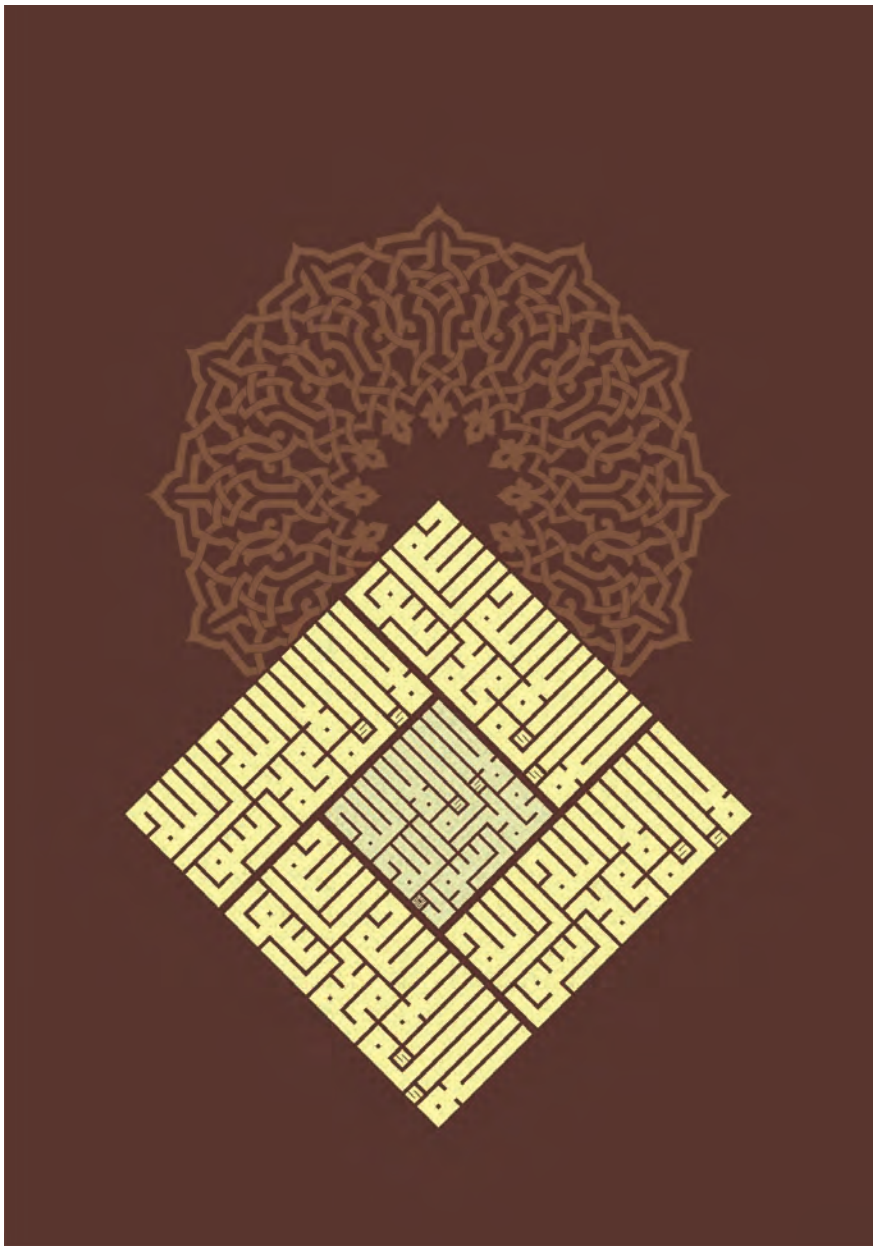

و «الغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج في معرفتها إلى من ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة» [١٢].

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن سنان (تتكأكؤون)و(افرنقعوا) .

٤- أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية، ومثّل لها ابن سنان بكلمة (تفرعن).

٥- أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة، ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة ،وقد يكون ذلك راجحاً لان اللفظة بعينها غير عربية، وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عُبر بها عن غير ما وُضعت له في عرف اللغة، كوضع الايّم مكان الثيّب، ومنه إظهار التضعيف في الكلمة (ظننوا). ثم ذكر ابن سنان بعض المسائل منها صرف ما لا ينصرف، ومنع الصرف مما ينصرف، وقصر الممدود ومد المقصور، وحذف الإعراب للضرورة وغيرها قال عنها: «فإن

هذا وأشباهه وما يجري مجراه - وإن لم يؤثّر في فصاحة الكلمة كبير تأثير - فإنني أوثر صيانتها عنه، لان الفصاحة تنبئ عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها، ولها من هذه الأمور صفة نقص فيجب اطراحها» .

٦- أن لا تكون الكلمة قد عُبّر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وإن كملت فيها الصفات التي بيناها .

٧- أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة كما في كلمة (سويداواتها) في قول المتنبي :

إن الكريم بلا كرام منهم
مثل القلوب بلا سويداواتها

٨- أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك وثمّة مسألة ذكرها صاحب الطراز متعلقة بشروط فصاحة الكلمة وهي توالي الحركات فإذا حصل سكون الوسط كان اعدل ما يكون وأرق وإن توالى ثلاث فتحات فهو أخف من حصول الضم في وسطه والمعيار في ذلك هو عرضه على الذوق ولهذا فانه قد يتوالى ضمتان وهو غير ثقيل[١٣] كقوله تعالى ﴿فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ (القمر:٤٧) .

فصاحة التراكيب :

تحدث ابن سنان عن فصاحة التراكيب وذكر شروطها [١٤]:

١- أن يجتنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة بل هذا في التأليف أقبح .

٢- وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فهمه، ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه في بعض المواضع، ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه، ومن وضع الألفاظ موضعها حسن الاستعارة، وكذلك ألا تقع الكلمة حشوا، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي إن كان الكلام منظوماً وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثوراً من غير معنى تفيده أكثر من ذلك، ومن وضع الألفاظ موضعها

اللائق بها أن لا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضا، وأن لا يعبّر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح، وان لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بأهل المهن والعلوم .

أمّا فصاحة المركب عند القزويني فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد[١٥] .

مفهوم الغريب في القرآن الكريم :

لم يغفل الدارسون (القدامى والمحدثون) التطرق لهذا المفهوم، ونبدأ الآن بذكر آراء القدامى :

١- ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ): أفصح عن رأيه في مقدمة كتابه تذكرة الأريب في تفسير الغريب، فيقول: «هذا كتاب أشرت فيه إلى ما يغمض علمه ويدق على ذوي اللب فهمه ... وهذا الكتاب يتميز عن كل كتاب يُصنف في الغريب ؛ لان تلك تشتمل على غريب اللفظ فقط وهذا على غريب اللفظ والمعنى ...»[١٦].

٢- ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ): ذكر ابن الأثير أقسام الوحشي وهي عنده قسمان: غريب حسن، وغريب قبيح، وذكر أن أحسن الألفاظ ما كان مألوفا متداولا، وهو أيضا يتفاوت في درجات حسنه، فالألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام: قسمان حسنان، وقسم قبيح، فالقسمان الحسنان :أحدهما: ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا ولا يطلق عليه انه وحشي .والآخر: ما تداول استعماله الأول دون الآخر ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يُعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيا، وهو عندنا وحشي، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهي التي يطلق عليها (غريب القرآن) وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئاً وهو الذي يطلق عليه (غريب الحديث) وأمّا القبيح من الألفاظ الذي يُعاب استعماله فلا يسمى وحشياً فقط بل يسمى (الوحشي الغليظ)[١٧].

٣- أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ): قسم أبو حيان لغات القرآن على قسمين فقال: «لغات القرآن العزيز على قسمين قسم يكاد يشترك في معناه عامّة المستعربة وخاصتهم كمدلول السماء والأرض وفوق

وتحت، وقسم يختص بمعرفته من له اطلاع وتبحر في اللغة العربية وهذا الذي صنف أكثر الناس فيه وسمّوه: غريب القرآن»[١٨].

٤- ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ): «الغرابة هي أن يكون المعنى مما لم يُسبق إليه على جهة الاستحسان فيُقال: ظريف وغريب إذا كان عديم المثال أو قليله والقران العظيم كله سهل ممتنع ألفاظه سهلة ومعانيه نادرة وأسلوبه غريب قد مزجت القلوب عذوبته وحلت في العيون طلاوته وراق في الأسماع سماعه واستقر في الاطباع انطباعه فلهذا لم يسأم على ترداده ولم تملّه النفوس على دوام إيراده فكل آية منه حسنة المساق وكل كلمة منه عذبة المذاق وكل معنى منه دق ورق» [١٩].

٥- الزركشي (ت٧٩٤ه): كان النوع الثامن عشر من كتابه البرهان في(معرفة غريبه) أي غريب القرآن، وصدّر هذا النوع بقوله: «وهو معرفة المدلول، وقد صنّف فيه جماعة ... ومن أشهرها كتاب ابن عُزيِّز و(الغريبين) للهروي، ومن أحسنها كتاب (المفردات) للراغب» [٢٠].

٦- السيوطي (ت٩١١هـ): كان النوع السادس والثلاثون من كتابه الإتقان (في معرفة غريبه)، قال فيه: «وينبغي الاعتناء به، فقد اخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعا: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» ...وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا: «من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات». والمراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن» [٢١].

وننتقل الآن إلى آراء المحدثين في مفهوم غريب القرآن :

١- د. عبد الجليل عبد الرحيم: بعد أن ذكر رأي الرافعي المذكور آنفا قال: «وعلى هذا فليس غريب القرآن من الألفاظ المنتقدة التي تعوزها الفصاحة أو ينبو عنها السياق أو مما لا يدور على لسانهم ولا يستعملونه في كلامهم بل هو من الطريف الذي أضفى عليه القرآن من الرقة والشفافية ما به تتضح دقة المعاني القرآنية ومن جوامع الكلم الذي يحمل في ثناياه جدة المعاني القرآنية ولهذا أكد الله على تدبر القرآن»[٢٢].

٢- يوسف المرعشلي: عرف بعلم غريب القرآن اصطلاحا «هو العلم المختص

بتفسير الألفاظ الغامضة في القرآن الكريم وتوضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم، فهو مبحث لغوي متخصص أو هو الجانب اللغوي من علم التفسير» [٢٣].

٣- مصطفى صادق الرافعي: «وفي القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة فان القرآن منزه عن هذا جميعه وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس» [٢٤].

٤- عادل عبد الرحمن البدري: «ليس المراد بالغريب الوحشي المخل بالفصاحة والبلاغة وإنما يراد به الغامض من الكلام» [٢٥].

٥- د. ضاحي عبد الباقي: يقول عن غريب القرآن: «وهو ما يستغلق فهمه على القارئ أو السامع، ويختلف كمه وفق ثقافة الشخص بالعربية ومدى الإلمام بدلالة ألفاظها» [٢٦].

٦- د. محمد محمد داود: «ومجمل القول أن الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم هي ألفاظ نادرة وهي ليست بغريبة على علماء اللغة والعارفين بها، ورب كلمة غريبة عند إحدى قبائل العرب ليست بغريبة في قبائل أخرى، ومن هنا كانت غرابة الألفاظ على الصحابة ... وإذن فوقوع ألفاظ غريبة - على ندرتها - في القرآن الكريم لا ينفي معرفة العرب بهذه الألفاظ، ولا يتنافى مع الغاية من الرسالات السماوية وهي الهداية والإرشاد، وما يزال القرآن العظيم يُتلى فيفهم منه كل إنسان بقدره مهما كان حظه من العلم يسيرا وكائنا من كان عمره أو ثقافته أو بيئته» [٢٧].

٦- د. عبد الرحمن عميرة: «وليس المراد بالغريب ما كان غامض المعنى دون غيره وانما المراد به تفسير مفردات القرآن عموما وهو جزء من علم معاني القرآن لان علم معاني القرآن يقوم على بيان المفردات أولا ...» [٢٨].

ومسك الختام في آراء المحدثين رأي الأستاذ الدكتور صباح عباس السالم الذي أملاه علينا في إحدى محاضرات الدكتوراه (٢٠٠٩-٢٠١٠م)، فقال عن غريب القرآن [٢٩]: «هو ما لطف استعماله حتى خفي معناه على غير المتضلعين، ومنه ما نقله القرآن الكريم من معنى قديم

إلى معنى جديد أو طوره بحيث لا يدل إلا بقرينة، ومنه ألفاظ لم ينطق بها العرب قبل القرآن الكريم ومنه ما اقترضته العربية من لغات قبل نزول القرآن الكريم وعرفه بعض العرب وجهله بعضهم الآخر فهو غريب على من جهله» .

وخلاصة ما ذكره الدارسون أن مفهوم الغريب في القرآن الكريم يدور في المعاني الآتية:

١- الغامض أو غير المعروف عند المتبحرين باللغة والعارفين بها، وهم يجمعون على أن الأمر نسبي من حيث المكان والزمان .

٢- ما تداول استعماله الأول دون الآخر.

٣- جدّة المعنى .

٤- الألفاظ التي لم ينطق بها العرب قبل القرآن .

٥- مـــا اقترضته العربية من لغات قبل نزول القرآن الكريم وعرفه بعض العرب وجهله آخرون .

ونرى أن أغلب هذه المعاني - إن لم نقل جميعها- مرتبط بالمعنى اللغوي للغريب، فقد مر بنا أن الغريب هو الغامض، البعيد، كما مر بنا أن الغريب من الشعر هو الحدث في الرأس لم يكن قبل .

إذن – وبعد كل هذا – لا علاقة لهذه المعاني (الخاصة بغريب القران) بما هو خلاف الفصاحة، ولو أردنا أن ندون ما ذكره القدامى والمحدثون بما يخص تبجيلهم ومدحهم للغة القران وأسلوبه البليغ لاحتجنا إلى عشرات الصفحات إن لم نقل عشرات المجلدات، ونكتفي بذكر بعض ما قالوا وعلى النحو الآتي:

١- ابن قتيبة: يتحدث عن القرآن الكريم قائلا: «وجعله متلوّا لا يمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الآذان، وغضا لا يخلق على كثرة الرد وعجيبا لا تنقضي عجائبه ...»[٣٠]

٢- الرماني: ذهب الرماني إلى أن التأليف على ثلاثة أضرب: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا، ويرى أن المتلائم في الطبقة العليا القرآن كله[٣١].

٣- الوليد بن المغيرة: «والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر ...»[٣٢].

٤- يحيى العلوي اليمني: عقد العلوي في الجزء الثالث من الطراز فصلا في بيان الوجه في إعجاز القرآن واختار منها رأيا فقال: «والذي نختاره في ذلك ما عُوّل عليه الجهابذة من أهل هذه الصناعة الذين ضربوا فيها بالنصيب الوافر واختصوا بالقدح المعلى والسهم القامر، فإنهم عوّلوا في ذلك على خواص ثلاث هي الوجه في الإعجاز، الخاصة الأولى الفصاحة في ألفاظه ...الخاصة الثانية البلاغة في المعاني ...الخاصة الثالثة جودة النظم وحسن السياق ...»[٣٣].

٥- السيوطي: يتحدث في اقتراحه عن السماع فيقول: «أمّا القرآن فكل ما ورد انه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا»[٣٤].

٦- بنت الشاطئ: «ثم تبقى الكلمة القرآنية فوق ذلك كله، متفردة بجلالها وإعجازها»[٣٥].

٧- د. محمد ضاري حمادي: «إن العربية لم تشهد ولن تشهد ما يدنو من القرآن فصاحة وبلاغة»[٣٦].

الخاتمة

تطرق هذا البحث إلى مفهوم الغريب في القرآن الكريم، وقد مهّد له الباحث بما تعنيه الغرابة في المعجمات وعند علماء البلاغة، وقد خلص البحث إلى نتائج عدة أبرزها أن معنى الغريب الذي في القرآن الكريم لا علاقة له بما هو خلاف الفصاحة المعروف عند البلاغيين، وان القرآن الكريم بريء من عيوب الألفاظ وعيوب التراكيب، وقد درجنا بعض النصوص التي تشهد بذلك وتؤكد أن القرآن الكريم – كان وما

يزال - حجة ومعجزة عند البلاغيين .

ثبت المصادر والمراجع :

الكتب المطبوعة

- القرآن الكريم
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤م .
- أساس البلاغة، الزمخشري، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٨٥،٣م.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، (د.ت) .
- الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط ٢، ٢٠٠٦م .
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، قدّم له وبوبه وشرحه: د. علي بوم لحم، منشورات دار الهلال، بيروت، ط الأخيرة، ٢٠٠٦ م .
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ١٩٧٢ م .
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧ م .
- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥ م .
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م .
- التبيان في تفسير غريب القرآن، شهاب الدين المعروف بابن الهائم، تحقيق: د. ضاحي عبد الباقي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣ م .
- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: سمير طه المجذوب، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م .
- تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ابن الجوزي، تحقيق: طارق فتحي السيد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ت) .
- التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت) .
- تفسير غريب القرآن، محمد بن عزيز أبو بكر السجستاني، تحقيق: د.

عبد الرحمن عميرة، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، مصر، (د.ت).

- الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية، د. محمد ضاري حمادي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠٠٩م .

-سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، اعتنى به وخرج فهارسه: د. داود غطاشة، دار الفكر، الأردن، ط١، ٢٠٠٦ م .

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م .

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى العلوي اليمني، تحقيق: عبد المجيد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢ م .

- العمدة في غريب القرآن، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، سوريا، ط١، ١٩٨١م .

- العين (ترتيب)، الخليل بن احمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وزميله، تصحيح اسعد الطيب، انتشارات أسوة، مطبعة باقري، قم، ط١، ١٤١٤ه.ق .

- غريب القرآن المنسوب إلى الشهيد زيد بن علي بن الحسين، تحقيق: محمد جواد الحسيني الجلالي، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ط٢، ١٤١٨ ق، ١٣٧٦ ش .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني المعروف بحاجي خليفة، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٩م .

- كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم نظرات فيما أشير من شبهات وأوهام، د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٧م .

- لغة القران الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، ط١، ١٩٨١م .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق: الشيخ: كامل محمد محمد عويضة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م .

- مختصر البيان في غريب القرآن، عادل البدري، مؤسسة الإمام صاحب الزمان، مطبعة أسوة، قم، ط١، ١٤٢١هـ .ق .

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت–لبنان، (د.ت).

- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. احمد مطلوب، مكتبة لبنان – بيروت، إعادة طبع ٢٠٠٠م .
- مقاييس اللغة، ابن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م .

المخطوطات

محاضرات الدكتور صباح عباس السالم على طلبة الدكتوراه جامعة بابل كلية التربية (٢٠٠٩-٢٠١٠ م).

هوامش البحث

(١) العين: ٣/ ١٣٣٢-١٣٣٥ .
(٢) الصحاح: ١/١٩١-١٩٣ .
(٣) مقاييس اللغة: ٧٨٦ .
(٤) أساس البلاغة :٢/١٥٩ .
(٥) المصباح المنير :٢/٤٤٤ .
(٦) تاج العروس :٢/ ٢٧٤-٢٨٨ .
(٧) كشف الظنون :٢/١٩٩ .
(٨) التعريفات: ١٦١ .
(٩) غريب القرآن المنسوب إلى الشهيد زيد (مقدمة المحقق): ٦٠ .
(١٠) ينظر: محاضرات الدكتور صباح السالم على طلبة الدكتوراه جامعة بابل ٢٠٠٩-٢٠١٠ م .
(١١) ينظر: سر الفصاحة :٥٨-٨٤ .
(١٢) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٨ .
(١٣) ينظر: الطراز: ١/ ٦٠ .
(١٤) ينظر: سر الفصاحة: ٩٢-١٦٠ .
(١٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٩ .
(١٦) تذكرة الأريب: ١٣ .
(١٧) ينظر: المثل السائر: ١/١٥٨-١٦٠ .
(١٨) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: ٤٠ .
(١٩) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٥٣٧ .
(٢٠) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٢٩١ .
(٢١) الإتقان: ١٧٢ .
(٢٢) لغة القرآن الكريم: ٤٥٨ .
(٢٣) العمدة في غريب القرآن (مقدمة المحقق): ١٤ .
(٢٤) تاريخ آداب العرب: ٢/٥٨ .
(٢٥) مختصر البيان في غريب القرآن: ١/ ٧-٨ .
(٢٦) التبيان في تفسير غريب القرآن (مقدمة المحقق): ٧ .
(٢٧) كمال اللغة القرآنية: ١٣٤-١٣٥ .
(٢٨) تفسير غريب القرآن للسجستاني (مقدمة المحقق): ٦ .
(٢٩) محاضرات الدكتور صباح السالم على طلبة الدكتوراه (٢٠٠٩-٢٠١٠م) .
(٣٠) تأويل مشكل القرآن :١١.
(٣١) ينظر: سر الفصاحة: ٩٣ .
(٣٢) الجامع لأحكام القرآن :١٩/٥٧ .
(٣٣) الطراز: ٣/٢٢٤ .
(٣٤) الاقتراح:٢٤ .
(٣٥) الإعجاز البياني للقرآن: ٥٠٨ .
(٣٦) الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية :٢٨٤ .

مطلع الفجر
إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر
سلام هي
١٤٣٢
عام

آية (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ) في سورة البقرة

قراءة سياقية

م.م. رافد عبد الكاظم سالم

يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما
كتبه الفقير محمد مشش غفر الله ذنوبه

الملخص:

تقف هذه الورقة على توظيف مفهوم السؤال في سياق الإنفاق، والحث عليه، وبيان موارده، وكان ذلك في سياق سورة البقرة المباركة؛ إذ تكلَّمت آيتها الخامسة عشرة بعد المئتين على موارد الإنفاق فذكرت مستحقيه من الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل...؛ فجاءت هذه الورقة لتتأمَّل في ذلك على نحو سياقي ...

واللافت أنَّ هذا الإنفاق قد تجلَّى التعبير عنه بمفهوم «خير»؛ وذلك إشارة إلى تكريس مفهوم عدم المنِّ، وعدم الأذى عند الإنفاق... فضلًا عن إشاعة روح التكافل بين أفراد الجماعة البشرية؛ وصولًا إلى خلق حالة من الحب، والشعور بالأنس والأمن ...

توطئة:

لقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالسؤال عمَّا لا يعلمون؛ فقال ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]؛ لذلك ترى المسلمين في الصدر الأول كانوا يسألون الرسولﷺ عمَّا لا يعلمون، وعمَّا يشتبه عليهم. وهذا ما نجد مصاديقه في القرآن الكريم من خلال كلمة (يَسْأَلُونَكَ)؛ إذ وردت هذه الصيغة خمس عشرة مرة في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضوعاً .

فقد جاء قسم منها بغير الواو، وآخر بالواو، والسبب أنَّ سؤالهم عن تلك الحوادث وقع في أحوال متفرقة، فلم يؤت معها بحرف عطف؛ لأنَّ كل واحد من تلك السؤالات سؤال مستقل. وسألوا عن المسائل الأخر في وقت واحد؛ فجيء بحرف الجمع[2] .

و كان «الإنفاق» من بين ما كان مسؤلًا عنه في سورة البقرة المباركة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٥). فجاء ذلك ليحدد الإنفاق، وطرائقه، ومستحقيه...، في أجواء من التعاون والألفة...

وكذلك فقد اهتمت السنة النبوية اهتماماً كبيراً بالسؤال والحث عليه، لإيضاح ما أبهم على الأمة، فقال رسول اللهﷺ: (العلم خزائن الله ومفتاحه السؤال فسألوا يرحمكم الله فإنَّه يؤجر فيه أربعة السائل والمعلم والمستمع والمحب له) [3] .

ثانيًا: سبب نزول الآية المباركة:

ورد في سبب نزول الآية المباركة قولان:

أحدهما: قال ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في رواية أبي صالح[٤] نزلت في عمر بن الجموح الأنصاري[٥] . وكان شيخاً ذا مال كثير فقال يا رسول الله بماذا أتصدَّق؟ وعلى من أتصدق؟ فانزل الله هذه الآية[٦].

والآخر: جاء في زاد المسير (ما رواه عطاء[٧] عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: إنَّ رجلاً قال للنبيﷺ: إنَّ لي ديناراً فقال أنفقه على نفسك، فقال: إنَّ لي دينارين، فقال: أنفقها على أهلك، فقال: إنَّ لي ثلاثة، فقال: أنفقها على خادمك، فقال: إنَّ لي أربعة، فقال: أنفقها على والديك، فقال: إنَّ لي خمسة، فقال: أنفقها على قرابتك، فقال: إنَّ لي ستة، فقال: أنفقها في سبيل الله، وهو أحسنها، فنزلت هذه الآية) [٨] .

و أميل إلى القول الأول لأنَّه أكثر توافقًا مع الآية المباركة، وهو الأمر الذي شغل المسلمين كثيراً فسألوا لأجله، وهذا لا يمنع أن يكون السبب الآخر صحيحًا أو مطلوبًا في هذا السياق.

ثالثًا: علاقة الآية المباركة بما قبلها:

وجه اتصال الآية المباركة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٩] ففي هذه الآية المباركة دعوة إلى الصبر على الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي الآية المباركة محل البحث بيان لوجه النفقة في سبيل الله سبحانه، وكل ذلك دعوة إلى فعل البر[١٠] .

رابعًا: النسخ:

اختلف العلماء في هذه الآية المباركة هل هي منسوخة أو محكمة ؟ فقد جاء في تفسير ي جامع البيان والتبيان ما يشير إلى أنَّها منسوخة بفرض الزكاة[١١] . وقيل إنَّها منسوخة بآية الصدقات في براءة[١٢]. وذهب الحسن البصري إلى أنَّها غير منسوخة [١٣]، وهذا ما أيده الشيخ الطوسي إذ قال: (وهو الأقوى لأنَّه لا دليل على نسخها) [١٤] .

وجاء كذلك في نواسخ القرآن (أنَّ الآية عامة في الفرض والتطوع فحكمها ثابت غير منسوخ؛ لأنَّ ما يجب من النفقة على الوالدين والأقربين إذا كانوا فقراء لم ينسخ بالزكاة،

وما يتطوع به لم ينسخ بالزكاة، وقد قامت الدلالة على أنَّ الزكاة لا تصرف إلى الوالدين والولد . وهذه الآية بالتطوع أشبه، لأنَّ ظاهرها أنَّهم طلبوا بيان الفضل) [١٥].

وأميل إلى إحكامها لعدم توافر أدلة تثبت نسخها.

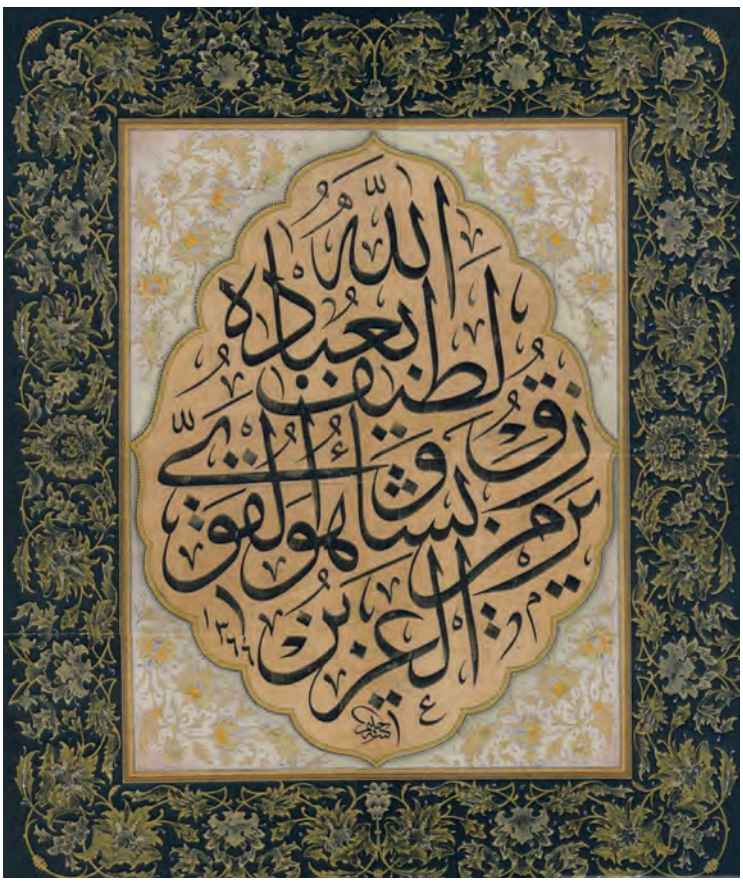

خامسًا: المعنى العام:

ذكر القرآن الكريم في آيات كثيرة الإنفاق والبذل في سبيل الله تعالى، وحث المسلمين بطرائق كثيرة على الإنفاق، والأخذ بيد الضعفاء. ونلحظ أنَّ الجزء المهم في قضية الإنفاق جاء في سورة البقرة؛ لأنَّها نزلت في مدينة رسول الله ﷺ ونتيجة هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة؛ فإنَّ كثيراً من المهاجرين الذين تركوا كل غالٍ ونفيس بها متوجّهين صوب المدينة أخذهم عشق الإسلام ورسوله الكريم ﷺ كانوا يعيشون بضيق في المدينة عندها أصدر الباري عز وجل في مثل هذه الظروف أوامر متتالية حول الإنفاق ليكون نوعًا من التكافل [١٦] .

(من خير)

المال الذي سأل الصحابة من أجله الرسول ﷺ فأجابهم الله تعالى عنه بما جاء في هذه الآية المباركة [١٧].

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ «فهذا يتناول القليل والكثير لشمول اسم الخير لجميع الإنفاق الذي يطلب به وجه الله» [١٨] .

المُنفَق عليهم :

أمَّا الجزء الآخر من الآية المباركة فجاء فيه بيان المستحقين لهذا الإنفاق، فيبدأ بالوالدين و الأقربين .

وقد روي عن النبيﷺ إخبار في البدء بالأقرب فالأقرب في النفقة. ومن ذلك حديث ابن مسعود عن النبيﷺ قال: (اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول...) [١٩] .

والمراد بالوالدين: الأب والأم، والجد والجدة وإن علوا؛ لأنَّهم يدخلون في اسم الوالدين . أمَّا الأقربون فهم أقارب المعطي، أي صلة الأرحام التي أوصى الله تعالى بهم في كتابه العزيز[٢٠] .

ثم ينتقل إلى (اليتامى). واليتيم في اللغة هو كل طفل فقد أباه، ولا يقال لمن فقد أمه من بني الإنسان أو غيره يتيم، بل يقال له: عجِّي، إذ يربى بتغذيته بلبن غيرها، كما يقال لفاقد أبويه معاً لطيم، ولم يرد اصطلاح خاص في اليتيم فالمعنى اللغوي هو الاصطلاحي[٢١].

و أمَّا (المساكين) . فالمسكين: هو المحتاج الذي شأنه أن تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى[٢٢] .

وإنَّ هناك فرقاً بين الفقير والمسكين؛ فالفقير باصطلاح الفقهاء هو من لا يملك قوت سنته لنفسه ولعائلته بالفعل أو بالقوة. في حين أنَّ المسكين أسوء حالاً من الفقير، كمن لا يملك قوته اليومي[٢٣] .

وأخيرًا تذكر الآية المباركة (ابن السبيل). والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبُل. ويعني كذلك طريق الحق ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢٤]. وقيل لسالكه سابل . وجمعه سابلة، و(ابن السبيل) المسافر البعيد عن منزله. «ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيراً كان أو شرًا»[٢٥].

و قوله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي ما تفعلوا من خير فإنَّ الله تعالى يُجازي عليه، من غير أن يضيع منه شيء؛ لأنَّه عليم لا يخفى عليه شيء[٢٦].

ويستفاد من الآية المباركة حثها على الإنفاق، والتكافل[٢٧]؛ لأنَّه أمر جميل وحسن. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يأتي استعمال كلمة (خير) على نحو مطلق؛ للإشارة بها في هذا السياق إلى أنَّ الإنفاق ينبغي أن يكون غير مصحوب بأذى . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ [٢٨] ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢٩] .

الهوامش

(١) النحل / ٤٣ .

(٢) ينظر: المسائل العكبرية – للإمام محمد بن محمد بن نعمان بن المعلم أبي عبد الله العبكري البغدادي الملقب بالمفيد (ت٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الخرساني، ط ٢، دار المفيد ١٤١٤ – ١٩٩٣، ص .

(٣) مسند الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت١٢٢)، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص٤٤٥ .

(٤) أبو صالح السمان ذكوان المدني شهد حصار عثمان ـ رضي الله عنه ـ وسمع من ابن عباس وغيره . وعدوه من الصحابة، (ت ١٠١ هـ) ينظر: تذكرة الحفاظ – للإمام أبى عبد الله شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ط١، دار أحياء التراث العربي، ص١ / ٨٩ .

(٥) عمر بن الجموح، صحابي قاتل في أُحد، على الرغم من أنَّ لديه العذر الشرعي . وكان أعرج، لكنَّه أصر على القتال والشهادة في سبيل الله، بعد أن أذن له الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم .ينظر: الجهاد والشهادة، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، كربلاء المقدسة – العراق، ص ٥-٦ .

(٦) ينظر: أسباب نزول الآيات، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨)، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨، ص٤-٤١ . ومجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٢/٧٠.

(٧) هو أبو محمد عطاء بن يسار أبو محمد المدني مولى أم المؤمنين ميمونة ـ رضي الله عنها ـ الفقيه الواعظ (ت١٠٣ هـ) ينظر: تذكرة الحفاظ ١/٩٠

(٨) زاد المسير في علم التفسير – أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)١/ ١١١-٢١٢، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، ط ١، ١٤٠٧ – ١٩٨٧، دار الفكر، بيروت – لبنان، ص١ / ١١١ – ٢١٢ .

(٩) البقرة / ٢١٤ .

(١٠) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي ٢/٢٠٠

(١١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تقديم خليل الميس / ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ١٩٩٥، ص ٢/٤٦٧، التبيان في تفسير القرآن ٢/٢٠٠.

(١٢) ينظر: نواسخ القرآن، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٧٩ .

(١٣) هو الحسن بن أبي الحسن البصري الأنصاري ثقة فقيه فاضل مشهور (ت ١١٠هـ) . ينظر: صفوة الصفوة، ابن الجوزي، تحقيق: احمد بن علي، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م، دار الحديث، القاهرة – مصر ٢٠٠٠، ص ٢ / ١٣٧ .

(١٤) التبيان في تفسير القرآن ٢٠٠/٢

(١٥) نواسخ القرآن- ابن الجوزي ٧٩ .

(١٦) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ط١، الأمير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ٢٠٠٥، ص٢ / ٦٣.

(١٧) ينظر: جامع البيان عن تأويل أي القرآن ٤٦٧/٢ .

(١٨) أحكام القرآن – أبو بكر بن علي الرزاي الجصاص (ت ٣٧٠ هـ)، ضبط: عبد السلام محمد علي شاهين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص١ / ٣٨٧ .

(١٩) اخرج البخاري بلفظ آخر (اليد العليا هي المنفقه والسفلى هي السائلة) باب «لا صدقة الا عن ظهر غنى». صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط٢، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ح ١٤٢٧ /٤٠٠ .

(٢٠) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، ١٩٩٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص٢ / ٥٣١ .

(٢١) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤٠٥، (يتم) ١٢ /٦٤٥ .

(٢٢) المصدر نفسه ٦٠/٥، مادة (فقر) .

(٢٣) ينظر: رسالة توضيح المسائل – الشيخ محمد تقي بهجت ٣٥٨، منشورات شفق قم المقدسة، ص٣٥٨ .

(٢٤) الزخرف ١٠/٤٣ .

(٢٥) مفردات ألفاظ القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٢، منشورات طليعة النور، (سبل) ٣٩٥ .

(٢٦) التبيان - للطوسي ٢٠١/٢.

(٢٧) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٦٣/٢ – ٦٤ ، الإنفاق في سبيل الله، عز الدين بحر العلوم، مطبعة العاني، بغداد ١٩٨٨، ص١٢٢ .

(٢٨) البقرة ٢٦٤/٢ .

(٢٩) البقرة ٢٦٥/٢ .

صورة الكافر
في الخطاب القرآني

دراسة سيميائية

د. مهدي راضي عبد السادة

يس والقرآن الحكيم

الملخص

لقد أَطلَقَ الخطابُ القرآنيُّ مفهوم (الكافر) على فئةٍ من النَّاس في مواضعَ متعددة، وهو يقابل مفهوم (المؤمن). وذلك يعني اتخاذهم طريقاً مخالفاً لما أراده الله سبحانه وتعالى. وقد بيَّنَ لهم ربُّهم طريقَ الإيمانِ والسَّعادة، وحذَّرهُم من طريق الكُفر والشَّقاء.

وحين يتفضَّلُ الخالقُ - جَلَّ وَعَلا - على الإنسانِ بنعمةِ الوجودِ، بعد أَنْ كان عَدَماً، فإنَّ هذا الوجودَ بذاته، علامةٌ سيميائية على نِعَمٍ أُخرى متتابعة، فالإيجاد خطوةٌ تتبعها خُطُوات.. غيرَ أَنَّ هذا الامر، مرتبطٌ بالغاية الكُبرى من وراءِ الخلقِ، حين يكون (الإنسانُ) مكلفاً بتأْديةِ مهمَّةِ (الاستخلاف) .

وكانت هنالك مجموعة مفاهيم يتكلم عليها السياق القرآني في إطار المفهوم العام للكفر، وهذه المفاهيم هي (الإلحاد)، و(الإسراف)، و(المكر)، و(الشرك)، و(النفاق)، وكانت هذه المفاهيم تأتي لتشكل المفهوم الأوسع، وترسم ملامح صورة الكافر.

المدخل

لقد انطلق الخطابُ القرآنيُّ من الجذر اللُّغوي للفعل (كفر) الذي يعني في اللغة: (سَتْرُ الشيء)[1]، وقد تبين أَنَّ هذا الخطاب المقدَّس، حين يطلق صفة الكفر على (الانسان) بشكل عام، فيقصد بها معناها الأصلي (السَّتْر) كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2]، غيرَ أَنَّ ذلك، سرعان ما أَصبح مصطلحاً قرآنياً في المنظومة الفكرية الاسلامية بمعنى خاص؛ إِذْ أَصبحَ يطلقُ على الإنسان الذي ينكر وجود الله تعالى، أَو على المشرك، وهذا مما لم يكن مذكوراً بهذا المعنى في لغة العرب . لقد أَسَّس الخطابُ القرآنيُّ لنفسه، مجموعةً من المصطلحات كي يستعين بها على شرحِ مفاهيم الإيمانِ والضَّلالة وغيرها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[3]، إِنَّ عَدَمَ الاعتراف بما يعبُدُه الكافرون، تمييزٌ واضحٌ بين خطَّينِ متنافرين، لا يُمكن أنْ يلتقيا، وهذا التَّنافرُ مدعاةٌ لبناء أُسسٍ فكريةٍ، وعقائديةٍ، وسلوكيةٍ تختلف عن أُسس الكافرين جملةً وتفصيلاً.

لقد قدَّم الخطابُ القرآنيُّ مفهومَ (الإلحاد)، بوصفه عَدَمَ الاعتراف بوجود خالقٍ لهذا الكون، على أَنَّه درجةٌ متقدمةٌ من درجات الكفر بالله تعالى، وقد اتخذ الخطابُ مع الملحدين طريقاً عقلياً فأَثبت وجود الآياتِ الدالة على خلق الباري-عزَّ وجلَّ- لها، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾[4]. إِنَّ تعدُّدَ النِّعَمِ الالهيةِ، وكثرتها يجعل تعدادها أَمراً مستحيلاً، فلا يستطيع أَيُّ أَحدٍ احصاءها غير خالقها، وأَنَّ ذكرها جميعاً لا يستوعبه كتابٌ واحدٌ، ولذا يكتفي الخطابُ القرآنيُّ بذكر نماذجَ منها ليس إلَّا.

إِنَّ الظِّلَ علامةٌ على وجود الشَّمس، حين يحجبها شيءٌ.. وما أَقربَ هذا التعبير من مفهوم (الكُفر)، الذي يعني (سَتْرُ الشيء) فيكون المطلوب، إزالة الحاجبِ عن الشمس، حتَّى تصلَ بأَشعَّتِها إلى كلِّ مكان، ووجود الشمس بضوئها السَّاطع، دليلٌ على وجود

ذلك الظِّل فتبدو المقارنةُ بين الشَّمس والظِّل؛ لإقامةِ صورةٍ حيّةٍ، ومشهد متحرِّك لاستحضار الحياة العقلية التي يعيشها من أَغرق نفسه في ظلمات الكفر، ومع ذلك فإنَّ الباري - عزَّ وجلَّ - يستطيع أنْ يتركه في حاله هذا، غيرَ أَنَّ رحمته بعباده، تقضي بإرسال الرُّسُل، وتوجيه العقول إلى جادَّة الصَّواب والهداية.. ثمّ إنَّ الإيقاعَ المتقارب بين لفظة (الظِّل) و (الظِّلال) عند الجمع، وبين (ضلَّ) الدَّالة على عدم الهداية و(الضَّلال)، كلُّ ذلك يدفع إلى أَنَّ هذه الصورة، تمثِّل المعادلَ الموضوعيَّ لحالة الكافر التائه، الذي يعيش بعيداً عن ضوء الحقيقة السَّاطع. فيكون (الظلُّ) ومدُّه ،أَو سكونه، ثمَّ قبضه علامةً سيميائيةً دالةً على حالةٍ إنسانيةٍ، مرّ بها كثيرٌ من النَّاس حين يتركون الهدى ويستحبون الضَّلالة.

ثم يسترسلُ الخطابُ للتذكير بِنِعَم أُخرى، كنعمة اللَّيل، والنَّوم، وتخصيص النهار للحركة والعمل، أو حركة الرِّياح حين تكون سبباً في نزول المطر وإحياء الارض وسقي الأَنعام والناس. إذن فجميع هذه التفاصيلِ تبعثُ النَّشاط والحركة في الذِّهن؛ لتدبُّر المعاني العميقة التي يبثها الخطابُ القرآنيُّ من أَجل الوقوفِ على حقيقةٍ خطيرةٍ، مفادها أَنَّ الإنسانَ حين ينكر وجود (إلهٍ) لهذا الكون، واحدٍ لا شريك له، يظلم بذلك (الإله) الحقَّ ويُعْرِض عنه؛ فيظلم نفسه، وكلُّ ذلك لأَجلِ وساوس الشَّيطان.

لقد قدّم الخطابُ القرآنيُّ شخصيةَ (المُلْحِد) المُنْكِر لوجود الله تعالى، واضحةً من خلال عددٍ من النماذِج، لَعَلَّ من أَشهرها، وأوضحها شخصية (فرعون) وتناول الكيفية التي اتّبعها في صدِّ النَّاس عن الإيمان بالله، وتنصيب نفسه (إلهاً) بدلاً عنه.

وقد قدَّم هذا التوصيفَ من خلال طغيانِه، وإفسادِه في الأَرض، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٥]، إنَّ إطلاقَ صفةِ العلوّ والإسراف، من أَبشعِ الصِّفات التي يتضح من خلالها، ابتعاد هذا الإنسان عن ربِّه الحق، وجعل نفسه موجوداً مستقلاً في قبال الله تعالى، أو كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٦].

إنَّ الدلالاتِ المنبعثةَ من التَّوصيف المتقدم، يوضح بجلاءٍ طبيعةَ شخصيةِ (فرعون)، وقد كان هذا «الطغيان سبباً في صدِّ كثيرٍ من النَّاس عن الإيمان باللّه، وبرسالته الى موسى عليه السلام، وحتَّى القلّةُ التي آمنت به كانت تعيش في رعب دائم من فرعون وأَعوانه»[٧]، فهو قد جعل النَّاس (شِيَعاً)؛ أي جماعات، أو إنَّه قد أَوجد (الطبقية) في المجتمع؛ بحيث تكون لطبقةٍ معينةٍ امتيازاتٌ خاصةٌ، على حساب طبقةٍ مسحوقةٍ مستضعفةٍ، فضلاً عن كثرة القتلِ التي أَصبحت سمةً لبني إسرائيل في عهده، حين يقتل أَبناءهم، ورجالَهم ويستبقي نساءَهم للخدمة، وذلك هو الإفساد بعينه.. وأمام هذا الجوِّ المرعبِ المملوءِ بالخوفِ، نجد أَنَّ الارادةَ الالهيَّةَ تقضي بأن «تُحوَّل ثقل النعمة من آل فرعون الاقوياء العالين، إلى بني إسرائيل الأَذلَّاء المستضعفين وتبدّل من الأَسباب ما كان على بني إسرائيل لهم، وما كان لآل فرعون عليهم»[٨]. إنَّ الخطابَ القرآنيَّ «يمسك بالأَحداثِ، ويحرِّك الاشخاص، وينقل ما يقولونه مسبوقاً بـــ قال.. فهو المهيمن على فنِّ القصِّ.. وهو من طبيعةِ الفنِّ القصصي المسرود الذي عَرَفته البشريةُ فيما بعد.. ولقد سبق القرآنُ الكريمُ محاولاتِ البشرِ في الهيمنة على النص القصصي»[٩].

إنَّ تجسيدَ شخصيةِ فرعون من خلال استعراضِ أَفعالهِ، وأقوالهِ يؤكِّد البعدَ الرَّمزيَ للشخصية الشَّاذة، التي تحاول أَنْ تفعل أَيَّ شيءٍ؛ من أَجل قمع الصوت (الآخر) الذي لا يتناغم، ولا ينسجم مع المفهوم العام للإسراف والظلم، فتبدو هذه

الشخصيةُ نافرةً عن المستوى الإنساني الذي أَوْدَعَه اللّهُ تعالى في خلقه، فتكون الرحمةُ بين الناس، الوجه الأبرز في وجودهم، ويبدو أَنَّ تكاثرَ النِّعم، قد يدفع بالإنسانِ إلى الطغيان، حين يرى كلَّ شيءٍ مسخراً له، وفي خدمته فيأمر النَّاس وينهاهم، ولا يجد غيرَ الطاعة العمياء منهم فيظن -واهماً- أَنَّ كلَّ ما تقع عليه عيناه مُلْكٌ له كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[10] .. إنَّها العزةُ بالإثم، حينَ يعيشُ فيها الطاغيةُ، ويتناسى كلَّ ما من شأنه أَنْ يعكِّرَ عليه صفوَ مِزاجه، ويصلُ الأَمْر به إلى أَنْ تكونَ أَقوالُه وأَفعالُه، هي القانون الذي يجب أَنْ يسيرَ عليه الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[11]، إنَّه لا يقبل النصيحةَ، وإن جاءت من المقرَّبين، فلا بدَّ أَنْ يظهرَ بمظهر العالم بكلِّ دقائقِ الأُمور، وادِّعاء التخطيط الأَمثل للمستقبل، واستشراف الأَحداث قبلَ وقوعها، وانَّ ما يقوله هو الحقُّ المطلقُ، ولا سبيلَ إلى ردِّه أو تغييره، وذلك هو حال الطغاة على مرِّ التَّأريخ، فمواصفاتهم التي يقدِّمُها الخطابُ القرآنيُّ، لم تتغير إلى يومنا هذا، ومن هنا تأتي أَهميةُ التَّركيز على بعضِ الشَّخصياتِ، ومنها شخصية فرعون على وجه الخصوص، إذْ يمثل الصورةَ القبيحةَ للإنسان، حين يتمرد على كلِّ شيءٍ يمثل الحقيقة والفضيلة، ويصل به الأَمرُ إلى استعباد النَّاس، وترتيب عقائدِهم وفق الوجهةِ التي يريدها هو، وحين يُؤمن أحدُهم بمعتقدٍ آخرَ، فعليه أَنْ يقدِّمَ حياتَه ثمناً لذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[12].

لقد وقعت الحادثةُ بعدَ أَنْ تغلَّبَ موسىعليه السلام على سحرةِ فرعونَ ورأوا ما أَظهره لهم من حقيقةٍ لا تشبه خدَعهم وسحرهم، فأيقنوا أَنَّ ما جرى أَمامهم ليس من جنسِ سحرِهم، وإنَّما هو نابعٌ عن قوَّةٍ هائلةٍ لا يمكن أَنْ تقارنَ بقوّة فرعون، فجاء إيمانُهم عقب الحادثة بشكلٍ مباشرٍ، مما دَعَا فرعون إلى الغضب، فهؤلاء من أَعوانه المقربين- كما يبدو- ولهم المنزلة القريبة منه، ويشكِّل إيمانُهم بموسىعليه السلام فضيحةً أَمامَ تلك الجموع الغفيرة التي اجتمعت، لمشاهدة ما يجري بين موسىعليه السلام، والسَّحرة الذين اجتمعوا بأَمرٍ من فرعون، حتَّى يُبطِلَ أَمامهم مزاعمَ من يدَّعي وجود (إله) آخر غيره، وقد حدث عكس ما كان يتوقعه تماماً، فقد افتضح أَمر السَّحرة وكذبهم، ومما زاد في حَرَجِ موقفه ايمانُهم بدعوةِ موسىعليه السلام «إنَّ فرعون ينكِرُ عليهم أَنْ يؤمنوا قبلَ أَن يأذن لهم.. كأَنَّ عمليةَ الإيمان تحتاج الى الإذن الفرعوني، كما يحتاج إليها أَيُّ عملٍ آخر، يتعلق بقضايا الإدارة والحياة.. وتلك هي سيرةُ الطغاة، وعقليتهم في كلِّ زمانٍ ومكان»[١٣] وبدلاً من أَنْ يتأملَ في السِّر الذي جعل السَّحرةَ ينقلبون هذا الإنقلاب المفاجئ، فإنَّه يتخذ طريقَ الطغيان، ورفض علامات الهداية فيأمر بقتلِ هؤلاءِ بطريقةٍ قاسيةٍ كما في قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٤].

إنَّ طريقةَ قتلِ السَّحرةِ لا تخلو من جانبٍ علاماتي واضح، فإنَّ فرعونَ يحاول أَنْ يستبقَ الأَحداثَ، ويقطع الطريق على من يتأثر بإيمانِ السَّحرةِ من النَّاس؛ فيأمر أَمامهم بقطع أيديهم وأَرجلهم من خلاف ؛ أَي أَنْ تقطعَ اليدُ اليمنى مع الرِّجل اليسرى، أَو اليد اليسرى مع الرِّجل اليمنى.. وهكذا، وفي ذلك النَّوع من العقوبة، ما يحجز كثيراً من النَّاس، بسبب الرُّعب الذي بثَّه فرعون في قلوب الجماهير، وهي تسمع وترى ما يحدث، ثم لا يكتفي بذلك حتَّى يصلبوا جميعاً، ويجعل بذلك (الإيمانَ) جريمةً يعاقب عليها المؤمن أَشدَّ العقاب. إنَّ الكفاءَةَ الإنجازية التي يمثلها فرعون تتمظهر من خلالِ إصراره على الطُّغيان والكفر، على الرَّغم من كلِّ الآياتِ والمعجزاتِ التي شاهدها بعينه، ولم يكتفِ بذلك بل يحاول قتلَ موسىعليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[١٥]، غيرَ أَنَّ اللّٰه تعالى يُنَجّي رسولَه، ويحفظه من كيدِ فرعونَ وجبروته.

ولا ينسى فرعونُ أَنْ يَظهرَ بمظهرِ الخائفِ على دينِ قومِهِ من التَّحريفِ، أَو التغيير من صاحب الدَّعوة الجديدة، لِئَلا يظهرَ الفساد وينحرف الناس، فهو يلجأُ إلى الجانبِ الاعلاميِّ من أَجلِ كسبِ صفوف النَّاس إلى جانبه، فقد يتساءل بعضٌ من قومه، عن سرِّ العداءِ بينه وبين موسى عليه السلام فيأتي جوابُه واضحاً بدافع الحرصِ على دين قومه وحجبهم عن الفساد، ويصل الأَمْرُ به إلى إظهار نوعٍ جديدٍ من المكر والحيلة، حين يحاول التشويشَ على عقولِ قومِهِ وإظهار نفسه بمظهر الإنسانِ المنصف الذي يقتنع بالحقيقة وإنْ ظَهَرَتْ من عدوٍّ.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١٦]، لقد أَمر فرعونُ هامانَ بأَنْ يبنيَ له بناءً عالياً جداً، من دون أَنْ نخوضَ في نوعيته وارتفاعه، والأَساطير التي قيلت عنه، فهو علامةٌ سيميائيةٌ على الارتفاع الشاهق، وتكون الغاية منه، أَنْ يرتقيه فرعون كي يرى (إله موسى) وكأَنَّ اللّٰه تعالى جسمٌ ماديٌّ، يجلس في زاويةٍ من زوايا السَّماء، كما يوحي بذلك إلى مستمعيه، غير أَنَّه لا ينسى أَن يوجِّه الخطابَ توجيهاً، يبدو أَقربَ إلى إقناع النَّاس حين يقول: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فهو يقدِّم النتيجةَ سلفاً، وما يقوم به محاولة لإثباتِ كَذِبِ موسى؛ أَيْ كأَنَّه يريد أَنْ يقدِّمَ الدليلَ الملموسَ لقومه على عدم وجود (إله موسى) وبالتالي يثبتُ كَذِبَه ويبطل مزاعِمَه.. إنَّه لا يدَّخر وسعاً في إبطالِ دعوةِ الحقِّ، واتِّباع اساليب عدَّة، ولو كانَ بعضُها ملتوياً، من أَجل الوقوفِ بحزم في وجه دعوة التَّوحيد.. فماذا كانت النتيجة؟

إنَّ إنساناً بهذه المميزات من الطغيانِ والإسراف والمكر، لا يمكن أَنْ يهتديَ ولا يمكن أَنْ يتركَ النَّاس، لتسيرَ في طريق الهدى، فهو يمثِّلُ حَجَرَ عثرةٍ في طريق الرِّسالةِ، حين يُلغي (الآخرَ) تماماً، ويمارس معه شتَّى صنوفِ الإقصاءِ فقد ((أَدْرَكَ فرعونُ إنَّ ادِّعاءَه للربوبية ليس أَمراً هيِّناً تقبله العقول، لذا نراه غيرَ مستقرٍّ من دعواه (ما علمت) إذْ لم يجزم بالأَمر الذي إدَّعاه، ولم يقطع الدَّعوة الأُخرى (واني

لأظنه من الكاذبين) وَلَجَأَ فرعونُ بعد ذلك إلى قوَّة السُّلطان وبسط نفوذه والمظاهر المادية))[١٧]. إنَّ تركَ فرعون يعني إبادةَ الدَّعوة في مهدِها واستمرار الطغيان والظلم، وتدمير صورة العدل في أذهان النَّاس؛ ولذلك كانت النِّهاية المحتومة له كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[١٨].

لقد أُغرقَ فرعونُ في مشهدٍ مؤثرٍ يعجُّ بالحركة، بين مجموعةٍ من المؤْمنين الفارّين بدينهم، وبين طاغيةٍ لا يريد لهم الخروجَ من ربقة عبوديته.. وقد آمنَ بَعْدَ أَنْ أدركه الغرق، في ساعةٍ لا ينفع فيها الإيمان؛ إذ لا يمكن أَنْ تسمحَ العدالةُ الالهيةُ بأن تتساوى الضحية مع الجلاد، ولا يمكن أَنْ يمرّ الطغيانُ من دون عقوبةٍ دنيويةٍ رادعةٍ، ولا يترك الأمر من دونِ عقابِ القيامةِ، فذلك مما يزلزلُ إيمانَ المؤمنين، فهؤلاء أُناس

يشدُّهم المشهد الحسيُّ الحيُّ أَمامَ أَعينهم اكثر من الأَمرِ الذي يوعدون به في المستقبل، وقد جعل الباري -عزَّ وجلَّ- جثةَ فرعونَ علامةً سيميائيةً على النِّهاية المأساويةِ لكلِّ متجبرٍ، فحين يرى بنو إسرائيل، أو قوم فرعون ذلك (الإله) المزيف وقد مات غرقاً، بعد ادِّعائه الأُلوهية فإن ذلك عبرة وموعظة لهم جميعاً.

ومع ذلك فإنَّ الخطابَ القرآنيَّ قد واجه مشكلةَ الالحادِ بدرجةٍ أقلَ مما عالج مشكلة (الشرك)، «لأَنَّ المشركين لم يتنكروا لفكرةِ وجود اللّه، بل كانوا يشركون غيره بعبادته دون أَنْ يشعر بأَنَّ أُولئك الشركاء في مستوى اللّه قيمةً وعظمةً»[١٩]. لقد مثَّلت الشَّخصيةُ الفرعونيةُ في سياق الأَحداث، تمرُّداً على الفطرة الإنسانية التي أَودعها الباري- عزَّ وجلَّ- في خلقه فكان لا بدَّ من ردعٍ حازمٍ لهذا التَّمرد؛ لتعودَ الأُمورُ إلى نِصابها.

أَمَّا الإشراكُ باللّه فقد أَولاهُ الخطابُ القرآنيُّ أَهميةً أكبرَ من معالجة مفهوم الإلحاد لأَنَّ الإلحادَ؛ مخالفةٌ للفطرة السَّليمة، فالإنسان يشعر دائماً بالحاجة إلى وجود (إله) يملأُ الجانبَ الرُّوحيَ فيه. إنَّ التَّأَسيس لمفهوم التَّوحيد، ونبذ الإشراك باللّه ينمو ويزدهر على يد المُرسَلين والمصلحين، ثُمَّ سرعان ما يبدأُ التغيُّر بالابتعادِ عن المنبع الأَصيل للرِّسالة، والتَّمسُّك بقشورها، ويبدو الباري -عزَّ وجلَّ- أَمام النَّاس بعيداً ولايمكن الوصول إليه.

قد تبدو مهمَّةُ مكافحةِ مفهوم الإشراكِ أَسهل من مفهوم الإلحاد؛ لأَنَّ المشركَ بوصفه يؤمن بوجود (الإله) فإنَّ تركه للآلهة، أَو الوسائط التي توصله إليها، يكون في متناول اليد، غير أَنَّ هذا التصوُّرَ غير دقيقٍ بالمرّة، فالمشرك يتخذ عدَّة طرقٍ للإشراك، ولا يقتصر على واحدة، كما أَنَّ هذا المفهومَ قد تغلغل في النُّفوس والمجتمعات منذ القدم، وكانت المهمةُ الأَكبر أَمام المُرسَلين مكافحة هذا الدَّاء الوبيل، إنَّ مفهوم (اللُّطف الالهي) اقتضى إبقاءَ باب التَّواصل مفتوحاً بين اللّه تعالى، وبين النَّاس على مرِّ العصور، فقد يتخذ ذلك التَّواصل التنبيه على علاماتِ الخلق المختلفة، بوصفها عالماً علاماتياً دالاً على خالقٍ عظيم يقف وراءَها، أَو أَن يقتضي إرسالَ الأَنبياء والمرسلين الذين تجاوز عددهم عشراتِ الآلاف، ولاقوا في سبيل دعواتهم ما لاقوا من القتل والتشريد

والمجابهة المسلحة، أَو أَنْ يجعلَ اللّهُ تعالى لبعض المُصلحين أَدواراً تكاد تقترب، من مهمة المُرسَلين في إصلاح النَّاس، وفوق هذا وذاك، أَنوار هدايةٍ يقذفها في قلوبِ عباده، تمثِّل رسائلَ مباشرة، تمكِّنهم من اجتياز أَحلك الظلمات... وأَمام كلِّ أَشكالِ التَّواصل هذه أَلا يحقُّ للمتأملِ أَنْ يذكر ما يجولُ في الخاطر من استفهام، عن سرِّ ابتعاد الإنسان عن ربِّه، متبوعٍ بعلامةِ استفهام بحجم المآسي الإنسانية المتلاحقة، يأتي بعدها عددٌ من علاماتِ التَّعجب، بعددِ كلِّ الإنتكاساتِ على الطريق المؤدي إلى الله ؟!.

إن القاء نظرةٍ عابرةٍ على الواقع تؤكد أَنَّ كلَّ تلك الجهود، لم تصل بالإنسان إلى الدرجة المطلوبة كي يتحققَ مفهومُ (الاستخلاف)، والقيام بواجب (الخلافة) الحقّة التي أُنيطت به من دون غيره من أَصناف الخلق، فهو ما يزال يعاني في بعض الأَحيان من بعض الاخفاقات التي مرّت على أَجداده منذ آلاف السنين، ولا يفترق عنهم في شيئٍ سوى بعض مظاهر الحضارة والتمدُّن، فهل أَنَّ النوازعَ المختلفة داخل هذا الإنسان عصيَّةٌ على الخضوع والتَّطويع ؟.

لقد حملَ الخطابُ القرآنيُّ على عاتقه مهمة الإجابة عن ذلك، وبطرق عدة فهو حين يستعرض بعض الحوادث، التي مرّ عليها الآفُ السنين، ويقدِّم النتائجَ المترتبةَ عليها ؛يهدف من وراء ذلك إلى تقديم إجاباتٍ جاهزةٍ على ما يدور في أَذهان النَّاس عن الاخفاقات المستمرةِ، وفي الوقت نفسه يقدِّم النتائجَ المترتبةَ على الكفر والإيمان في الدُّنيا والآخرة، فهو خطابُ الحياةِ المفعمةِ بكلِّ ما هو خيِّر؛ ليكونَ إنموذجاً يحتذى به، وخطابَ الإشارةِ إلى كلِّ ما هو سيئ، فيجب الإبتعاد عنه. لقد أَفرزَ الخطابُ القرآنيُّ نماذجَ كثيرةً من المشركين الذين حاربوا أَصحابَ الرِّسالاتِ السَّماويةِ، ووقفوا بالضِّدِّ من طريق الهداية، حتى وَصَلَ الأَمْر إلى أَنْ ينزلَ اللّهُ تعالى بهم الاستئصال التامَّ، فلم يبقَ منهم سوى علاماتٍ شاخصةٍ تدلُّ على تلك العقوبة الالهية فالقرآن ((يضع الإنسانَ في موضعه الذي يتطلبه، فلا تسعده عقيدة أُخرى أَصحَّ له من عقيدة القرآن لأَنَّ عصرَ العلاقاتِ العالميةِ لا يتطلب (مواطناً) أَصحَّ وأَصلح من الإنسان الذي يؤمن بالأُسرة الإنسانية))[٢٠].

إنَّ انتخابَ النَّماذجَ التي قدَّمها الخطابُ

المقدس لأَصناف المشركين، كانت على درجةٍ عاليةٍ جداً من حيث كفاءتها الإنجازية، وقد عبّرت عن مكوِّنات الإشراك أَصدق تعبير. لقد أوجزَ المشركون عقيدةَ الشِّرك، في أَنَّ الأوثانَ واسطةٌ بينهم وبين الله تعالى كما في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[٢١].

لقد كانَ مبعثُ الشِّركِ في نفوس هؤلاء، يعود إلى أَن الله سبحانه تعالى بعيدٌ عنهم، ولا يمكن مخاطبَتُه بشكلٍ مباشرٍ، فلا بدَّ من إتخاذ الواسطة بينهم وبينه، وسرعان ما تكون تلك الواسطةُ وجوداً مستقلاً بنفسه حتَّى تصبحَ هي الغاية، وليس الوسيلة.

لقد انطلق المشركون في محاربة المُرسلين من أُسس متشابهةٍ تقوم على (إنكار المعاد)، والتصديق بفكرة أنْ لا حياةَ بعد الموت. أو انكار النُّبوَّة والرِّسالة نفسها، وقد ترتب على ذلك تكذيب الرُّسل، ومحاربة ما جاؤوا به جملةً وتفصيلاً .

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢٢].

لقد أَطلق اليهودُ والنصارى على النَّاس الذين لا يدينون بدينهم ؛ أَي ليسوا يهوداً ولا نصارى لفظَ الأُميّ ((وجاءت من كلمةِ غوييم العبرية «الأُمم» وهو ما نعبر عنه اليوم بالدَّهماء والغوغاء والعامة))[٢٣].

إنَّ السرَّ الاكبر في أُمّية النبيﷺ هي: «ان أَساس الكلام الإنساني هو الأَصوات وليس المخطوط»[٢٤]، كما أَنَّ الأَساس الثَّقافي في (مكَّة) لم يكن القراءة والكتابة، فقد كانت المعرفةُ شفاهيةً. إنَّ الباري -عزَّ وجلَّ- حينما يُرسلُ رسولاً إلى قومه من جنسهم من النَّاحية البشرية، فذلك يعني أَن منزلته ليست بدعاً في خط الرِّسالاتِ المتعاقبة، فكلُّ ما في الأَمر أَنَّ الرَّسول قد استخلصه اللّٰه من بينهم لأَنَّه يحمل من الاستعداد ما لا يحمله غيره، وفرق هؤلاء عن غيرهم أَنَّهم من (المخلَصين) بفتح اللام؛ أَي وَقَعَ اختيارهم من اللّٰه، وهم مما لا سبيلَ للشَّيطان إليهم، وقد استثناهم هو نفسه من الإغواء كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[٢٥].

ومن هذه النقطة تحديداً يبدأُ اعتراض المشركين على اختيار هذا الرسول بالتَّحديد، لأَنَّهم يجهلون الكيفيةَ التي يتمُّ على أَساسها استخلاصه، كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[٢٦].

إنَّ مشركي قريش لا يرضون بالاختيار الذي وقع على رجلٍ من بينهم، قد يبدو في نَظَرِهم خاملَ الذِّكر، فيجب -حسب رأيهم- أَنْ يقعَ الاختيارُ على رجلٍ عظيم ذي أَموالٍ وشهرةٍ ((ومرادهم أَنَّ الرسالةَ منزلةٌ شريفةٌ إلهيةٌ، لا ينبغي أَن يتَّلبَّس بها إلَّا رجلٌ شريفٌ في نفسه مطاعٌ في قومه))[٢٧].

وكأَنَّ الأَمر راجعٌ إليهم في تقسيم الأُمور ((إنَّ الكفرَ ملَّةٌ واحدةٌ وإنَّ أَساليبَ التَّعنُّت، والعناد لدى الكافرين متماثلة، وما صورةُ مشركي مكَّة إلَّا مرآةٌ للمكذبين في كلِّ جيل))[٢٨].

لقد انطلق المشركون على مرِّ العصور من منطلقاتٍ واحدةٍ سواء تقدّم الزَّمنُ أم تأَخَّر، ((علماً انَّ من شأنِ هذه الأَنواتِ المتكلمةِ جميعاً، كلٌّ بطريقتها الخاصة، إنَّها تتنازع الكائن/ الكيان المتكلم، محاولةً فرضَ شروطِ كلامِها عليه ،فأيُّها غَلَبَتْ

تكلَّمت، أَو أَجرتْ كلامَها على لسانه))[٢٩].

إنَّ عناد المشركين قد يصل في بعض الأَحيان إلى حدودٍ غاية في الاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٣٠]، إنَّه استهزاءٌ مشوبٌ بالتَّحدي، فهذه المجموعة من الطَّلبات أَو المقترحات، تمثِّل علاماتٍ سيميائيةً دالةً على استحالة تحققها، وهي في الوقت نفسه مما تشتهيه أَنفسُهُم، فهي أَقصى ما يتمنونه حتَّى يفتضح أَمر الرَّسول؛ لأَنَّ تحقيق هذه الأُمور مستحيلٌ في نظرهم. لقد ((كان جليًّا لهؤلاء انَّه إذا انهار دينُهم؛ انهارَ معه كيانُهم السِّياسي بأَكمله وآل بهم الأَمر إلى أَنْ تتمزَّقَ شبكةُ تحالفِهم، ويستحيل استمرارُهم في تجارتِهم))[٣١]. فهم يستكثرون على (المُرسَل) أَنْ يتمتعَ بمنزلةٍ رفيعةٍ عند ربِّه، وأَنْ يكونَ هو الواسطةَ بينهم وبينه، فلا ترضى نفوسُهم المريضةُ بهذا الاختيار مطلقاً، حتَّى تضعَ في مواجهته العراقيلَ اللازمةَ لإيقافه كما يظنون.

لقد استعرض الخطابُ القرانيُّ شخصيةً من مشركي قريش كما في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[٣٢].

إن الإيقاعَ في الآياتِ يشكِّلُ إضافةً نوعيةً إلى السَّرد، وهو ما يجعل المستمع، أو القارئَ يعيش ضمن وتيرةٍ إيقاعيةٍ خاصةٍ، تتلاءم مع ما يُذكر من مفهوم ((فالإيقاع ينضبط في موضعه بدقةٍ وإتقانٍ، ويتناسب جودةً وبلاغةً ووضوحاً في تآخيه مع غيره، ليحدث الاستجابةَ الجميلةَ في النَّفس... وإلَّا بعثَ على الغثيان، كما نستشعره في بعض الشِّعر الحديث والقديم))[٣٣].

لقد جاءت نهايةُ الفاصلةِ مختومةً بالدَّال

والألف وبشكلٍ خاصٍّ في (وحيداً، ممدوداً، شهوداً، تمهيداً، عنيداً، صعوداً) فإنَّ الإستطالةَ التي يضيفها حرف الألف، تخلق ما يشبه ترديده عدةَ مراتٍ وكأَنَّما نستمع إلى صداه في مكانٍ بعيدٍ جداً، ومنعزلٍ عن النَّاس وكأَنَّه يتلفت يميناً وشمالاً فلا يرى احداً ولا يسمع سوى صوتِ الصَّدى المنبعثِ من الدَّال والألف (دا .. دا .. دا) فالفاصلة القرآنية تحمل دلالتين هامتين ((الدِّلالة الاولى: وهي دلالةٌ صوتيةٌ تتمثل في الإيقاع والرَّنين الصَّوتي المحكوم بنسقِ الآيةِ والسياقِ العام، والدِّلالة الثانية: دلالةٌ معنويةٌ تحمل تمام الفكرة في الآية))[٣٤]، وكأَنَّ الخطابَ القرآنيَّ يفعل كلَّ شيءٍ من أَجل إيصال معانيه، فهذا ((الجمال الصوتيُّ، والتَّناسق الفنيُّ، والإيقاعُ الموسيقيُّ، هو أَول شيءٍ أَحسَّته الأُذن العربية يوم نزول القرآن))[٣٥].

أَمَّا حين يصل الخطابُ إلى وصفِ حالِ ذلك المشرك، فيكون الإيقاع حاداً صلباً؛ نتيجةَ سكون الرَّاء (قدّر، نَظَر، بَسَر،

استكبر، يُؤْثر، البشر، سَقَر، تَذَر، عَشَر) عند الوقف على رأْس كلِّ آيةٍ من هذه الآيات. إنَّ الإيقاع يضفي جانباً سيميائياً لا يمكن تخطِّيه في الخطابِ القرآنيِّ، فالتوضيف الإيقاعي للمفردات والحروف -علاماتياً- مما لم يحضَ بالاهتمام المناسب في المقاربات النقدية للنصوص وفقاً للمنهج السيميائي.

إنَّ موقفَ المسرفينَ الضَّالين يتكرر في خطوطه العامة، وإنْ تغيرت الشخصياتُ، فهذا المشرك من أصحاب الجاه والأموال والسُّلطة في مكة، ومن ثمَّ فإنَّ خضوعَه للإسلام يعني ذهاب تلك السلطة، فلا بدّ له من إيجادِ مبرراتٍ لمحاربةِ الرِّسالة، وتشويه صورة (الرَّسول) بكلِّ ما يستطيع، ولا بدَّ من وضع برنامجٍ يتفق عليه كبار مشركي قريش، يتضمن توجيهَ التُّهمة المناسبة، التي يجب أَنْ تبدو معقولةً لدى أَهلِ مكةَ، وللحجيج القادمين إليها حين يسمعون بما جاء به الرسولُ الجديد. إنَّ اتفاقَهم على أَنَّ أَمر الدِّين الجَّديدِ لا يعدو أَنْ يكونَ سحراً، يمثل امتداداً طبيعياً للأَجيالِ المتعاقبةِ من المشركين المعاندين، الذين سَرَدَ الخطابُ القرآنيُّ موقفَهم في مواجهة الرُّسل.

وإذا كان هؤلاء المشركون يعتقدون بوجود اللّه تعالى، ويشترطون وجودَ الوسائط للوصول إليه فإنَّ قضيةَ التَّوحيد، تبدو أَمامَهم ديناً يختلف عمَّا ورثوه عن آبائهم. إنَّ ما يقوم به (المشرك) هو تعطيل للإمكانات العظيمة التي زوَّدهُ اللّه تعالى بها كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[٣٦].

((إنَّ العقلَ لا يستطيعُ العملَ بوجهٍ خاصٍّ، إلَّا عندما تكون هادئاً أَو ما دُمْتَ مُحافظاً على إتزان «العقل»))[٣٧]. لقد قدَّم الخطابُ القرآنيُّ هذا الإنموذجَ، بوصفه يملك الكفاءَة الإنجازيةَ في تفعيل مفهوم الإشراك إلى مدياتِهِ القصوى، ويضع الحواجز الفكرية بينه وبين الإيمان بفكرة التوحيد، إذْ ((أَثارت ظاهرةُ النُّبوَّة مواقفَ كثيرةً تراوحت بين الشِّرك والرَّفض والتكذيب والتحدي، في مجتماعاتها التي انطلقت فيها، الأَمر الذي شكَّل صورةً فكريةً ناهضةً، تستند إلى رؤى مختلفةٍ أُسّست عليها هويةٌ من هوياتِ الآخر، المختلف الفكري الذي واجه هذه الفكرة))[٣٨].

إمَّا مفهوم (النِّفاق) في الخطاب القرآنيِّ، فهو مفهومٌ خطيرٌ، يشكل تهديداً للمجتمع المؤمن؛ فالمنافقُ يتَّخذُ في ظاهرِهِ صورةَ الإيمان، فيكون حالُه في ذلك حالَ بقيَّةِ أفراد المجتمع، غير أنَّ صورَتَه الأُخرى الباطنية، عكس ذلك تماماً، فهو لا يؤمنُ بما يؤمنُ به مجتمعه، والأدهى من ذلك، أنَّه يحاول اقتناصَ كلِّ فرصةٍ تتاح أمامه لتوجيه الضربات إلى المؤمنين، وإيقاع الخسائر فيهم سواء أكانت مادية أم معنوية.

إنَّ الفارقَ الأساسَ بين الظَّاهر والباطن لدى المنافق، يكمنُ في أنَّه يؤدي العباداتِ، ويلتزم بالمعاملاتِ، وفقاً للمفهوم الإيماني، على حين في باطنه يعيش عالمَ الكفرِ المظلم. كما أنَّ الخطابَ القرآنيَّ قدَّمَ إنموذجَ المؤمنِ الذي يكتُمُ إيمانَه كمؤمنِ آلِ فرعونَ، الذي كان ناصحاً أميناً لقومه ويحاول أنْ يبثَّ بينهم قيمَ الإيمان، ويبعدهم عن الوقوع في هاوية الكفر . أمَّا المنافق فهو يتحالف مع الأعداء ويكون عونا لهم في سبيل كسرِ شوكةِ المؤمنين، وهذا العنصر المنافق قد يكون أشدَّ ضرراً من المشرك، والملحد على مجتمعه؛ إذ يكون مختفياً بين الناس ولا يكاد يُعرف،على حين أنّ الكافرَ عنصرٌ واضحٌ مشخَّصٌ يمكن اجتناب ضرره؛ لأنَّه معلن.

لقد عانى المؤْمنونَ من خطر المنافقين منذ كانوا في مكَّة، يومَ لم يكن لهم دولةٌ وسلطةٌ؛ لأن ((عِللَ النِّفاق ليست تنحصر في المخافةِ والإتِّقاء، أو الاستدرار من خيرٍ معجِّلٍ، فمن عِللهِ الطمع، ولو في نفعٍ مؤجلٍ، ومنها العصبية والحمية، ومنها استقرار العادة، ومنها غير ذلك))[٣٩]، غير أنَّ ملامحَ المنافقين كانت أكثرَ بروزاً في مجتمع المدينة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[٤٠].

وبما أَنَّ السِّيميائيةَ تبحث ((عن المعنى عن طريقِ بنية الإختلافِ ولغةِ الشَّكل والبنى الدَّالة))[٤١]، فإنَّ التَّنقُلَ الدِّلالي بين مفهوم الكفر والإيمان على صعيد الباطن والظَّاهر، يمثِّل تذبذباً مظهرياً، وشكلياً فقط فإنَّه في صميمه ثابتٌ على الكفر.

لقد فضح الخطابُ القرآنيُّ أَوصاف المنافقين، وقد ركَّزَ بشكلٍ خاصٍّ على مرض القلوب ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ وهذا المرضُ هو مرضُ (النِّفاق)، إذْ إنَّ المنافقَ يعيشُ بين المؤمنين حياتَهم في أَغلب تفاصيلها؛ إذ يؤْدي معهم جميعَ مايؤدُّون من الواجبات، بل يخرج معهم إلى الحرب، وإنْ كانَ لا يقاتل مثلهم، فإذا فعل ذلك وتحمَّل المشقّةَ بكلِّ أَصنافها، سيكون من العجيب أَنْ لا تكونَ نيتُه مثلَ نيَّةِ المؤمنين، وأَنْ لا يتأثرَ بذلك الجوِّ الإيمانيِّ المشحون بالرُّوح المتوثبة، التي كان يبثُّها وجودُ النَّبيِّ ﷺ بين المسلمين. وبذلك تكون نيَّةُ العملِ مائزاً بين قبول العمل ورفضه، مع أَنَّه عملٌ واحدٌ من حيث الشَّكل، غير أَنَّه يختلف في مضمونه، فعمل المؤمن يكونُ خالصاً للّه، على حين عمل المنافق يكونُ رياءاً. إذنْ فشخصية المنافقِ ((شخصيةٌ مريضةٌ منقسمةٌ على نفسها، وكأَنَّه شخصيتان متصارعتان تعيشان في جسدٍ واحد، احداهما تعبر عن نفسها من خلال المظاهر التي يراها ويسمعها النَّاس، كالملابس والابتسامات والكلمات والأُخرى، تعبر عن نفسها بالمشاعر والاعتقادات الدَّاخلية التي لا يطَّلع عليها أَحدٌ (إلّا من كان في النفاق) كمشاعر الحب والبغض واعتقادات الإيمان والكفر))[٤٢].

إنّ الازدواجية التي يعيشها المنافق تجعل منه فرداً منهكاً خائرَ القوى لأَنَّه يؤَدي وظيفتين في الوقت نفسه وهذا الامر يتطلب جهداً مضاعفاً.

أَمَّا الدَّسائسُ والمكائدُ التي يحوكها المنافقون، فهي أَخطر من دسائس المشركين، بل هم العدوّ الحقيقي الذي يحذرُ اللّه تعالى منه المسلمين، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٤٣].

وإذا كان الخطابُ القرآنيُّ يقابِل دائما

بين مفهومي الكفر والإيمان، فإنَّ النِّفاقَ حالةٌ خاصةٌ وشاذةٌ، بل إنَّ الكافرَ الذي يجهر بكفره يكون أسعد حالاً من المنافق؛ لأنَّ هذا يعيش بشخصيةٍ واحدةٍ، والمنافق يعيش عالم الازدواجية المرهِقة. ((إنَّ ثبات هذا الآخر الذي صوَّره الخطاب في عملية «الطَّبع» التي توحي بالإنغلاق التَّام دونما تطور، جاءت عن قصديةِ وثباتِ الموقفِ الرافضِ في استيعاب التجربة والإرتقاء في مستوياتها))[٤٤].

إنَّ الخطرَ الحقيقيَّ الذي يمثله المنافقون على مجتمع الإيمان، يكمن في أنَّ هؤلاء يعيشون بين المؤمنين، فيكونون مكشوفين أمامهم؛ لأنَّهم في الظَّاهر منهم، ويطَّلعون على أدقِّ تفاصيل هذا المجتمع... على العكس من الكفار الذين يبعدون عن المجتمع المؤمن بمسافاتٍ بعيدة. كما أنَّ هؤلاءِ المنافقين قد يزوِّدون الاعداءَ بما يستطيعون من معلوماتٍ خطيرة.

ولعلَّ أهمَّ ما في قضيَّةِ المنافقين من أبعادٍ تشريعيةٍ، أنَّ هؤلاء قد لا يكونون معروفين في نظر الناس من المؤمنين، فيكون خفاءُ أمرِهم مُشكلةً معقَّدة بحدِّ ذاتها، ولو افتضح أمرُ أحدِهم فالمطلوب، أنْ يعامل على وفق الظاهر الذي يبديه، وليس على أساس ما يحمل في باطنه من أفكارٍ مريضة.

ومن ثمَّ فإنَّ وجودَ هذه الفئة يمثل معضلةً حقيقةً، وبسبب ما يمثلونه من خطرٍ نزلت فيهم سورةٌ كاملةٌ في القرآن للتَّحذير منهم، وتشخيص سلبياتهم وإنَّهم هم العدوُّ

الحقيقيُّ الذي يتربَّصُ بالمؤمنين شرًّا. لقد عدَّد الخطابُ القرآنيُّ صفاتِ المنافقين العديدة، وضمَّنها في سورة (المنافقون) غير أنَّ أخطرَ صفةٍ فيهم هي صفة (التآمر) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[٤٥].

فهؤلاء يبيِّتون المؤامراتِ ليلاً ونهاراً، فيكون بذلك العلامةَ السِّيميائيةَ الأبرزَ فيهم. لقد أفردَ الخطابُ القرآنيُّ مَثَلاً صادقاً في توصيفِ حالِ المنافق في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٤٦].

فهؤلاء في نفاقهم مثل ((الذي أوقدَ ناراً لينتفعَ بها في ليلةٍ حالكةٍ، فلما أضاءت النَّارُ ما حوله، فرأى الضياءَ والسناءَ، سرعان ما أطفأها مطرٌ شديدٌ ذو ريح عاصفٍ أخمدَ أُوارَها وبدَّد لهيبَها.. فتحيّر.. وتخبّط في الظُّلُمات لا يدري ما يتجنّبه ولا ما يتَّقيه!!))[٤٧].

إنَّ الأمرَ اللافت في أمر المنافقين أنَّهم يفتقدون (النور) الذي يجعله الخطابُ القرآنيُّ هبةً من اللهِ يفيضُها على من يشاء كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٤٨].

فالمنافقون لا حظَّ لهم من النُّور الإلهي الذي ينير البصيرةَ، ويكون سبباً في الهداية. إذنْ فالمشكلةُ الكُبرى لهؤلاءِ أنَّهم لا نورَ لهم، ويمتدُّ ذلك بهم إلى يوم القيامة، فنجدهم باحثين عن النُّور أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ۖ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۚ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤٩].

إنَّ الحوارَ ينقسم على قسمين: قسم قبلَ وجودِ السُّور، وقسم بعده، فالأول نجد فيه المنافقين يحاولون استعطافَ المؤمنين في أنْ يتفضَّلوا عليهم ببعض النُّور، فيأتي الجوابُ من جهةٍ عُليا تُديرُ وتسيِّرُ الأمورَ هنالك (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)، بل كأنَّ المنافقين قد تجاوزوا واقتربوا إلى حدودٍ لا يجوزُ لهم أنْ يتجاوزوها، فيضرب بين الفريقين بسورٍ يفصل الجنةَ عن النار وفي ذلك السُّورِ بابٌ، يكون من جهة الجنَّة رحمةً، ومن جهة النار عذاباً.. وحين يرتفع

هذا السُّور بينهم يتغير الكلام إلى صيغة (ينادونهم) دلالةً على بعدهم عنهم، وأنَّهم ينادونهم من خلف ذلك السُّور، وهنا يظهر صوتُ المؤمنين حين يردُّون على صوت المنافقين إذْ ((ليس الإجتماع في الأرض هو الذي يحدد هويَّة الأشخاص، ويفرض وحدةَ المصير، بل الإجتماع في العقيدة والعمل والنَّظرة الشَّاملة للحياة التي تحكم خطوات الإنسان وتصرفاته))[٥٠]. أمَّا الذي يدعو إلى الاستغراب؛ فإنَّ هؤلاء القابعين في نار جهنم، يشكون الظَّلام فأيُّ نارٍ تلك التي تكون مظلمة ؟؟؟!! .

إنَّها نارُ العقابِ التي أعدَّها الباري -عزَّ وجلَّ- لعباده الذين كانوا أُلعوبةً بيد الشَّيطان (وغرَّكُم بالله الغَور). فالسَّائرون في ركب (إبليس) سيكون مأْواهُم إلى الظَّلام الدَّامس، بل ظلمات بعضها فوق بعض، وفي هذا المشهد الحزين الذي يتحكم فيه التَّقابل بين النور والظلام، يكون مصيرُ النِّفاق وأهله. ((لا شكَّ في أنَّ الدِّلالةَ التي تنتجُها تقابلاتُ القرآنِ الكريم تستمدُ معانيها من معجميةِ الفاظِ التَّقابلَ، ولكنَّها تنتقلُ في بعض جوانبها من المعنى المعجمي إلى معنى آخر يشكِّل بُعداً عميقاً من خلال الوحدات التعبيريَّة في التَّقابُل))[٥١].

إنَّ الإيمانَ والعملَ الصالح يتحوَّل إلى نورٍ في يوم القيامة، وكلَّما كان الإيمان عميقاً زادَ ذلك النور.. أمَّا الكفر والنِّفاق، فلا ينتجان نوراً أبداً، وكأنَّ الحياةَ الدنيا تمثِّل مكاناً لإنتاج النُّور وتكون الآخرة مكاناً لإدِّخاره.

لقد أفصح الخطابُ القرآنيُّ عن امكانياتِ النفاقِ الهائلةَ، والقادرة على تدمير المجتمع المؤمن فعدَّهم هم (العدو) وحذَّر منهم، ثمَّ رسمَ الطريقَ الأمثلَ للتَّعامل معهم، فهو لم يتعامل معهم وفقاً لمنهجِ إقصاءِ (الآخر) أو تغييبه، وإنَّما يعدُّهم ضمنَ الجماعةِ الصالحة، ولو كان ذلك على أساس ظاهرهم، وإيكال أمرهم إلى الله تعالى مع أخذ الحذر منهم، فربَّما يكونُ التعاملُ الحسنُ معهم باباً لهدايتهم، والدُّخول فيما دَخَلَ فيه المؤمنون، من شعورِ الإيمان والإحساس بالعبوديَّة الصادقة لله-عزَّ وجلَّ- فلم يحدِّثنا التأريخُ أو سيرةُ النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) أنَّه عاقب واحداً منهم بتهمة النِّفاق، وإنَّما كان يكرمهم، وينزلهم منزلةَ الإنسان المسلم، وقد يكون في ذلك المنهج الرَّحيم اطلالةٌ من أوسع الأبواب، على الأُسس الإنسانية العطوفة للمنهج الاسلامي في تربية المجتمع، وتعامله بالرِّفق واللِّين، حتى مع (المُنافق) وقبول الإيمان الظَّاهري منه، وقد يعدُّ بعضُ المسلمين ذلك نوعاً من البلاهة، أو عدمِ الحكمة في التَّعامُل معهم، غير أنَّ مرجع الأمر في ذلك إلى الباري- عزَّ

وجلَّ- الذي كرَّم بني آدمَ، بغضِّ النَّظرِ عن العقيدة أو اللون أو السُّلوك، فالإنسانُ بناءٌ إلهيٌّ مقدَّس لا يجوز التَّعدي عليه لأسبابٍ واهيةٍ، وسلب حياته بحجةِ الاختلاف في الآراء، أو حتَّى (المُعْتَقَد)، ما لم يكن ذلك وفق شروطٍ خاصةٍ ودقيقةٍ راعاها التَّشريع الإسلامي.

فحتَّى القتال حين فُرض على المسلمين؛ فُرض عليهم كرهاً لأنَّ المشركين كانوا هم من بدأوا الظُّلمَ والعدوان، وفي إزاء هذه الرَّحمة العظيمة التي تبدو عبارةً عن فرصة طويلة مفتوحة أمامهم، توجد العقوبة القاسية لهم لأنَّ ما أُتيح لهم من التَّسامح، يجب أنْ يكونَ كفيلاً بهدايتهم إلى طريق الصَّواب، ولذلك يقول الباري- عزَّ وجلَّ- في حقِّهم: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٥٢].

الهوامش

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الاصفهاني: ٤٥٢

(٢) سورة ابراهيم : الآية: ٣٤

(٣) سورة الكافرون: الآية: ١-٢.

(٤) سورة الفرقان: الآيات: ٤٥-٤٩.

(٥) سورة يونس: الآية: ٨٣ .

(٦) سورة القصص: الآية: ٤ .

(٧) الشخصية الانسانية في ضوء القرآن الكريم، د. أحمد عبد الحميد غراب: ١٢٧.

(٨) الميزان في تفسير القرآن، للعلامة الطباطبائي: ١٦/٩-١٠.

(٩) من جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال: ٣٣٥.

(١٠) سورة الزخرف: الآية: ٥١.

(١١) سورة غافر: الآية: ٢٨-٢٩.

(١٢) سورة طه: الآيات: ٧٠-٧٣.

(١٣) الحوار في القرآن، محمد حسن فضل الله: ٢٧٣.

(١٤) سورة الاعراف: الآية: ١٢٤.

(١٥) سورة غافر: الآية: ٢٦.

(١٦) سورة القصص: الآية: ٣٨.

(١٧) صورة الآخر في الخطاب القرآني، الدكتور حسين عبيد الشمري: ٨٣.

(١٨) سورة يونس: الآية: ٩٠-٩٢.

(١٩) الحوار في القرآن: ٧٩.

(٢٠) الانسان في القرآن، عباس محمود العقاد: ١٦٠.

(٢١) سورة الزمر: الآية: ٣.

(٢٢) سورة الجمعة: الآية: ٢.

(٢٣) الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة، الدكتور المهندس محمد شحرور: ١٣٩.

(٢٤) المصدر نفسه: ١٤٢.

(٢٥) سورة الحجر: الآية: ٣٩-٤٠.

(٢٦) سورة الزخرف: الآية: ٣١-٣٢.

(٢٧) الميزان في تفسير القرآن، للعلامة الطباطبائي:

٩٩/١٨.

(٢٨)مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح: ٢٠٥.

(٢٩)في آفاق الكلام وتكلم النص، د. عبد الواسع الحميري: ١٤٢.

(٣٠)سورة الاسراء: الآيات: ٩٠-٩٤.

(٣١)القرآن الكريم والاصول في تدبره، أ. د. محمد حسين صفوري: ١٨٣.

(٣٢)سورة المدثر: الآية: ١١-٣٠.

(٣٣)التقابل الجمال في النص القرآني، د. حسين جمعة: ٢١٥.

(٣٤)من جماليات التصويرفي القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال: ٢٣٤.

(٣٥)التعبير الفني في القرآن الكريم، الدكتور بكري شيخ أمين: ١٩٠.

(٣٦)سورة الحج: الآية: ٤٦.

(٣٧)اللّه والإنسان في القرآن، توشيهيكيو ايزوتسو: ٣٣١.

(٣٨)صورة الآخر في الخطاب القرآني، د. حسين عبيد الشمري: ٨٦-٨٧.

(٣٩)الميزان في تفسير القرآن، للعلامة الطباطبائي: ٩٨/٢٠.

(٤٠)سورة البقرة: الآيات: ٨-١٦.

(٤١)السيميائية اللغوية، شعر احمد مطر إنموذجاً، د. ماجد عيال وهب، د. علي حلو حواس، مجلة الاستاذ، العدد: ١٢٥: ٨.

(٤٢)الشخصية الانسانية في ضوء القرآن الكريم، د. أحمد عبد الحميد غراب: ١٥١.

(٤٣)سورة المنافقون: الآيات: ١-٤.

(٤٤)صورة الآخر في الخطاب القرآني، د. حسين عبيد الشمري: ١٣١.

(٤٥)سورة النساء: الآية: ١٠٧-١٠٨.

(٤٦)سورة البقرة: الآية: ١٧-١٨.

(٤٧)الأمثال في القرآن، الدكتور محمود بن الشريف: ١٣-١٤.

(٤٨)سورة النور: الآية: ٤٠.

(٤٩)سورة الحديد: الآية: ١٣-١٥.

(٥٠)الحوار في القرآن، محمد حسين فضل اللّه: ٣٧٣.

(٥١)التقابل والتماثل في القرآن الكريم، الدكتور فايز عارف القرعان: ٢٨٦.

(٥٢)سورة التوبة: الآية: ١٠١.

مصادر البحث ومراجعه

١- القرآن الكريم .

٢- اللّه والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو إيزوتسو: ترجمة وتقديم د. هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٧.

٣- الأمثال في القران، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة ،ط٤ (د.ت).

٤- الإنسان في القرآن: عباس محمود العقاد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،(د.ت) .

٥- التقابل والتماثل في القرآن الكريم، الدكتور فايز

عارف القرعان، المركز الجامعي للنشر، إربد، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) .

٦- التقابل الجمالي في النص القرآني، دراسة جمالية فكرية وأسلوبية: الاستاذ الدكتور حسين جمعة، منشورات دار نمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٥هـ .

٧- التعبير الفني في القرآن: الدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٧، ٢٠٠٤م.

٨- الحوار في القرآن، قواعده. اساليبه. معطياته: محمد حسين فضل الله، الدار الإسلامية، ط١، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) .

٩- الشخصية الانسانية في ضوء القرآن الكريم: د. أحمد عبد الحميد غراب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥هـ .

١٠- صورة الاخر في الخطاب القراني، دراسة نقدية جمالية :الدكتور حسين عبيد الشمري ،دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط١، ٢٠٠٨.

١١- في آفاق الكلام وتكلُّم النَّص، د.عبدالواسع الحميري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان،ط١٤٢١،١هـ-٢٠١٠ م.

١٢- القرآن الكريم والأصول في تدبره، تمعنات في تعاليمه وخصائصه: أ. د. محمد حسين صفوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

١٣- الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة: الدكتور المهندس محمد شحرور، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٩٤م.

١٤- مباحث في علوم القرآن: الدكتور صبحي الصَّالح، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان،٢٠٠٩.

١٥- المفردات في غريب القرآن: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ضبط هيثم طعيمي، دار احياء التراث العربي ، بيروت- لبنان.

١٦- من جماليات التصوير في القران الكريم:محمد قطب عبدالعال، طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ،٢٠٠٦م.

١٧- الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، صححه وأشرف على طباعته فضيلة الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١المحققة، (١٤١٧هـ- ١٩٩٧م).

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام دينا
صلى الله عليه وسلم

قراءة
في أطروحة جامعية

التنحية النحوية ودلالاتها
في القرآن الكريم

للدكتور نزار عبد اللطيف العجرش

عرض: د. فالح حسن الأسدي

الحمدُ لله ربّ العالمين، الذي أنزل كتابه العظيم، بلسان عربيّ مبين، والصلاة والسلام على نبيّه الصادق الأمين، أبي القاسم محمّد، وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أمّا بعد: فإنّ القرآن الكريم ــ على الرغم من الدراسات الكثيرة التي بحثت في وجوه إعجازه ولغته وتفسيره وبلاغته قديمًا وحديثًا ــ ما يزال ميدانًا رحبًا لكثير من الدراسات اللغويّة والنحويّة التي تدأب في الكشف عن أسرار بلاغته وفصاحته ولطائف لغته وأسلوبه، فهو معجزة الكبرى للنبيّ الأكرم محمّدﷺ. وقد شَغَلَ العربَ ــ وهم أربابُ الفصاحة والبيان ــ بأسلوبه وبلاغته، حتى إن الجنّ انقادت له، وأذعنت لسلطانه، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (سورة الجنّ:١-٢).

وقد يسَّرَ اللّٰه تعالى لي أن أحظى بشرف خدمة كتابه العزيز ؛ إذ كان موضوع دراستي في هذه المرحلة ــ الدكتوراه ــ موضوعًا قرآنيًا، وسميته بـــ(التنحية النحويّة ودلالاتها في القرآن الكريم)، وقد دفعني إلى دراسته أنّه لم تُكتب فيه من قبلُ دراسةٌ علميّةٌ تَلُمّ شتاتَه، وتبيّن دلالاتِه في كتاب اللّٰه تعالى، فعقدتُ العزم على أنْ أخوضَ غمارَ هذا البحث، ومنه جلّ وعلا نستمدّ العون والتسديد .

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن أُقسّمها على ثلاثة فصولٍ تكشفُ عن أسباب التنحية النحويّة في النظم القرآنيّ ودلالاتها، يسبقُها تمهيدٌ عن (مفهوم التنحية النحويّة)، بيّنتُ فيه معنى كلمة (التنحية) في اللغة والاصطلاح، وحدّدتُ المراد منه، وأوضحت المصطلحات النحويّة التي تندرج ضمن مفهوم (التنحية النحويّة)، وكشفت عن مجالات استعمال كلمة التنحية في ميادينَ معرفيّةٍ مختلفةٍ مثل: القراءات القرآنية، والتفسير، والمعجمات، والنحو، والصرف.

وعقدتُ الفصل الأوّل لدراسة (التنحية عن العمل)، بيّنتُ فيه الأسباب التي تؤدي إلى التنحية النحويّة ودلالة التعبير بعد التنحية عن العمل في السياق القرآني، إذ شمل هذا الفصل دراسة (التنحية بسبب الفصل، والتنحية بسبب الاجتماع، والتنحية بسبب عدم الدلالة على الاستقبال، والتنحية بسبب القطع، والتنحية بسبب

التنازع، والتنحية بسبب التعليق) .

وعقدتُ الفصل الثاني لدراسة (التنحية عن الوظيفة)، بحثتُ فيه أسباب التنحية عن الوظيفة، وهي تشمل: (التنحية بسبب الجرّ، والتنحية بسبب التركيب، والتنحية بسبب التوسّط، والتنحية بسبب التجاور) محاولاً الكشف عن دلالة التنحية عن الوظيفة في التعبير القرآنيّ المعجز .

وخصّصتُ الفصل الثالث لدراسة (التنحية عن العمل والوظيفة)، بحثتُ فيه أسباب التنحية عن العمل والوظيفة، وهي تتمثل بـــ(التنحية بسبب التوسّط، والتنحية بسبب التخفيف، والتنحية بسبب التركيب، والتنحية بسبب التجاور، والتنحية بسبب زوال اختصاص المعمول، والتنحية بسبب انتقاض النفي، والتنحية بسبب التقديم) متلمّسًا دلالة ما نُحّيَ عن العمل والوظيفة في أسلوب القرآن الكريم .

وجاء بعد هذه الفصولِ خاتمةٌ تضمّنتْ أبرزَ نتائج الدراسة، وثبتٌ بمصادر البحث ومراجعه، وملخصٌ باللغة الإنجليزية.

ويقوم منهج الدراسة على الوصف

والتحليل والنقد، إذ أعرِضُ التركيب المدروس، ذاكرًا ما قيل فيه من آراء، مستعرضًا شواهدَه القرآنيةَ بالشرح والتحليل،مبينًا دلالةَ التركيب النحويّ بعد التنحية غي القرآن الكريم، ناظرًا في آراء النحويّين والبلاغيّين والمفسّرين مرجحًا مرة،ومضعفًا أخرى.

وقد اعترضَ سبيلَ هذا البحث عقباتٌ وصعوباتٌ، كان اللهُ عزّ شأنُه مفزعي لمواجهتها، وعوني في اجتيازِها، وحثِّ الخطى للوصول إلى نهاية المطاف، فله تعالى الحمدُ والمِنّة، ومن هذه الصعوبات أنّ هذا البحث اتخذ من القرآن الكريم ميدانًا له، ويقتضي ذلك أن ألتزم جانب الحذر في التعامل مع نصوص التنزيل الحكيم؛ خشيةَ المساس بقدسيتها، أو الزلل في بيان دلالاتها.

ومنها أيضًا أنّ الكثير من النحويّين والمفسّرين واللغويّين والبلاغيّين كانوا إذا ذكروا موضع تنحية في كتبهم اكتفوا ببيانه نحويًا من غير أن يكشفوا عن دلالة التنحية في التركيب، فاقتضى ذلك مزيدًا من التفتيش والبحث في كتب التفسير والنحو والبلاغة؛ أملاً في اقتناص رأي أو قول ينجدني في دراستي، واقتضى ذلك أيضًا أن أعتمد غالبًا على فهمي لمواضع التنحية النحويّة، وتوظيف ذلك في بيان دلالاتها في التعبير القرآني مستضيئًا بتفسير الآية ومعناها وسياقها .

ونظرًا لصعوبة حصر حدود الموضوع ــ إذا ما اعتمدنا المفهوم العام للتنحية ــ فقد وضعت معادلة تقوم عليها الدراسة في تناول موضوعاتها، تقوم هذه المعادلة على وجود (مُنَحَّى و مُنَح و مُنَحَّى عنه)، لذلك اقتصرت الدراسة على المنحِّيات اللفظية والمعنوية.

وتجدر الإشارة إلى أنّي في مواضعَ كثيرةٍ من هذه الدراسة قد نقدتُ قول النحويين أو المفسرين بالتنحية، وأثبتُّ أن هذه المواضع ليست من موضوعات التنحية النحوية، وبينتُ دلالاتها في السياق القرآني، فهذه المواضع ليست خارجةً عن عنوان الدراسة، فهو يتضمنها بلحاظ أن النحويين والمفسرين قالوا بها، ثم قادني البحث والتأمّل إلى القول بعدم انطباق التنحية عليها.

والتَّنحية في اللغة مصدر الفعل: نَحَّى أو تنحَّى، يقال: نحّيته تنحيةً، أو : نحيًا، على لهجة، وكلا الاستعمالين يؤدّي معنى الإزالة والإبعاد. يقال: « نَحَيْتُ الشيء أنحاه نحيًا ــ أزلتُهُ ــ فانْتَحَى وتَنَحّى» ، ومنه أنْ يُقالَ: « نَحَّيتُ فلانـًا فتنحّى، وفي لغةٍ: نَحَيتُهُ

وأنا أنحاه نحيـًا بمعناه، قال ذو الرمّة:

ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه

لشيءٍ نَحَتْهُ عن يديْكَ المقادِرُ

أي: باعدَتْهُ» ، ومنهُ: «نحَّيتُهُ عن موضعه تنحيةً فتنحّى» ويبدو أنَّ المصدر (التّنحية) أقوى دلالةً على الإبعاد والإزالة من المصدر (نَحْيًا)؛ نظرًا لما يؤدّيه تشديد العين في البنية من قوّةٍ في الدلالة .

ومن معاني مادة (نَحَا) الاعتراض، إذ يُقال: « انتحَيتُ لفلانٍ، أي: عَرضتُ له وأنحَيتُ على حلقهِ السكّين، أي: عرضتُ ».

ومن معانيها أيضًا أنَّ الفعل منها يأتي بمعنى: صَرَف وردَّ وعَدَل، يقال: « نحّاه عن مكانه تنحيةً فتنحّى عنه، وتنحّ عنّي، ونحِّ الدمع عن خدّكَ، وناحيتُه مناحاةً :صرتُ نحوه وصار نحوي ».

ويقال أيضًا: « نَحَاهُ ينحوهُ نَحوًا: صَرَفَه»، ومنه قولُهم: «نَحَا بَصَره إليه ينحاهُ وينحوهُ نحوًا: رَدّه وصَرَفه، و أنحاهُ عنه، عَدَله» وذكر أصحاب المعجمات أنَّ التنحية معناها الإزالة، ويبدو أنَّ هناك فرقًا واضحًا بينهما، إذ يرى أبو هلال العسكريّ (ت:٣٩٥ هـ) أنَّ «الإزالة تكون إلى الجهات الست، والتنحية الإزالة إلى جانب اليمين والشمال أو خلف أو قدّام، ولا يُقال لِـمَن صَعُدَ به أو سَفُلَ به: نُحِّيَ، وإنّما التّنحيةُ في الأصل لتحصيل الشيء في جانب، ونحو الشيء جانبُه »ويُفهم من ذلك أنَّ الإزالة أعمّ من التنحية وأشمل، فكلُّ تنحيةٍ إزالةٌ، وليس كلُّ إزالةٍ تنحيةً؛ لأنَّ التنحية إزالة أو إبعاد إلى مكانٍ قريب، وهذا ما عبّر عنه بقوله (قدّام أو خلف)، أي أو الموضع أو المجلس أو الشيء المنحّى إليه . ويؤكّد ذلك ما ذكر ابن سيده (ت:٤٥٨ هـ) في معجمهِ بقوله: «أعلِ عن الوسادة وعالِ عنها ــ أي: تنحَّ. وقال: اجلس ههنا ــ أي: قريبًا، وتَنحَّ ههنا يعني: أبْعِد قليلاً ... وتنحَّ غير باعِد ــ غير صاغِر، وتنحَّ غير بعيد ــ أي: كن قريبًا».

أما التنحية في الاصطلاح، فإنّي لم أجد ــ في حدود ما اطلعتُ عليه ــ تعريفًا اصطلاحيًا للتنحية النحويّة، وإذا أردتُ أن أضع تعريفًا للتنحية في مجال النحو فلا أبتعد عن المعنى اللغويّ للكلمة.

فالتنحية هي: إزالةُ حكم نحويّ أو تغييرُه إلى حكم نحويّ آخرَ، سواءٌ أكان عملاً نحويًا أمْ وظيفةً نحويّةً أم كليهما معًا؛ لسببٍ ما داخلَ التركيب .

ومن خلال هذا التعريف يمكننا وضع معادلة توضّحه، وهي أنّ التنحية يشترط فيها توافر ثلاثة أركان، هي: المُنحَّى: وقد

يكون اسمًا أو فعلاً أو أداةً .

والمُنحِّي: وهو ما يتسبب في حدوث التنحية.

والمنحَّى عنه: إذ قد تكون التنحية عن العمل فقط، أو عن الوظيفة فقط، أو عنهما معًا.

ولتوضيح ذلك سأُمثّل لكل نوع من هذه الأنواع بمثال، فمن التّنحية عن العمل تنحية المصدر عن عمله، إذ إنّه يعمل عمل الفعل بشروط، منها ألاّ يُفصل بينه وبين معموله بأجنبي، فإنْ فصل بينهما به بَطُل عمل المصدر، فالمنحَّى هو المصدر، والمنحِّي هو الفاصل الأجنبي، والمنحَّى عنه هو العمل.

ومثال ما نُحّيَ عن الوظيفة (إذا)، إذ يرى النحويّون أنّها تنحَّى عن معنى الظرفية إذا جُرَّت بحرف جر ، فالمنحَّى هو (إذا)، والمنحِّي هو جرّها بحرف الجر، والمنحَّى عنه هو الوظيفة .

وأما ما نُحِّي عن العمل والوظيفة فمثاله (إنّ وأخواتها)، عندما تُكَفُّ بـــ(ما) غير الموصولة فإنها تنحى عن العمل، وتكون لها وظيفة تختلف عمّا كانت عليه قبل دخول (ما) عليها، فالمنحَّى هو (إنّ وأخواتها)، والمنحِّي هو كفّها بـــ(ما) غير الموصولة، والمنحَّى عنه هو العمل والوظيفة .

أمّا أبرز النتائج التي توصل إليها البحث فهي:

تبيّن أنَّ لفظ (التّنحية) تعتوره عدّة معانٍ هي: (الإزالة، والمنع، والإبعاد، والاعتراض والردّ والصرف)، وأنّ المعنى الاصطلاحيّ للتنحية النحويّة لا يكاد يبتعد عن المعنى اللغويّ، فتنحية الكلمة نحويًا تعني : منعها عن عملها أو إبعادها عن وظيفتها النحويّة داخل السياق.

يظهر أنَّ (التّنحية) و(الإعمال) متقابلان فيما يدلان عليه، فالتّنحية تعني منع العمل، والإعمال ضدُّها، أي: إن الكلمة تؤدّي وظيفتها في الجملة، إن لم يكن هناك ما يمنعها من ذلك.

تبيّن أنّ للتنحية النحويّة أسبابًا عدّة، منها: (الفصل، والتعليق، والتجاور، والتنازع، والقطع، والتوسط، والتقديم، والجر، وانتقاض معنى النفي). فالتّنحية مفهوم تندرج ضمنه عدة مصطلحات هي: (الإهمال، والإلغاء، والإبطال، وإزالة الحكم، و النقل الوظيفي).

غلّب النحويّون ومن تابعهم من المفسّرين جانب الصنعة النحويّة في أحيان كثيرة على جانب المعنى، لذلك منعوا الكثير من القواعد النحويّة التي تتعارض مع أقيستهم، وإن كان لها تطبيقات وشواهد من القرآن

الكريم ، وأوّلوا هذه الشواهد بناءً على ما تقتضيه معايير الصناعة النحويّة التي وضعوها بأنفسهم.

غالبًا ما يلجأ أكثر المعربين والمفسّرين إلى تأويل النصوص القرآنيّة التي تتعارض مع أقيسة النحويّين وقواعدهم، ليطوّعوا تلك النصوص إلى هذه القواعد والأقيسة، وفي هذا الصنيع إجحافٌ كبيرٌ بكون القرآن الكريم أصلَ السماعِ الأوّلَ، وبما تتضمّنه النصوص التي أوّلوها من دلالات ومعانٍ لم يقفوا عليها.

أهمل النحويّون جانبَ المعنى في عددٍ من أبواب النحو، وانعكس ذلك على تحليلهم النحويّ لكثير من آيات القرآن الكريم، ولذلك تراهم يضعون قواعدَ للمعنى وأخرى للصناعة النحويّة، وكأنَّ المعنى لا علاقة له بالقاعدة التي وضعوها .

- لم يختلف موقف أغلب المفسّرين من النصوص القرآنيّة المشكِلة نحويًا عن موقف النحويّين أنفسهم، إذ كانت القواعد النحويّة نُصْبَ أعينهم لا يحيدون عنها إلا نادرًا، و لكن بعض المفسّرين ومعربي القرآن لم يسايروا النحويّين فيما ذهبوا إليه أو وضعوه من القواعد النحويّة العقلية، بل غلّبوا جانب المعنى منتصرين له غيرَ مبالين بمخالفة هذه القواعد، وفي ذلك دلالة واضحة على خصوصية التعبير القرآنيّ عن غيره من الكلام.
- تبيّن أنَّ أكثر ما يُنَحّى نحويًا هو الحروف، وتليها الأسماء، ثمّ الأفعال.
- ينبغي أن توجد شروط عمل بعض العوامل مجتمعةً حتّى يتحقّق العمل، أما المنحِّيات، فلا، إذ قد يكفي وجود منحٍّ واحد لتنحية العامل عن العمل أو عن الوظيفة أو عنهما كليهما.
- قد تكون التّنحية كليةً، وقد تكون جزئيةً، بمعنى أن العامل إذا لم يحتفظ بشيء من خصائص عمله أو وظيفته بعد التّنحية، فالتنحية حينئذٍ كليّة، وإنِ احتفظ فالتنحية جزئيّة .
- قد تكون التّنحية سلبية، بمعنى أن العامل يفقد عمله، أو عمله ووظيفته بعد التّنحية، وقد تكون إيجابيةً، أي: قد يصبح اللفظ عاملاً بعد التّنحية عن وظيفته، وهو قبل التّنحية لم يكن عاملاً ، كما في (حيثما) .
- يظهر أنَّ الوظيفة النحويّة والعمل النحويّ متلازمان في بعض العوامل، فبمجرد أن يفقدَ العاملُ النحويُّ وظيفتَه الأساسيّةَ

في الجملة، فإنه يفقد عملَه، كما في شروط عمل (لا) النافية للجنس.

- يحدُث في الأدوات المركَّبة حكمٌ جديدٌ ومعنى جديدٌ بعد التركيب، هذا هو الغالب فيها، ومنها ما خُصّصت دلالتُه بعد التركيب، وقد يغيِّر التركيبُ العملَ في بعض الأدوات، فبعد أنْ كانت غيرَ عاملة تُصبح عاملةً مثل (حيث)، وقد يُغيِّر الزمنَ والمعنى كما في (إذ) عند تركُّبها مع (ما)، وقد ينقل التركيبُ بعضَ الأدوات من الحرفية إلى الاسمية كما في (لمَّـــا).
- لمحافظة العامل على معناه أو موقعه أثرٌ كبيرٌ في محافظته على عمله وعدم تنحيته، كما في (ظن) وأخواتها، و(إذنْ)، و (ما ولا وإنْ)، المشبّهات بـــ(ليس)، و(لا) النافية للجنس.
- تبين أنّ (ما) من أكثر المنحِّيات تأثيرًا في غيرها من الأدوات، وخاصّةً بعد التركّب معها، إذ إنَّ الكثير من هذه الأدوات قد تفقد عملها أو وظيفتها كلّيًا أو جزئيًا بسبب تركّب (ما) معها.
- لا يمكن التسليم بزيادة الفعل أو الحرف في النظم القرآنيّ، بمعنى أنّه لا يؤدّي وظيفةً في الجملة، وأنّه يمكن حذفه والاستغناء عنه، بمجرد وقوعه حشوًا أو وسطًا في التعبير القرآنيّ، وإنّما يؤتى به لأداء معنى مهمّ وأساس، لا يؤدّى بغيره، ولا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه، وإنْ كان هذا جائزًا، فهو في كلام العرب شعرًا ونثرًا، ولا يمكن قياسُه على التعبير القرآنيّ . ولا يصحّ الحكمُ بزيادة الحرف في آية قرآنيّة بمجرد خلوّ آية أخرى مشابهة لها في موضع آخرَ من القرآن الكريم، فهذا من القياس المغلوط في تفسير القرآن الكريم، وبيان وجوه إعجازه .

وأخيرًا أقول: هذا عملي، لا أدّعي له الكمال، فذلك مما لا يُنال؛ لأنّ الكمال لله تعالى وحده، فإن أصبت فيه فذلك بفضل الله تعالى وتوفيقه، وهو غاية القصد ومنتهى الأمل، وإنْ أخطأت فذلك من نفسي، وحسبي أني ابتغيت الصواب، والله أسألُ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقني فيه السداد والتوفيق، ويتقبله مني بقبول حسن، وينفع به الدارسين، إنَّه وليّ ذلك والقادر عليه .وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين.

سبح اسم ربك الأعلى
١٩
١٤

مشاريع قرآنية

التبليغ القرآني الدولي

أ.م.د أحمد صبيح الكعبي

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

ضمن العمل الدؤوب والنشاط الحثيث للعتبة الحسينية المقدسة/ دار القرآن الكريم والذي يمثل نهجًا قويمًا في تبليغ رسالة القرآن الكريم ومن خلال شعبة التبليغ القرآني الدولي إرسال الحفاظ والقراء المتميزين لإحياء المحافل القرآنية في المساجد والمؤسسات الدينية في دول متعددة كان آخرها في دول شرق آسيا وعلى وجه التحديد (ماليزيا وأندونيسيا) إذ أقيمت نشاطات قرانية واسعة في أكبر ثلاثة مساجد وهي (مسجد السلطان علم شاه) في العاصمة الماليزية كوالالامبور و (مسجد الاستقلال) في العاصمة الأندونيسية جاكرتا الذي يستوعب (٢٠٠) الف مصلي وهو أكبر المساجد في جنوب شرق آسيا و(مسجد أكبر) في سورابايا ثاني أكبر المدن الأندونيسية .

وقد كان من ضمن المشاركين في هذه المحافل إضافة إلى الحافظين منتظر ومحمد باقر المنصوري القارىء الدولي أسامة عبد الحمزة إذ أقيمت في الزيارة الأخيرة في شهر رمضان المبارك ١٤٣٤هـ أكثر من (٣٠) أمسية قرآنية ومن ذلك المحفل القرآني في مدينة بيراك وجوهوربهارو/ في ماليزيا، ومالانغ وبروبولينغو وبانغيل وباندونغ وسورباية فضلاً عن جاكرتا في اندونيسيا، وكان لهذه المحافل الأثر الكبير في تبليغ رسالة القرآن والتعريف بالأنشطة القرآنية التي ترعاها الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة من خلال دار القران الكريم في داخل العراق وخارجه .

وفضلاً عن احياء المحافل القرآنية كان للوفد القراني لقاءات عديدة مع

الشخصيات والمؤسسات الدينية ومن ذلك اللقاء مع رئيس جمعية القراء والحفاظ الشيخ (مهيمن زين) في المعهد العالي لعلوم القرآن وسبقه لقاء مع الدكتور سعيد عقيل سراج رئيس منظمة نهضة العلماء التي تعد اكبر المنظمات في اندونيسيا والتي يبلغ

عدد اعضائها (٥٠) مليون وقد عبر رئيس المنظمة عن سعادته بهذا اللقاء قائلًا: ان اللقاء يزيد الاخوة الاسلامية بين البلدين .. كما تم اللقاء مع وزير الشؤون الدينية الاندونيسي ومدير مركز الدراسات الاسلامية في جاكارتا الدكتور محمد قريش شهاب ورئيس جبهة الدفاع عن الاسلام الحبيب رزق شهاب ورئيس وأعضاء مجلس العلماء الاندونيسي واعضاء منظمة اهل البيت الاندونيسية .

ومن خلال تلك اللقاءات وجّه الوفد القراني دعوة لعدد من ابرز الشخصيات والعلماء لزيارة العتبات المقدسة في العراق واللقاء بالمرجعيات الدينية في النجف الاشرف واثمرت هذه الزيارات المتبادلة عن توقيع اتفاقية التعاون القراني والعمل على اعادة افتتاح السفارة الاندونيسية في العراق وتطوير مجالات التعاون بين البلدين .. ومنح الوفد العديد من الشهادات التقديرية على اثر مشاركاته الواسعة ومنها درع جامع الاستقلال ودرع جامع شاه علم وشهادات التقدير من مسجدي روضة المتقين وروضة المؤمنين في جزيرة جاوا الشرقية كما منح الوفد القرآني للعتبة الحسينية المقدسة العديد من الشهادات التقديرية وقد تم الاتفاق على مواصلة الزيارات والمشاركات في المحافل للتعارف بين الشعوب الاسلامية في مختلف أنحاء العالم عملًا بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.

Besides I show Sayid Sebzwari's idea about that matter out of his interpretation (of the Qur'an).

العصمة وأثرها في تلقي النص القرآني

Infallibility and Its Affection on Receiving the Qur'anic Text

The function of the divine discourse is to show the role of the receiver (of the divine Message) in explaining it. Therefore; he is totally authorized to notify it as he is the unique qualified one to read the text and show its significance. And since he is well-trusted, the Message will be completed and satisfactorily accepted by people. The creator has sent faithful Gabriel to deliver the and purely and finally to believers.

أسماء القرآن الكريم / قراءة في إشكالية الأسماء والصفات

Studying Equivocations of Names and Attributes of the Holy Qur'an.

Muslim scholars widely studied the Holy Qur'an from different sides. Here our article is a drop from that clear fountain from which scholars used to drink and will go on drinking as long as heavens and the earth will survive.

My article, I am proud, studies the question of the names of the Qur'an which has already been studied and presented in different ideas and sayings. However, I am trying to go deeply through resources to shed light on that question to know its roots and the real reasons behind calling the Qur'an by different names. I used a poised method when dealing with those sayings to come up with a preponderant idea.

sake of Allah. Moreover, he did so to save humanity and guide people on the way of guidance.

الشعراء في القرآن الكريم

Poets as Seen by the Holy Qur'an

The Holy Qur'an never forbade poetry and did not stand against it nor adopted an aggressive attitude toward it. But it directed poetry in another way (i.e) it linked poetry with religion and the values derived from it for serving the Islamic society and on a condition that it should follow the method the Qur'an set.

سبل تعزيز القيم الروحية

Ways of Consolidating of the Spiritual Values

All educated Muslims know how the Holy Qur'an cares about values when facing the materialistic world. It pays much attention to them more than any other inter-

العقل وأهميته في فكر الامام موسى الكاظم عليه السلام

Mind in Imam Kadhum's (p.b.u.h) Intellect / A Qur'anic Vision

The greatness of Ahlul-Bayt (p.b.u.t.) is represented in their perfect personalities, their knowledge of Almighty Allah more than other people and their pure belief in Him. All those characteristics were reflected on their behaviors and relations in their ideal immortal lives.

Imam Kadhum's (p.b.u.h.) struggling life is considered an example of the ethical and educational morals in the life of Islamic nation. His life was famous for firmness and steadfastness. He was the true example for Prophet Muhammed's biography in behaviors, deeds and sacrifice. It is not a surprise that he showed asceticism and sacrificing with money and soul for the

The story of Prophet Moses (p.b.u.h.) is widely narrated in the Holy Qur'an. Many Qur'anic Suras deal with his story more than other stories. Even his name is mentioned in the Qur'an more than other names.

This has not come at random. Yet, it is because of the number of lessons and examples it includes. The story is famous for its variety of scenes like describing the Israelites situations before Moses, the dramatic events of his birth, how he was thrown in the sea(the Nile) and how he was picked up by Pharaoh's family.

Further events in his life are mentioned like killing the Egyptian who quarreled with the Israelite and how that event was the reason behind Mose's exodus terrified, his migration to Madyan, meeting the two sisters and their father Shu'eib and later his marriage and working as a shepherd in Madyan. Then his migration back to Egypt and how he talked with Alests because the Qur'an has its own spiritual and educational method to refine human psyche and feed it and the mind with noble spiritual values. Therefore; Islam is the religion whose method achieves the Islamic ideal community.

Here, the individual does not think of one's interests and personal benefits only rather than feeling responsible for others. That comes from the ethics and behaviors derived from the principles of Islam, the holy religion.

Islamic education, in general, tends to fix human values like loving people, mercy, boldness, knowledge, work, sympathy, forgiveness, favor, wisdom, sacrifice, trust and other spiritual values revealed in the Holy Qur'an. Doing so Islam aims at perfection.

تأملات في قصة نبي الله موسى عليه السلام

Meditation on Prophet Mose's Story

main principles, they are widely discussed ideologically and doctrinally nowadays. Some extremist parts who adopted accusing others of disbelieving pushed ideological confusion and social separation to the surface. They accused all pilgrims who visit Prophets and Imams Shrines of disbelieving and even those who entreat to the shrines are false and liars.

مفهوم الغريب في القرآن الكريم

The Concept of (Strange) in the Holy Qur'an

The article deals with many questions like studying the term (strange) linguistically and idiomatically, (strange) as seen by rhetoricians and the (strange) in the Holy Qur'an as was seen by ancient and modern scholars. The writer used more than thirty reference books including lexicons, books of eloquence and interpretation of the Qur'an and others. He concludes many questions

mighty Allah and how he was sent as a messenger are also narrated.

The article goes on talking about facing pharaoh and people in Egypt, challenging and defeating the magicians, leaving Egypt with the Israelites followed by Pharaoh and his followers, splitting of the sea and pharaoh's drowning, getting lost in the desert, worshipping calf, Samarian's falsehood and other stories like Moses and Korah, Slaughtering the cow, pharaoh's wife, the believer of the pharaohs and other details.

مفهوم التوسل في المنظور القرآني / سورة يوسف أنموذجاً

The Concept of Entreaty in the Qur'anic Vision / Surat Yusuf as an Example

Entreaty and intercession are quite clear concepts rationally and by narration. They have undoubted proofs with no suspicions. Though they are parts of branches of Islam (i.e) not of the

صورة الكافر في الخطاب القرآني
دراسة سيميائية

The Image of the Unbeliever in the Qur'anic Discourse (A Semantic Study)

The Qur'anic discourse calls a group of people (unbelievers) in many places. They are opposite of (believers). That means they adopted a different way from that of Almighty Allah's leave. Though Almighty Allah has showed them the way of faith and belief, warned them of the way of disbelief and misery, they went astray.

One of Almighty Allah's graces was that he brought human beings to existence after nonbeing. Existence, itself, was one of succeeding graces followed by other graces. It was related to the big aim behind creation as man was ordered to achieve the mission of (succession).

آية (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ....)

A Contextual Reading about Verse (2:215)

The article studies the concept of (questioning) about spending (taxes) in verse no.215 of Surat Al-Baqara "They will ask you about what they should spend (in taxes) Say: Any money you contribute should be (first) spent on both your parents, close relatives, orphans, the needy and the wayfarer. God is Aware of any good you do." So those are who deserve spending on.

What draws the attention, here, is the expression of (good) to refer to non-reminding of favor otherwise spending will hurt those who are granted favor. Moreover, (spending) encourages social solidarity and creates a kind of love and a feeling of security beside happiness.

Editorial

Minds of the rational lie in the tips of their pens

Praise be to Allah, Lord of the worlds. Blessings and peace be upon Muhammed and his pure good progeny and his auspicious companions. Peace be upon Imam Hussein, sons of Hussein and the companions of Hussein who sacrificed themselves for Hussein. Then peace be upon readers of (Sada Al-Qur'an).

Almighty Allah says in the Holy Qur'an:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾

Say: "If the sea were ink for the Words of my Lord, surely the sea would be exhausted before the Words of my Lord would be vanished even if we brought like it for its aid". (18:109)

The holy verse makes us face to face with many matters and responsibilities which oblige us to do and express them. According to the holy verse we could imagine how much knowledge we need to meditate the Qur'an and look attentively at it to show Muslims and the whole humanity its meanings. Then we have to imagine Muslims' degrees of scientific and cognitive awareness within their different sects and ideologies to answer their needs and offer them skillful well-experienced scholars and researchers to show the real lines of Islam.

We, therefore, are in need of a true uprising anywhere and anytime to understand the Qur'an and interpret it accurately. We should follow up any new scientific and moral matters to submit them to the Qur'an.

Editorial

The Qur'anic research we hope should be well-done and scientific directed by future plans, visions and projects. It should not be extemporaneous, or it will be unorganized, funny and out of purpose from what aim. We aim at educating Muslims according to the comprehensive and renewing nature of the Qur'an because we believe it is a divine constitution to all humanity.

Feeling that need, Sada Al-Qur'an looks forward to the tips of researchers "pens because they show their meditation of the Qur'anic text and urge them to write about what answers Muslims' intellectual needs. Otherwise it would be mere proposition, theorizing or meditation.

The research which observes certain social category dealing with the standard of their thinking is undoubtedly a productive one (i.e) produces new awareness which urges them to read it, observe it and look for more.

Today we are very happy to present a bunch of scientific articles and rational meditations by which we intend to promote the Qur'anic meanings and horizons. Through such articles we seek propagating the Qur'anic awareness among all Muslim social sects. We call for the writer who care about the unlimited miracles of the Holy Qur'an to provide us with their works.

Finally we pray for Allah to grant success to all the workers in Darul-Qur'an Al-Kareem to serve the Qur'an.

Editor – in - chief

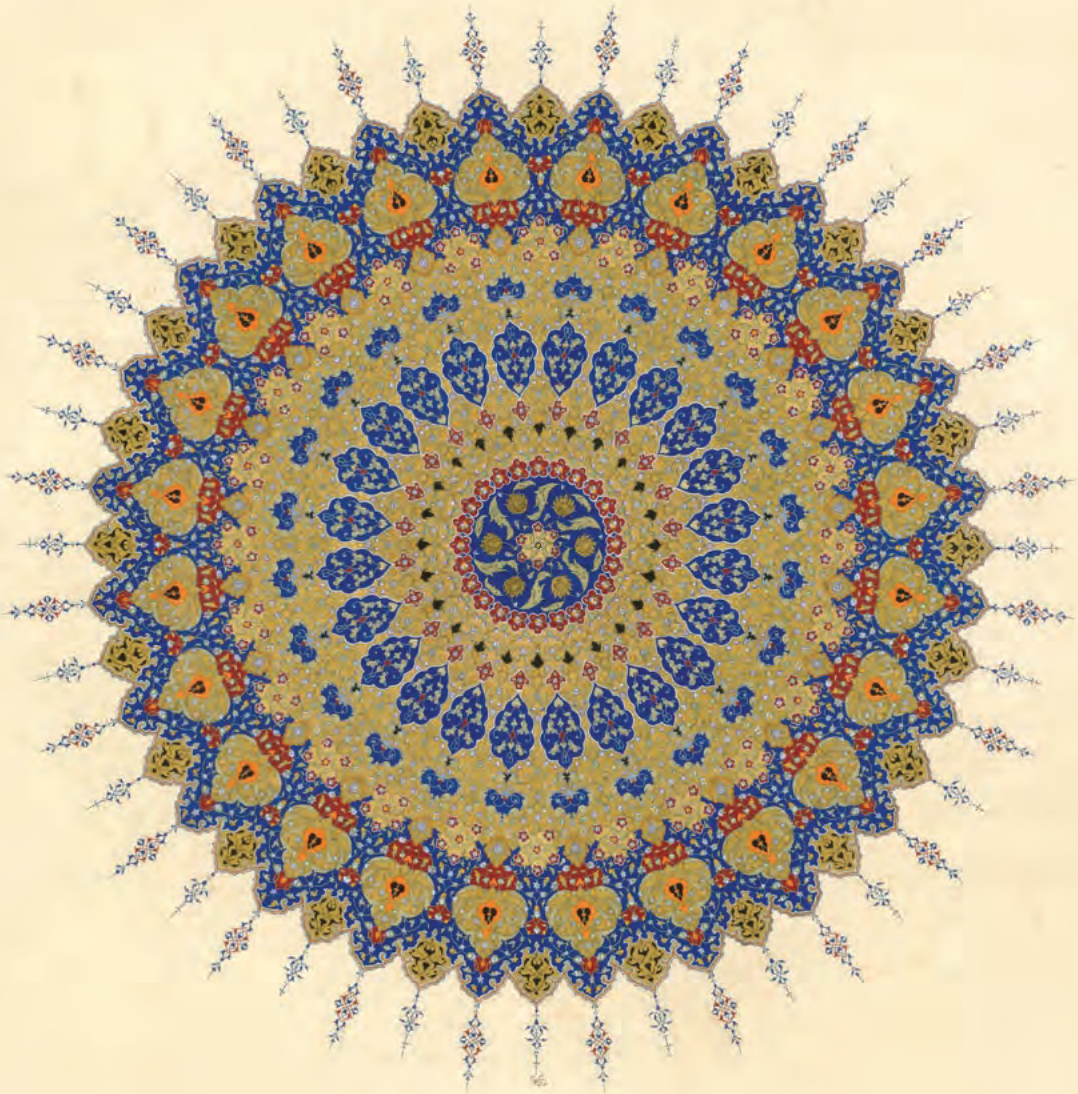

Sada Al-Qur'an

A Quarterly Cultural and Qur'anic Bulletin No.5 Second Year

Contents

8	The Concept of (Strange) in the Holy Qur'an	145
9	A Contextual Reading about Verse (2:215)	161
10	The Image of the Unbeliever in the Qur'anic Discourse (A Semantic Study)	169

Sada Al-Qur'an

Sada Al-Qur'an

A Quarterly Cultural and Qur'anic Bulletin No.5 Second Year

Contents

Editorial

1 Studying Equivocations of Names and Attributes of the Holy Qur'an 7

2 Infallibility and Its Affection on Receiving the Qur'anic Text 19

3 Mind in Imam Kadhum's (p.b.u.h) Intellect A Qur'anic Vision 57

4 Poets as Seen by the Holy Qur'an 75

5 Ways of Consolidating of the Spiritual Values 93

6 Meditation on Prophet Mose's Story 111

7 The Concept of Entreaty in the Qur'anic Vision Surat Yusuf as an Example 129

Sada Al-Qur'an

A Quarterly Cultural and Qur'anic Bulletin No.5 Second Year

Editorial

Advisory Board
Sayid Fadhil Al-Jabiri
Talal Al-Kamali
Abood Judi Al-Hilli Dr.
Zayn Al-Abidin Mosa Jafar Dr.

General Supervision
His Eminence
The General Secretary of the
Hussaini Holy Shrine Foundation
(Al-Ataba Al-Hussainiya)

Editorial Staff
Mohammed Jafar Al-Ardi Dr.
Hayder Abdul Zahra Dr.
Faleh Hussien Al-Asadi Dr.
Intisar Radi Elewi Dr.

Executive Manager
Sheikh Hasan Al-Mansouri
In charge of Darul
Qur'an Al-Kareem in the
Hussaiani Holy Shrine Foundation

Language Correction
Abdul Hasan Al-Abudi Dr.

Editor in Chief
Adil Natheer Bayri Dr.

Translation
Saad Sharif Taher

Editorial Manager
Ahmad Sabeeh Al-Ka'abi Dr.

General Relations
and Coordinations
Ammar Razaq Al-Khuzaii

Editorial Secretary
Jafar Hasan Ali

Design
Mohammed Taher Almosawi

www.dar-alquran.org sadaalquran1@gmail.com